الأخـــلاق

فى القرآن والسنة

(الجزء الثاني)

الدكتور

على الخطيب

أستاذ و رئيس قسم الأدب والنقد

وعضواتحاد كتاب مصر وعضو رابطة الأدب الاسلامى العالمية

والعميد الأسبق لكلية اللغة العربية

فرع جرجا – سوهاج

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

٢١٢
ع . خ

الخطيب ،علي .

الأخلاق في القرآن والسنة / علي الخطيب.- ط١.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

١٧٦ ص ؛ ١٧,٥ × ٢٤,٥سم .

تدمك : 978 – 977 – 308 – 344–7

١. الأخلاق الإسلامية

أ - العنوان .

رقم الإيداع : ١٩٤٢٦

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة

هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس: ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١

E-mail: elelm_aleman@yahoo.com
elelm_aleman@hotmail.com

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

تحـــذيـــر:

يحظر النشر أو النسخ أو التصوير أو الاقتباس بأى شكل من الأشكال إلا بإذن وموافقة خطية من الناشر

2012

الفهرس

مقدمـــة

الحمد للّٰه رب العالمين ، والصلاة والسلام على أكرم المرسلين ، سيدنا محمد - ﷺ - وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين .

أما بعد :

فها هو ذا الجزء الثانى من الموسوعة العلمية ، وهى " الأخلاق فى القرآن والسنة" وينتظم الموضوعات الآتية ، وهى :

الوفاء بالعهد ، الأمانة ، العزة ، الرحمة ، العلم ، الصدق ، درء السيئة بالحسنة كراهية المؤمن لارتكاب الذنوب ، البشاشة وحسن اللِّقاء القصد فى المشى ، النأى عن المن والأذى، الحياء، الثبات على الحق المودة فى القربى عدم الحنث ، الوفاء.

ويليه بإذن اللّٰه تعالى الجزء الثالث ، راجين من اللّٰه العلى القدير أن ينفع به المسلمين في أرجاء المعمورة ، إنه نِعْم المولى ونعم النصير.

المؤلف
الأستاذ الدكتور / على الخطيب
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد
جامعة الأزهر

" الوفاء بالعهد "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة ، الوفاء بالعهد ، فلابد من ضوابط للحياة . حياة المرء مع نفسه ، وحياته مع غيره من الناس ، الأقربين والأبعدين من الأهل والعشيرة ، والجماعة ، والأمة ، والأصدقاء ، والأعداء ، وكل ما يحيط بالإنسان في هذا الكون ، ثم حياته مع ربه- سبحانه وتعالى ، والعلاقة بالله -عزوجل- هي أساس الحياة جميعا ، لذلك يقول الله - عزوجل:-﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾[سورة المائدة: ١]

إن الإسلام يقيم هذه الضوابط في حياة الناس ، ويحددها بوضوح ويربطها كلها بالله- سبحانه وتعالى- حتى لا يكون الأمر فيها للأهواء ، والشهوات المتغيرة ، ولا للمصالح العارضة التي يراها فرد ، أوتراها مجموعة ، أوتراها امة فيحطمون في سبيلها هذه الضوابط التي أقامها الله .سبحانه .هي المصلحة ما دام الله هو الذي أقامها للناس ، فهي في مصلحة الناس جميعا ، ولورآها البعض غير ذلك فمن الواجب على المسلم التسليم والإذعان، والانقياد ، والطاعة ، فلا تقدير للمرء أمام تقدير الله- عزوجل- حيث أن الله- سبحانه – هو العالم بأحوال العباد ، وما يكون في مصلحتهم .

لا تدبر لك أمرا ... فأولوا التدبير هلكا
سلم الأمر إلينا ... نحن أولى بك منك

هذه الضوابط يسمها الله - عزوجل - " العقود " فقال سبحانه :- " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ " وهولفظ ينتظم ، ويشمل كل عقد وعهد بين الإنسان وربه ، وبين الإنسان والإنسان .

يقول " ابن عباس "- رضي الله عنهما - " العقود هي العهود وهى ما أحل الله ، وما حرم ، وما فرض في القرآن كله من التكاليف والأحكام .

وهذا القول اختاره" الطبري والزمخشرى"والأرجح هوالعموم، فهوأمر بالوفاء بكل عقد .

وهوأيضا اختيار صاحب " البحر المحيط " وجمع من المفسرين .

قال " بن اسلم " : هي ستة : عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع وعقد النكاح ، وعقد اليمين ، وهوكذلك في " ابن كثير ".

" أن الله يحكم ما يريد " يعنى يقضى في خلقه بما يشاء لأنه الحكيم في أمره ونهيه

ويقول " ابن كثير " في معنى هذه الآية " هي عهد من محمد رسول الله .- ﷺ - "لعمرو بن حزم " حين بعثه إلى اليمن أمره بتقوى الله في أمره كله ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون " .

وعن " ابن عباس "- رضي الله عنهما- قال : يعنى العقود يعنى العهود وهى ما احل الله ، وما حرم ، وما فرض ، وما حَدَّ في القرآن كله ، ولا تغدروا ، ولا تنكثوا ، ثم شدد في ذلك فقال تعالى:" ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [سورة البقرة:٢٧].

وهذه آيه تدل على لزوم العقد وثبوته ، فيقتضى نفى خيار المجلس ، وهذا مذهب "أبى حنيفة ومالك " وخالفهم في ذلك " الشافعي ، وأحمد ، والجمهور " والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن " ابن عمر .رضي الله عنهما .قال ، قال رسول الله- ﷺ - "البياعان بالخيار ما لم يتفرقا " وفى لفظ آخر " للبخاري " " إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا " وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع ، وليس هذا منافياً للزوم العقد ، بل هو من مقتضياته شرعاً ، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقود ، فإذا أبرم المسلم عقداً فيجب عليه أن يحترمه ، وإذا أعطى عهدا فيجب أن يلتزمه، ومن الإيمان أن يكون المرء عند كلمته التي قالها ينتهي إليها كما ينتهي الماء عند شطآنه فيعرف بين الناس بالوفاء بالعقود ، والالتزام بالعهود ، فالعهد لابد من الوفاء به ، كما أن اليمين لابد من البر بها ، ومناط الوفاء والبر ، أن يتعلق الأمر بالحق والخير ، وإلا فلا عهد في عصيان ، ولا يمين في مآثم ، يقول رسول الله- ﷺ -: " من حلف على يمين فرأى غيرها خير منها ، فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هوخير " فلا عقد ولا تعهد إلا بمعروف [1].

روى " أنس بن مالك " قال : غاب عم " أنس بن النضر " عن قتال " بدر " فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين !! لئن أشهدنى الله مع النبي قتال المشركين ليرين ما أصنع !! فلما كان يوم " أحد " انكشف المسلمون فقال : اللَّهم انى اعتذر إليك مما صنع هؤلاء- يعنى أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المشركين .ثم تقدم ، فاستقبله " سعد بن معاذ " فقال : يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إنى لأجد ريحها من دون أحد !! قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع ، ثم تقدم ، قال أنس: فوجدناه به بضعاً وثمانين ما بين ضربة بالسيف ، وطعنة بِالرمح ، ورمية بسهم ،

1- رواه مسلم.

ووجدناه وقد مثل به المشركون ، فما عرفه إلا أخته بشامة فيه أوبنانه . قال أنس : كنا نرى أن هذه الآيه نزلت فيه وفى أشباهه . ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب:٢٣] .

ويقول الإمام " الغزالي " ولا أعنى به صاحب " الإحياء " ولكنى أعنى به إمام العصر الحديث المغفور له- بإذن الله تعالى - الشيخ " محمد الغزالي " والوفاء بالعهد يحتاج إلى عنصرين ، وإذا اكتملا في النفس سهل عليها أن تنجز ما التزمت به ، فان الله أخذ على " آدم " أبى البشر ، عهداً مؤكداً ألاّ يقرب الشجرة المحرمة لكن " آدم " ما لبث أن نسى وضعف ، ثم نكث في عهده ، قال تعالى:-﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [سورة طه:١١٥] فضعف الإرادة وضعف العزيمة عائقان كثيفان عن الوفاء بالواجب ، والإنسان . تتجدد الحوادث أمامه ، وترادف الهموم المختلفة عليه- يفعل الزمان فعله العجيب في نفسه فتخبوا المعالم الواضحة ، ويمسى ما كان بارزاً في نفسه لا يكاد يبين ، والذكر المضطرد اليقظ ضرورة لازمة للوفاء ، فمن أين لناسي العهد أن يفي به ؟ لذلك ختمت أيه العهد بعنصر التذكير ، وهوقول الله تعالى: ﴿... وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [سورة الأنعام:١٥٢]وأقدار الرجال تتفاوت تفاوتاً شاسعاً في هذا المضمار ، وإن ثمن الوفاء قد يكون فادحاً ، قد يكلف المال ، أو الحياة ، أو الأحبة ، بيد أن هذه هي تكاليف المجد المنشود في الدنيا والآخرة ، يقول الشاعر :

لو لا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر و الإقدام قتال

والعهود التي يرتبط بها المسلم درجات ، فأعلاها مكانةً ، وأقدسها زماماً العهد الأعظم الذي يكون بين العبد وربه ، فإن الله خلق الإنسان بقدرته ، ورباه بنعمته ، وطلب منه أن يعرف هذه الحقيقة ، وإن يعترف بها ، وإلا تشرد به الغواية فيجهلها ويجحدها .

﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [سورة الروم:٦٠:٦١] .

وإذا كان هناك من البشر من لم يستمع إلى المرسلين ، ويشهد بما جاءوا به ، فإن له من فطرته سائقاً يحدوه إلى ربه ، ويبصره بخالقه ، مهما حفلت البيئة بصنوف الفساد، وضروب التخريف ، وهذا هومعنى الميثاق الذي أخذه الله على الناس كافةً ، يقول الحق- سبحانه وتعالى- في محكم كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا

غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾[سورة الأعراف:١٧٢:١٧٤].

والوفاء بالعهد أساس كرامة الإنسان في الدنيا، وسعادته في الآخرة ، قال تعالى ﴿...ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [سورة البقرة:٤٠].

قص"عوف بن مالك "- رضي الله عنه - قال : كنا عند النبي - ﷺ - تسعة أوثمانية أوسبعة فقال- عليه الصلاة والسلام- ألا تبايعون رسول الله ؟ فبسطنا أيدينا وقلنا : نبايعك يا رسول الله ، قال: على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا ، وأسر كلمة خفية ، قال :ولا تسالوا الناس شيئا ، قال عوف بن مالك - رضي الله عنه -" فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط صوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله إياه "[1] فانظر إلى الوفاء بالبيعة ، ودقة تنفيذها ، وليس هذا إلاَّ نصحاً لكل طائفة بما تعتبر أجوح إليه ، فالحاكم يُنْصَح ألاّ يظلم ، والتاجر ينصح بألاّ يغش، والموظف ينصح بالا يرتشي وهكذا ، وإلاَّ فكل مسلم مكلف بالدين كله ، وقد ظهرت في بلاد الإسلام فرق تُعْطــى عهوداً خاصة لا ينبغي الاكتراث بها فهؤلاء كأدعياء الطب ، الذين يصفون الأدوية المزورة فلا تزيد المرضى إلاّ مرضاً وتعاليم الإسلام كُلٌ لا يتجزأ ، والعمل بها واجب محكم في كل زمان ومكان ، والعهد الذي قطعه الأنصار- رضي الله عنهم - على أنفسهم يعد من ألمع المواثيق والعهود في تاريخ العقائد ، وأدلها على التجرد لله، والفناء في سبيل الحق .

وقد تم في ليلة رائعة في موسم الحج وعاد الناس بعدها يعالجون شئونهم المتباينة بيد أن تبعات هذا العهد لزمت أصحابه فقبلوها رغبة لا رهبة ، وعن سماحة وطواعية ، وقدموا دماءهم الذكية سهلة في غزوة " بدر الكبرى " .

وكان النبي- ﷺ - في الأزمات العضود يعتمد على هذا الموثق لنصرة الدين ، وإعلاء كلمة الله ، فلما انكشف المسلمون في الجولة الأولى من معركة " حنين " ، أهمل رسول الله – ﷺ - الجموع الكثيرة التي دخلت - بعد - في الإسلام ، وصاح بالأوفياء الذين بايعوه في العقبة لإنقاذ الموقف . قص " انس "- رضي الله عنه- قال : لما كان يوم حنين أقبلت ، هوازن ، وغطفان ، وغيرهم بذراريهم ، ونعمهم ومع رسول الله- ﷺ - يومئذ عشرة آلاف ، ومعه الطلقاء فأدبروا عنه حتى بقى وحده ، فنادي يومئذ نداءين ، لم يخلط

1 - رواه مسلم.

بينهما شيئاً ، التفت عن يمينه فقال : يا معشر الأنصار ، فقالوا : لبيك يا رسول الله ، نحن معك أبشر ، ثم التفت عن يساره فقال : يا معشر الأنصار ، فقالوا : لبيك يا رسول الله ، ابشر نحن معك .... وهوعلى بغلة بيضاء فنزل فقال: أنا عبد الله ورسوله، فانهزم المشركون وأصاب غنائم كثيرة فقسمها بين المهاجرين والطلقاء، ولم يعط الأنصار منها شيئاً فقالوا: إذا كانت الشدة فنحن ندعى ويعطى الغنائم غيرنا ؟ فبلغه ذلك فجمعهم وقال : يا معشر الأنصار ما شئ بلغني عنكم ؟

فسكتوا ، فقال : يا معشر الأنصار أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبون بمحمد- ﷺ - تحوزونه إلى بيوتكم ؟ قالوا :بلى يا رسول الله رضينا، فقال رسول الله- ﷺ - لوسلك الناس واديا،وسلك الأنصار شُعَبا، لسلكت شعب الأنصار"(1) .

ومن الوفاء المحمود أن يذكر الرجل ماضيه الذاهب لينتفع به في حاضره ومستقبله فإن كان معسراً فأغناه الله ، أو مريضاً فشفاه الله ، فليس يسوغ له أن يفصل بين أمسه ويومه بسور غليظ ، ثم يزعم أنه ما كان قط فقيراً ، ولا مريضاً ويبنى على غروره بحاضره مسلكا ، كله فظاظة وجحود ، وضد أى نوع من الغدر ينتهي بصاحبه إلى النفاق وربما انطرد به من رحمة الله فلم تتسع بعدئذ له .

روى أن رجلاً من أهل المدينة يُدْعى " ثعلبة " أتى مجلساً من مجالس الأنصار فأشهدهم " لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حق حقه وتصدقت منه ووصلت القرابة ، فمات ابن عم له ، فورث منه مالاً ، فلم يف بشئ مما عاهد عليه ، فنزل قول الله:

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾[سورة التوبه:٧٥:٧٨].

ومن القصص الدالة على شؤم الغدر وعقوق النعمة ، ما رواه " أبوهريرة "- رضي الله عنه -عن رسول الله – ﷺ- قال : " أن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص ، واقرع ، وأعمى ، أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عنى الذي قذرنى الناس، فمسحه فذهب عنه قذره وأعطى لوناً وجلداً حسناً فقال : أى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل فأعطاه ناقة عشراء

1 - رواه البخاري .

وقال: بارك الله لك فيها ، ثم أتى الأقرع فقال : اى شئ أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عنى هذا الذي قذرنى الناس ، فمسحه فذهب عنه وأعطى شعرا حسنا قال: فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر ، فأعطى بقرةً حاملا وقال : بارك الله لك فيها ، ثم أتى الأعمى فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال: أن يرد الله على بصري فمسحه فرد الله عليه بصره ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال الغنم ، فأعطى شاة وَلاّدَةً ، فأنتج هذان، وولد هذا فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم ، ثم انه أتى - أى الملك - الأبرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحيال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن بعيراً أتبلغ به سفري ، فقال " الحقوق كثيرة فقال : كأني أعرفك ؟

ألمَ تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيراً فأعطاك الله ؟ قال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر قال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت ، وأتى الأقرع في صورته ، فقال له مثل ذلك، ورد عليه مثل ما رد الأول فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت ، ثم أتى الأعمى في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال فقال : قد كنت أعمى فرد الله على بصري فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم لشئ أخذته لله ، فقال : امسك مالك ، فإنما ابتليتم فقد رضي عنك وسخط على صاحبيك " [1] .

والإسلام يوصى باحترام العقود ، والتي تسجل فيها الالتزامات وغيرها قال- ﷺ - "المسلمون عند شروطهم " [2].

ومما لا ريب فيه أن الثقة في ميدان التجارة وجميع المعاملات الاقتصادية أساسها الوفاء بالعهد ، بيد أنه من الواجب أن تكون الشروط متفقة مع الشريعة الإسلامية وإلا جاءت مخالفة للشريعة الإسلامية ، فلا يجب على المسلم أن يلتزم بها .

وقد منح الإسلام عقد الزواج مزيداً من الرعاية فقال رسول الله – ﷺ –:- " أن أحق ما وفيتم به من الشروط ما استحللتم به الفروج " .

ومن ثم فليس يجوز لرجل دخل بامرأة أن يغتال درهماً من حقها ، وفى الحديث "أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر ، أوكثر ليس في نفسه أن يؤدى إليها حقها ، خدعها ، فمات ولم يؤد إليها حقها لقي الله يوم القيامة وهو زان وأيما رجل استدان دينا

1- رواه البخاري .
2- رواه البخاري .

لا يريد أن يؤدى إلى صاحبه حقه ، خدعه حتى اخذ ماله فمات ولم يؤدى إليه دَيِّنَهُ ، لقي الله وهو سارق "[(١)].

وقد تتابعت آيات القرآن الكريم تحض على الوفاء ، وتنهى عن الغدر والخيانة ، فقال تعالى:- ﴿... وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الأسراء:٣٤]. وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾[سورة النحل:٩١:٩٢]وقد بين الله- سبحانه -أن الخيانة والغدر ينزعان الثقة ، ويثيران الفوضى في المجتمع المسلم ، ويمزق ما بين المسلمين من وشائج وأمشاج.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [سورة النحل:٩٢].

فقد يحل الرجل عقداً أبرمه لِيّحْظَ بربح أوفر، وقد تتعاقد الأمة مع أمة أخرى ، أو دولة مع دولة اخرى ، اوامارة مع إمارة أخرى لمصلحة انفع لديها بيد أن الدين يكره ان تداس الفضائل فى سوق المنفعة العاجلة ، كما يكره الاسلام أن تنطوى النفوس على النيات المغشوشة ، ويوجب الشرف على الفرد والجماعة حتى تُصان العقود على الفقر والغنى ، والنصر والهزيمة ، يقول الله سبحانه : ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [سورة النحل:٩٤:٩٥].

والوفاء بالحق والعهد واجب على المسلم والكافر، حيث ان الفضيلة لا تتجزأ ، فليس من الإسلام ، أو الوفاء بالعهد أن يكون المرء كريماً مع قوم خبيساً ونذلاً مع آخرين حيث المدار على الوفاء بالعهد ، فما دام العهد موافقا للشريعة الاسلامية لا يصح نقضه ، ولا خيانته ، بل يجب الوفاء به ، وفى الوفاء به مرضاة لله ورسوله سواءً أكان مع مسلم أو كافر، وقد قال رسول الله- ﷺ- في " حلف الفضول " وهوحلف تم فى الجاهلية ، لودعيت به فى الاسلام لاجبت .

وعن عمرو بن الحمق- رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : "أيما رجل آمن رجل على دمه ، ثم قتله فأنا من القاتل برئ ، وان كان المقتول كافراً " [(٢)].

1- رواه الطبراني .
2- رواه ابن ماجه .

هذا البيان الحاسم ، والتبيان الصارم ، والتوجيه الراشد يميط اللّثام عن روح الإسلام فى معاملة الذين لم يعتنقوه ، فبينما ترى اليهود ينكرون على غيرهم حق الوفاء ، ويبخلون عليهم بنبل المعاملة ، ويحسبون أنهم وحدهم " أبناء الله وأحباؤه " وأن الله جعل رحمته ، وأمانه لشعب اسرائيل فحسب ترى الاسلام يدفع بحمية بالغة عمن منحهم ذمته ، وأدخلهم فى عقده ، ويتحدث عن الكافرين الى المسلمين حديثاً له مغزاه ،وهدفه ومرماه ، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة المائدة:٢].

فانظر كيف كان تصوير الآيه الكريمة لنظر الكفار ، وتماشت مع مزاعمهم وهم وثنيون فعدتهم طلاب فضل من الله ورضوان وطلبت من المسلمين مهما بلغت قوتهم أن يتعاونوا على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان . ومن الشئون والتعاليم التى اهتم بها الإسلام ، ونوه بقيمة الوفاء فيها " الديون " فإن سداد الديون من الحقوق المؤكدة لدى الله . سبحانه . كما نهى عن المطل ، وتأخير السداد وكان أول ما شرعه الاسلام حرمة الاستدانة إلاَّ لحاجة قاهرة ، فمن الحرام أن يقترض المرء فى أمور يمكن الاستغناء عنها ، بل عُدّْ ذلك من الآثام التى يلحقها القصاص .

عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله- ﷺ - " إن الدين يقضى من صاحبه يوم القيامة اذا مات ، إلاَّ من يدين في ثلاث خلال: الرجل تضعف قوته في سبيل الله فيستدين يتقوى به لعدوا الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم لا يجد ما يكفنه ويواريه الا بدين ، ورجل خاف على نفسه العزوبة فينكح حسبه على دينه " (١) .

وفي رواية أخرى ان رسول الله- ﷺ - قال : " يدعو الله بصاحب الدْينَّ يوم القيامة ، حتى يوقف بين يديه ، فيقال : يابن آدم فيم أخذت هذا الدين ؟ وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول : يارب انك تعلم انى أخذته فلم آكل ، ولم أ شرب ، ولم البس ولم أضُيع ، ولكن أتى عَلَىَّ اما حرق ، وإما سرق ، وإما ضيعة . فيقول الله : صدق عبدى انا احق من قضى عنك . فيدعوالله بشئ فيضعه فى كفة ميزانه فيرجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل رحمته " (٢) .

---

1 - رواه ابن ماجة .
2 - رواه أحمد وضيعة .

ويتضح لنا من هذا الحديث ان الله -عز وجل- يعذر من يضطر إلى الدين لازمة شديدة ، والذى يعجز عن القضاء لمصائب جائحة ، أما الذى يقترض دون اضطرار كما أومأنا الى ذلك آنفا ، أوجائحة ومصيبة شديدة تلم به فهوسارق جرئ .

ويقول رسول الله -ﷺ-:" من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله " [١].

والإسلام بهذه التعاليم يريد أن يوفر للديون الضمانات اللازمة حتى لا يتلاعب الناس أو يستغلوا أموال غيرهم .

وليتأكد المسلم من أن الوفاء بالديون أمر لا ريب فيه ، وان أداء الحقوق لأصحابها وسداد الدين أمر لا مفر منه فهومن الأمور المقررة في الإسلام ، وهذا عين الحق والعدل ، والسلوك الحضارى الذى يدل على رقى الأمة وتحضرها وتمدنها وتمسكها باخلاق القرآن الكريم .

يقول شوقى:

إنما الأمم الاخلاق ما بقيت ... فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وعن أبى قتادة -رضي الله عنه - قال رجل : يا رسول الله ، أرايت ان قتلت في سبيل الله أتُكَفِر عنى خطاياى؟قال رسول الله -ﷺ-: نعم ، إن قُتِلتّ وانت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر ثم قال : كيف قلت ؟فأعاد . قال : نعم إلاّ الدين ، فان جبريل أخبرنى بذلك "[٢] .

وفي رواية أخرى : " يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين " [٣] .

وعن أبى الدرداء - رضي الله عنه -" إنه كان يقف حين ينتهى الى الدرب فى ممر الناس الى الجهاد ، فينادى نداءً يسمع الناس : يأأيها الناس من كان عليه دين بظنى انه أُصيب فى وجهه هذا لم يدع له وفاء فليرجع ولا يتبعنى ، فإنه لا يعود كفافاً " هذا ولقد استهان المسلمون بالقروض ، والديون ، فاقترضوها لارضاء غرائزهم ، وتحقيق مطامعهم ، والجرى وراء شهواتهم وملذاتهم وغواياتهم ، واقترضوا الأموال الطائلة من اليهود والنصارى بالربا الذى أحله بعض العلماء ناسين الوقوف بين يدى الله – سبحانه- فارضوا الحكام بسخط الله ، وكان واجباً أن يرضوا ربهم بسخط حاكمهم ، وهومحرم تحريماً بائنا ،

---

1 - رواه البخارى .
2 - رواه مسلم .
3 - رواه مسلم .

وجازما قاطعا ، فماذا يقول هؤلاء العلماء الذين حللوا الربا ، وارخوا العنان للناس فى أكله ، وألقوا الحبل على الغارب ناسين أومتناسين لقاء الله -عزوجل- ماذا يقولون لله حين يلقونه وهم وقوف في عرصات القيامة ، والحكم هوالله ، والخصم لهم رسول الله .

يا من تمتع بالدنيا وزينتها ولا تنام عن اللَّذات عيناه
أفنيت عمرك فيما ليس تدركه تقول لله ماذا حين تلقاه

وكان من آثار الاقتراض من اليهود والنصارى بالربا المحرم أن هزموا ونكبوا نكبات جائحة فى ديارهم وأموالهم ، وهزموا هزائم منكرة فى جميع الميادين السياسية ، والاقتصادية ، وغيرها وما ذلك إلاَّ لأنهم تواكلوا ، واستندوا الى عدوهم ، وعدو دينهم الذى يريد أن يستاصل شاقتهم ، ويقضى على خضرائهم ، ولولا سياط القانون لضاعت حقوق الناس .

أن الله – عزوجل – يحب الأوفياء من عباده ، وما أهلك القرى الظالمة إلاَّ بعد أن قيل في أهلها ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [سورة الأعراف :١٠٢] .

ذنيكم الإسلام بتعاليمه الراقية ، وأخلاقه العظيمة ، التى تحفظ حقوق الناس مسلمين وغير مسلمين ، وهذه هى الأخلاق فى القرآن الكريم . (١)

1 - تفسير ابن كثير الدمشقى ج٢ ص ٢، ٣ وما بعدهما ،
- فى ظلال القرآن الامام الشهيد سيد قطب ج١ ص ٣١٦ .
- تفسير الطبرى .
- تفسير القرطبى .
- روح المعانى .
- تفسير المراغى .
- التفسير الكبير ـ مفاتيح الغيب .
- تفسير النسفى .
- الكشاف للزمخشرى .
- لطائف الاشارات للامام القشيرى .
- خلق المسلم للمغفور له ـ باذن الله تعالى ـ الشيخ محمد الغزالى ص٤٩ وما بعدها بتصرف.
- صحيح مسلم .
- صحيح البخارى .
- سند ابن ماجة .

" الأمانة "

ومن الأخلاق التى وجهنا إليها القرآن الكريم ، وأرشدنا الى اتباعها كى نسود ونقود ، وذلك بفضل التوجيهات الربانية التى اودعها الله ـ سبحانه وتعالى ـ كتابه الكريم. أجل انه تنزيل من حكيم حميد ، فيقول الله- عز وجل- مبينا الأخلاق الكريمة ، والفضائل الحميدة ، والسجايا الحسنة ، والسلوك الراقى المتمدن والذى يساير كل عصر من العصور ، ويرسم للمسلم منهجا مستقيما يحتذيه فى حياته ، هذا الخلق هوالذى ارشدنا إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة القصص:٢٢:٢٨].

ولقد وقع خلاف بين العلماء فى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ...﴾ [سورة القصص:٢٢] فقال بعضهم : انه خرج ما قصد مدين ولكنه سلم نفسه لله تعالى ، وأخذ يمشى من غير معرفة ، فأوصله الله تعالى الى مدين . وهذا قول " ابن عباس " -رضي الله عنهما ..

وقال آخرون : لما خرج قصد مدين لأنه وقع فى نفسه ان بينه وبينهم قرابة لأنهم من ولد مدين ابن ابراهيم- عليه السلام ، وهوكان من بنى اسرائيل لكن لم يكن له علم بالطريق ، بل اعتمد على فضل الله تعالى .

ومنهم من قال : ان جبريل ـ عليه السلام ـ جاءه وعلمه الطريق ، وقيل جاءه ملك على فرس فسجد له موسى من الفرح ، فقال له الملك : لا تفعل واتبعنى ، فاتبعه نحو مدين. واحتج القائل بأن موسى -عليه السلام -خرج وهو ما يقصد مدين ان الله تعالى قال ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ...﴾ ولوكان قاصداً مدين لقال :(ولما توجه الى مدين) لكنه قال : ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ...﴾ وقوله: ﴿...عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [سورة القصص:٢٢]

فهذا كلام شاك لا عالم . والأقرب أن يقال أنه قصد الذهاب الى مدين وما كان عالما بالطريق ثم انه كان يسأل الناس عن كيفية الطريق لأنه يبعد من موسى - عليه السلام - في عقله وذكائه أن لا يسأل .

وخرج من مصر بغير زاد ، ولا ظهر ، يعنى ولا راحلة يركبها لتعينه على وعناء السفر، ومشقة الطريق .

أما قوله ﴿ ... عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾ فهو نظير قول جده ابراهيم - عليه السلام- ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾ [سورة الصافات:٩٩] .

ويقول الإمام النسفى- رحمه الله تعالى- والتقدير : إنى ذاهب الى مكان فيه طاعة ربى .

والمعنى ولما وصل سيدنا موسى الى مدين وهى قرية " شعيب " . عليه السلام .

وجد على البئر الذى يسقى منه الرعاه جمعاً غفيراً يريدون سقى إبلهم وغنمهم ، ومواشيهم ، ووجد من غير الجماعة الرعاة ، امرأتين تمنعان غنمهما عن الماء ، فقال لهما سيدنا موسى- عليه السلام- : ما شأنكما تمنعان الغنم عن ورود الماء ؟ ولما لا تسقيان مع السقاه ؟ قالتا من عادتنا التأنى ، والتصبر حتى ينصرف الرعاة مع أغنامهم عن الماء ، ولا طاقة لنا على مزاحمة الأقوياء ، ولا نريد مخالطة الرجال ، وأبونا رجل بلغ من الكبر عتيا لا يستطيع لضعفه ان يباشر سقاية الغنم ، ولذلك اضطررنا إلى أن نسقى بأنفسنا .

ويقول " أبوحيان " وفى هذا القول اعتذار سيدنا موسى - عليه السلام .

عن مباشرتهما السقى بأنفسهما وتبينة على أن أباهما لا يقدر على السقى لشيخوخته وكبره ، وأيضا فيه استعطاف لسيدنا موسى- عليه السلام- فى إعانتهما فسقى لهما غنمهما رحمةً بهما ، ثم تنحى جانباً فجلس تحت ظل شجرة فقال : يارب إنى محتاج إلى فضلك وإحسانك ، والى الطعام الذى أسُدُ به جوعى طلب من الله ما يأكله ، وكان قد اشتد عليه الجوع ، يقول " الضحاك " مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاماً إلاَّ بقل الأرض .

ويقول " ابن عباس "- رضي الله عنهما - سار موسى من مصر الى مدين ليس له طعام إلاَّ البقل ، وورق الشجر ، وكان حافياً فما وصل الى مدين حتى سقطت نعل قدميه ، وجلس فى الظل وهو صفوة الله من خلقه ، وان بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وان خضرة البقل لترى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج الى شق تمرة ، ثم يعد هنيهة .

والكلام فيه ايجاز غير مُخِل بالمعنى ، ولا غرور فالقرآن الكريم قمة الإعجاز البلاغى واللغوى ، وهذا الايجاز هوانهما ذهبتا سريعتين ، وكان من عادتهما الابطاء فحدثتا بما كان من امر الرجل ، وهوسيدنا موسى- عليه السلام - فأمر إحداهما أن تدعوه له فجاءته تمشى مشية الحرائر بحياء وخجل قد سترت وجهها بثوبها ، قال " عمر " -رضي اللّٰه عنه- " لم تكن بسلفع من النساء ، خراجة ولاجة والسلفع هى المرأة الجريئة السليطة الجسور ، فقالت له : إن أبى يطلبك ليجزيك خيراً عن أجر السقايا لغنمنا - يقول " ابن كثير " وهذا تادب فى العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة ، ويقول اهل العلم : وهوما نراه ونميل إليه أنه قال سبحانه " عَلَى اسْتِحْيَاء " ليكون الحياء في القول والفعل ، حياء فى القول فلا تخنث ولا تكسر ، ولا ميوعة فى الكلام ، وحياءً فى الفعل حتى لا يطمع الذى فى قلبه مرض، ولا يمكن لسيدنا موسى- عليه السلام - أن تتسرب الى قلبه ريبة ، بيد أن التوجيه عام الى جميع المسلمين كى يتخذوا من هذا الموقف عبرةً وعظةً وقدوةً، خاصةً شبابنا في هذا العصر الذى يوج بالتيارات ، والفتن ، الواردة التى تستهدف اسلامنا ، وتلك الرياح الهوجاء والأعاصير والسهام الجارزة ، والرماح الطاعنة ، والتى تسدد حيال صدور المسلمين تريد الكيد للاسلام ، والنيل من سيدنا محمد- ﷺ - خاصة الرياح التى تهب بالسم من اليهودية الماكرة ، والنصرانية الحاقدة .

فلما جاءه موسى -عليه السلام - وقص عليه ما كان من أمره والسبب في هربه من مصر الى مدين قال له سيدنا شعيب - عليه السلام - لا تخف فأنت في بلد آمن لا سلطان لفرعون عليك ، وقد نجاك اللّٰه من كيد الكائدين ، وسفاهة المجرمين ، وحقد الحاقدين ، ومكر الماكرين.

﴿... وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الأنفال:٣٠]

فالمكر في جانب البشر معناه الخبث واللؤم ، والمكر في جانب اللّٰه - عز وجل- معناه التدبير ، فقالت إحدى بنات سيدنا شعيب : يا أبتى استاجره لرعى اغنامنا وسقايتها ، فإن أفضل من تستاجره لهذا العمل ، والقيام به خير قيام من كان قويا امينا مثل هذا الشاب .

يقول " أبي حيان " وقولها كلام حكيم جامع لأنه اذا اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمر من الأمور فقد تم المقصود ، وروى أن شعيباً ـ عليه السلام ـ قال لابنته : وما أعلمك بقوته وأمانته ؟ فقالت : انه رفع الصخرة التى لا يطيق حملها إلاَّ عشرة رجال ، هذا فى القوة ، أما فى الأمانة فقالت بنت سيدنا شعيب- عليه السلام - انى لما جئت

معه تقدمت أمامه فقال لى : " كونى من ورائى ودلينى على الطريق ، ولما أتيته خفض بصره فلم ينظر إلَيَّ ، فرغب شعيب فى مصاهرته ، وتزويجه بإحدى بناته فزوجه إياها وهى " صافوراء " ولذلك عرض عليه الزواج فقال له :إنى أريد أن أزوجك إحدى بناتى هاتين الصغرى أو الكبرى بشرط أن تكون أجيراً لى ثمانى سنين ترعى فيها غنمى فإن اتممتها عشر سنين فذلك تفضل منك وليس بواجب عليك ، وما أريد أن أوقعك في المشقة باشتراط العشر ، فقال له سيدنا موسى – عليه السلام– رداً على كلام سيدنا شعيب – عليه السلام ـ ستجدنى إن شاء الله حسن المعاملة ، لَيّن الجانب ، وفيا بالعهد ، يقول الإمام القرطبى ـ رحمه الله تعالى ـ " فى الآيه عرض الولى ابنته على الرجل ، وهذه سنة قائمة ، حيث ان سيدنا شعيب عرض ابنته على سيدنا موسى ، وعرض عمر– رضي الله عنه – ابنته "حفصة " على أبى بكر وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ

وعرضت الموهوبة نفسها على النبى– ﷺ – فمن الحسن عرض الرجل وليته على الرجل الصالح ، وذلك اقتداءً بالسلف الصالح ، فقال موسى ـ عليه السلام ـ لسيدنا شعيب إنما قلته أوعاهدتني عليه قائم بيننا جميعا لا نخرج عنه ، وأى المدتين الثماني أو العشر أديتها لك فلا إثم ولا حرج على ، والله شاهد على ما تعاهدنا ، وتواثقنا عليه ، فلما أتم موسى المدة التي اتفقا عليها يقول " ابن عباس " – رضي الله عنهما– قضى أتم الأجلين وأكملهما ، وأوفاهما وهوعشر سنين.

ومشى بزوجته مسافراً بها إلى مصر وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو؟

قيل انه " شعيب " النبي– عليه السلام– الذي أرسل إلى أهل مدين وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء، وقد قاله الحسن البصري، وغير واحد، وقيل أن شعيباً–عليه السلام – هو الذي قص موسى عليه القصص ، وقيل بل كان ابن أخى شعيب ، وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب وقال آخرون كان شعيب قبل زمان موسى– عليه السلام– بمدة طويلة ، لأنه قال لقومه " وما قوم لوط منكم ببعيد " ، وقد كان هلال قوم لوط في زمن " الخليل " – عليه السلام– بنص القرآن وكان بين الخليل وموسى– عليهما السلام – مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة والموجود في كتب بني إسرائيل إن هذا الرجل اسمه " بيرون " ويقول الإمام الشهيد"سيد قطب "ما نصه في هامش صفحة ٢٦٨٧ المجلد الخامس (سبق أن قلت مرة في الظلال أن هذا الرجل هوشعيب أوقلت مرة انه قد يكون النبي شعيبا أولا يكون ..... وأنا الآن أميل إلى ترجيح انه ليس هو وإنما هوشيخ آخر من مدين) والذي يحمل على هذا

الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير، وشعيب شهد مهلك قومه المكذبين له ولم يبق معه إلاّ المؤمنين به .

فلوكان هوشعيب النبي- عليه السلام- بين بقية قومه المؤمنين ، ما سقوا قبل بنتي نبيهم الشيخ الكبير فليس هذا سلوك قوم مؤمنين ، ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول ميل، يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شئ من تعاليمه لموسى جهرة . ولوكان شعيباً النبي لسمعنا صوت النبوة في شئ من هذا مع موسى وقد عاش معه عشر سنوات .

ويقول صاحب " التفسير الكبير " أن أباهما هو" بيرون " ابن أخى شعيب -عليه السلام - وشعيب مات بعدما عمى . وهذا قول " ابن عباس " - رضي الله عنهما - وقيل ليس في القرآن ما يدل على أن أباهما كان شعيباً ، ويقول الحسن انه رجل مسلم قبل الدين عن شعيب ، والأكثرون على انه شعيب - عليه السلام.

ونحن نرى أن الأمر الذي يهمنا ، ونهدف إليه ونتغياه من هذه القصة هوالعبرة والعظة والدرس المستفاد من هذه الأخلاق التي يسجلها القرآن الكريم في ذلك الحوار الذي دار بين سيدنا موسى - عليه السلام - وبين البنتين أيّاً كان أبوهما حيث أن الأخلاق بأسمى معانيها ، وغاياتها ومقاصدها تجلت في معاملة سيدنا موسى للبنتين ، وأنه سقى لهما ، ولم تحتمل شهامته ، ومروءته ، وخلقه أن يرى بنتين بين الرجال لسقى أغنامهم ، ولا يستطعن ذلك من زحام الرعاة وهذه أخلاق المؤمنين ، ولعل قوة سيدنا موسى النفسية هي التي أوقعت في قلوب الرعاة هيبته حيث أن قوة الإيمان ترهب وترعب ، حيث أن الناس يتأثرون بالقوة الروحية أكثر من غيرها من القوى ، ومنه أيضاً أن " العباس بن عبد المطلب" حيث أقره النبي- ﷺ - أن يرى " أبا سفيان " الجيش الإسلامى وهو متأهب لدخول مكة يوم الفتح .

يقول " أبوسفيان " حين رأى الجيش في استعراض عسكري ، ورأى خاصةً الكتيبة الخضراء والتي كانت مكونة من الأنصار والمهاجرين ، تلك القوات الخاصة التي كان النبي - ﷺ - يقودها بنفسه ، وهم مدججون بالسلاح والدروع لا يبين منهم إلا العيون عندئذ نرى " أبا سفيان " يقول يا عباس لقد أصبح ملك أخيك الغداة عظيما ، فقال له العباس : يا أبا سفيان ليس الملك إنما هي عظمة النبوة .

ولذلك نقول لا حاجة لنا في استعراض آراء المفسرين عن قوة سيدنا موسى مثل رفع الحجر الذي كان يغطى البئر، وكان لا يرفعه إلا عشرون أوأربعون أو أكثر أو أقل. فالبئر لم يكن مغطى، إنما كان الرعاة يسقون فكيف يسقون وهو مغطى ؟

فنحاهم سيدنا موسى وسقى ، كما انه لا حاجة لنا كذلك للروايات التي تثبت أمانة سيدنا موسى مثل قوله للفتاه " إمشي خلفي ودليني على الطريق " خشية أن يراها ، أو أنه قال لها هذا القول بعد أن مشى خلفها ، فرفع الهواء ثوبها عن كعبها ، فهذا كله تكلف لا داعي له ، ولا يجب الالتفات إليه ، كما أنه لا يجب ترديده بل من الواجب الإعراض عنه ، والبحث وراء ما تتغياه القصة من الأخلاق الكريمة ، لأنه دفع لريبة لا وجود لها أصلاً، وسيدنا موسى نظيف الحس ، عفيف النظر ، وهى أيضا كذلك ، ولعل الشيخ استجاب لرغبتها ، ونزل على رأيها لأنه أحس من نفس الفتاه ونفس موسى ثقة متبادلة ، وميلاً فطرياً سليماً يصلح لبناء أسرة مسلمة على أساس من الدين والأخلاق ، فالإسلام يرقب من معتنقه أن يكون ذا ضمير يقظ ، تُصان به حقوق اللّه ، وحقوق الناس، وتحرس به الأعمال من دواعي التفريط والإهمال ، ومن ثم أوجب على المسلم أن يكون أمينا ، والأمانة في الإسلام واسعة الدلالة ، فليست الأمانة في الإسلام محصورة في حفظ الودائع والأمانات ، من أموال وحلى ، ومعاملات ورقية ، أوعقود بيع أورهن أو إيصالات أمانة ، وشيكات ، وغير ذلك من الأمور التي يتعامل بها الناس في حياتهم الدنيوية ، يقول رسول اللّه - ﷺ -: " كلكم راع ومسئول عن رعيته ، فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها ، والخادم في مال سيده راع ومسئول عن رعيته " (١).

يقول " ابن عمر " - رضي اللّه عنهما - وهوراوي الحديث: سمعت هؤلاء من النبي - ﷺ - واحسبه قال " الرجل في مال أبيه راع وهومسئول عن رعيته" .

إن الإسلام يرقب من معتنقه أن يكون ذا ضمير يقظ تصان به الحقوق وتحرس به الأعمال من دواعي الإهمال والضياع ، والتفريق ، ومن ثم أوجب الإسلام على المسلم أن يكون أمينا .

والأمانة في نظم الاسلام واسعة الدلالة تنظم كل شئ في حياة المسلم يقول اللّه – عــز وجــل- : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة القصص:٢٤:٢٥]

1 - رواه البخاري .

والمعنى : فسقى لهما غنمهما ، ثم انصرف إلى ظل شجرة لِيُقَيّـل ويستريح وناجى ربه قائلا : " إنى لمحتاج إلى شئ تنزله إلىَّ من خَزائن جُودِك وكرمك .

روى عن ابن عباس – رضى اللّه عنهما – أنه قال : " لقد قال موسى- عليه السلام- ذلك وهوأكرم خلق اللّه عليه ، ولقد افتقر إلى شق تمرة ولصق بطنه بظهره من شدة الجوع ، فجاءه الفرج بعد الشدة وأجاب اللّه طليبته ، وحقق على الفور رغيبته ، فجاءته إحدى المرأتين تمشى وهى حيية قد سترت وجهها بثوبها قائلةً : " إن أبى يدعوك ليكافئك على ما صنعت من الإحسان ، وأسديت إلينا من المعروف بسقى غنمنا ، قال عمروبن ميمون:" ولم تكن سلفعا من النساء ، يريد لم تكن امرأة جريئة على الرجال خراجه ولاجه ، وقد أسندت الدعوة إلى أبيها وعللتها بالجزاء حتى لا يتوهم من كلامها شئ من الريبة ، كما إن في كلامها دلالة على كمال العقل والحياء ، والعفة كما هو واضح من الآيه الكريمة.

فقد شوهدت مخايل الأمانة على موسى حين سقى لأبنتى الرجل الصالح ورفق بهما واحترم أنوثتهما ، وكان معهما عفيفاً ، شريفاً ، دليل ذلك قوله تعالى :

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [سورة القصص:٢٤]

وقد حدث هذا قيل أن ينبأ موسى ويرسل إلى فرعون - ولا غرو- فَرُسُل اللّه يختارون من أشرف الناس طباعاً ، وأذكاهم معادن ، والنفس التي تظل معتصمة بالفضيلة على شدة الفقر ، ووحشة الغربة ، هي بلا ريب تكون لرجل قوى أمين ، والمحافظة على حقوق اللّه ، وحقوق العباد ، تتطلب خُلقاً لا يتغير باختلاف الأيام بين نعمى وبؤسي ، وذلك جوهر الأمانة .

وطلب موسى من اللّه مطلبه المعروف حيث كان محتاجاً إذ بات ثماني ليال طاوياً ، أو أنى لما أنزلت إلى من خير فقير في الدنيا فيكون شكراً ، ولم يكن سقيه لهما طلباً للأجرة ، وإنما هو طلب للأجر والثواب ، لذلك قال : " انى لما أنزلت من فضلك وغناك فقير إلى أن تغنينى بك عمن سواك .

وروى ان اسم إحداهما " ليا " والأخرى " صفورياء " وقيل : " صافوراء " ابنتا يثرون وهوشعيب -عليه السلام- . فقد كان موسى أميناً وصاحب مروءة حيث لم يعلن نظره بها، ولم يتبعهما بنظرة حارزة ، ولا سهم مريب طاعن ، بل سقى لهما ثم تولى إلى الظل حيث كان يجلس من قبل ، وقد حمد اللّه – عز وجل – أن ساق إليه هذا الرزق الذي وجده فيما أسدى إلى هاتين الفتاتين الضعيفتين من عون وإحسان ، وانه لفقير إلى مثل هذه الأعمال الطيبة ليكفر بها ما كان فيه من قتل المصري .

وهناك أمور جزئية لم يذكرها القرآن وذلك لدلالة الحال عليها ، فجاءته إحداهما تمشي في خِفْة وحياء شأن المرأة الحصان ، العفيفة ، وَحَسَبها أنها ربيبة بيت النبوة ، فلقد تجسد الحياء حتى كان بساطاً ممدوداً على طريقها إلى موسى إنها لا تمشي على الأرض ولكنها تمشي على حياء ، تتعثر فيه قدماها ، وتقصر به خطاها ، ويضطرب له كيانها ، وذهبت إليه لأن أباها شيخ كبير ، ولوكان في وسعه أن يذهب إلى موسى ما بعث بابنته اليه ، وهو الغريب الذي لا مأوى له في البلد ، وليس المراد بالأجر هنا هوالأجر المادي ، إنما هوجزاء الإحسان بالإحسان ، ولقاء المعروف بالمعروف ، وهنا تظهر الأنثى التي تطلب الرجل الذي تطمع فى أن يكون رجلها الذي تحلم به ، وتنتظر الأيام تجئ به ليطرق بابها .

﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [سورة القصص:٢٦]

والمعنى : امسك به عندنا ولا تدعه يفلت من يديك وذلك بأن تصله بك يعمل ، فهوخير من يعمل لك ، حيث عجزت عن العمل .

﴿ ... إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة القصص:٢٦]

هكذا تكشف لأبيها عن معدن الرجل الذي يستأجره وأنه في الرجال من يتزين بأجمل صفتين وهما : القوة والأمانة ، فقد رأت قوته فيما كان منه من السقي لهما ، كما رأت أمانته في غض بصره عنها ، وقد جاءت وحدها تدعوه إلى أبيها ويستجيب شعيب – عليه السلام – لهذا الطلب في غير تردد ، ويستشعر بمشاعر الأب ما في نفس ابنته نحو هذا الغريب ، وهكذا يجئ شعيب إلى موسى صريحاً واضحاً ، كما يجئ إلى ابنته أبا حانيا ، عاطفا ، لا يرى حرجا في أن يتخير لابنته الرجل الذي تتمناه زوجا لها ، ويردها حياءها عن أن تعرض نفسها عليه ، وما كان أبرع شعيباً وأحكمه وأعدله ، فيما بينه وبين موسى من جهة ، ثم فيما بينه وبين ابنته من جهة أخرى ، ولم يفرض على موسى واحدة بعينها فمن حق موسى أن يختار من يشاء منهما ، فلقد رآهما من قبل كما رآهما في بيت أبيهما ، وليس من الحكمة ولا من المصلحة ان تفرض عليه واحدة بعينها ، حتى ولو كان لموسى رغبة فيها ، وكان لها رغبةً فيه ، فالفرض يصادر رأى موسى ويهدم إرادته ، فإذا لم يختر موسى شريكة حياته وهو سيعيش في بيت شعيب كان في ذلك تنغيص له واضطراب لحياته الزوجية ، هكذا الإنسان ، وهكذا تكون الحياة ، وأن شعيب لم يؤثر إحداهما على الأخرى حتى لا تكون في نفس الأخرى أسى ومرارة ، تجلى ذلك في قوله : ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ ... ﴾ [سورة القصص:٢٧]

ولقد كان قول بنت شعيب قولاً حكيماً جامعاً ، لأنه اجتمعت فيه الكفاية والأمانة في القائم بأمر من الأمور وإذا حدث ذلك فقد تم المقصود .

ويمضى القرآن الكريم في الحث على التحلي بالأخلاق الفاضلة ومنها الأمانة والتي نحن بصدد تناولها من خلال الآيات القرآنية الكريمة فيقول الله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [سورة الأحزاب:٧٢] .

فعن ابن عباس -رضى الله عنهما - قال : يعنى بالأمانة الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم - عليه السلام- فلم يطقها فقال لآدم : " انى قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يارب وما فيها ؟ قال : ان أحسنت جزيت ، وان أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها فذلك قوله تعالى : ﴿...وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [سورة الأحزاب:٧٢]

وعن ابن عباس- رضى الله عنهما - أيضا : الأمانة هي الفرائض عرضها الله على السماوات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم ، وإن ضيعوها عذبهم ، فكرهوا ذلك وأشفقوا على من غير معصية ولكن تعظيما لدين الله ألاَّ يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، وهو قوله تعالى : ﴿...وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

وقيل أنها عرضت على ادم فقال : خذها بما فيها فان أطعت غفرت لك وان عصيت عذبتك ، قال : قبلت ، فما كان إلاَّ مقدار ما بين العصر إلى الليل دون ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة .

ويقول الحسن البصري - رحمه الله - وآخرون - : " إن الأمانة هي الفرائض ، وقال آخرون : هي الطاعة ، وقال قتادة : الأمانة هي الدين ، والفرائض والحدود ، وقال بعضهم : هي الغسل من الجنابة ، وقيل : إن الأمانة ثلاثة : الصلاة ، والصوم والاغتسال من الجنابة ، وكل هذه الأقوال متفقة في مضمونها ، وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهى إن قام بها أثيب ، وإن تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله ، وظلمه ، إلاَّ من وفقه الله ، والله المعين على ذلك .

وعن الحسن البصرى - أيضا - قال : " عرض الله الأمانة على السبع الطباق الطرائق التي زينت بالنجوم ، وحملة العرش العظيم ، فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت: وما فيها ؟ قال: قيل لها : ان أحسنت جزيت ، وان أسأت عوقبت ، قالت : لا ، ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد التي شدت بالأوتاد وزللت بالمهاد ، فقيل لها : هل

تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ فقيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسات عوقبت ، قالت : لا ، ثم عرضها على الجبال الصم الشوامخ ، والصعاب الصلاب ، قال : قيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسات عوقبت ، قالت : لا .

ويقول مقاتل بن حيان : إن الله تعالى حين خلق خلقه جمع بين الإنس والجن ، والسماوات والأرض والجبال فبدأ بالسماوات فعرض عليهم الأمانة وهى الطاعة فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة ولكن على الفضل والكرامة والثواب في الجنة ؟

فقلن يا رب إنّا لا نستطيع هذا الأمر ، وليس بنا قوة ولكنا لك مطيعين ثم عرض الأمانة على الأرضين ، فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة وتقبلنها منى ، وأعطيكن الفضل والكرامة في الدنيا ؟ فقلن : لا صبر لنا على هذا يارب ، ولا نطيق ، ولكنا لك سامعين مطيعين ، لا نعصيك في شئ أمرتنا به ، ثم قرب " آدم " فقال له : أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها ؟ فقال عند ذلك آدم : ما لى عندك ؟ .

قال : يا آدم إن أحسنت ، وأطعت ، ورعيت الأمانة فلك عندي الكرامة والفضل وحسن الثواب في الجنة ، وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها ، وأسات فأنى معذبك ، ومعاقبك ، وأُنزلك النار ،

قال : رضيت يارب وأتحملها ، فقال الله – عز وجل – عند ذلك : قد حملتكها ، فذلك قوله تعالى : ﴿...وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ...﴾. ويقول الله تعالى في شان الأمانة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾[سورة المعارج:٣٢].

والمعنى : أى يؤدون الأمانات ، ويحفظون العهود ، فإذا ائتمنوا لم يخونوا وإذا عاهدوا لم يغدروا .

ومن معانى الأمانة وضع كل شئ في المكان الجدير به ، واللائق له فلا يسند منصب الا لصاحبه الحقيق به ، الا ترى إلى يوسف الصديق ؟

انه لم يرشح نفسه لإدارة شئون المال بنبوته ، وتقواه فحسب ، بل بحفظه وعمله، قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة يوسف:٥٥] .

وان سيدنا أبا ذر الغفاري– رضي الله عنه– لما طلب الولاية لم يَره النبي– ﷺ –أمينا بها ، ولا جلدا لها ، فلذلك حذره منها حيث " قال أباذر– رضى الله عنه– : يا رسول الله الا تستعملني ؟ أى : اجعلني في منصب من المناصب المهمة ، فقال له

النبي - صلى الله عليه وسلم -: يا أبا ذر إنك ضعيف ، إنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلاَّ من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها " (١) .

فالأمانة تقتضى أن نولى الأعمال والمناصب أصحاب الكفاءات ، دونما تعصب لقرابة ،أو خضوع لرشوة ، أو هوى شخصي ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "من استعمل رجل على عصابة وفيهم من هوارضي لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين " (٢) .

والأمة التي لا أمانة فيها هي الأُمة التي تُعبَــثُ فيها الشفاعات بالمصالح المقررة ، وتطيش بأقدار الرجال الاكفاء لتهملهم ، وتقدم من دونهم ، وهذا مظهر من مظاهر الفساد الخطير. جاء رجل يسال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متى تقوم الساعة ؟

فقال له : " إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، فقال : وكيف إضاعتها ؟ فقال : إذا وَسَدَ الأمر لغير أهله فانتظر الساعة " (٣) .

فليست أعظم خيانة ، ولا أكبر جرماً ، ولا أسوأ عاقبةً ، من رجل تولى أمور الناس فنام عنها حتى أضاعها .

ومن معانى الأمانة ان تنظر إلى حواسك التي أنعم الله بها عليك ، وإلى المواهب التي خصك بها فتدرك أنها ودائع الله الغالية عندك فمن الواجب عليك ان تسخرها في طاعة الله ، يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الأنفال:٢٧:٢٨] .

ومن معانى الأمانة ان تحافظ على حقوق المجالس التي تشارك فيها فلا ترخى للسانك العنان فتسرد أخبارها ، وتنشر أسرارها ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " المجلس بالأمانة إلاَّ ثلاثة مجالس : مجلس سفك دم ، أو فرج حرام أو اقتطاع مال بغير حق " (٤) .

والودائع التي تدفع إلينا لنحفظها صينا ثم نردها إلى أصحابها حين يطلبونها منّـاَ من الأمانات التي نسال عنها أمام الله يوم القيامة ، وقد استخلف النبي - صلى الله عليه وسلم - عند هجرته من مكة إلى المدينة ابن عمه على بن أبى طالب – رضى الله عنه – ليرد للمشركين الودائع التي كانت محفوظة عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين ترك وطنه فاراً بعقيدته .

قال ميمون بن مهران : " ثلاثة يؤدين إلى البر: الأمانة ، والعهد ، وصلة الرحم ".

1- رواه مسلم .
2- رواه الحاكم .
3- رواه البخاري .
4- رواه أبوداود .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [سورة النساء:٥٨] .

والأمانة التي تدعوإلى رعاية الحقوق ، وتعصم عن الدنايا ، لا تكون بهذه المثابة إلاّ إذا استقرت في وجدان المرء ، وكانت راسخةً في أعماقه ، وهيمنت على الداني والقاصي في مشاعره ، وذلك معنى حديث خذيعة بن اليمان -رضى الله عنه- عن رسول الله- ﷺ - "إن الأمانة نزلت في جزر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة " [1] .

فإذا مات الضمير انتزعت الأمانة ، فما يعنى عند المرء ترديده لآيات القرآن الكريم، ولا حفظه للحديث ، ولا دراسته للسنة ، فهيهات أن تستقر الأمانة في قلوب تنكر الحق .

إن الأمانة من الفضائل الضخمة لا يستطيع حملها الرجال المهازيل وقد بين الله سبحانه أنها تثقل كاهل الوجود ، فلا ينبغي للإنسان أن يستهين بها أويفرط في حقها .

فالأمانة في الإسلام هي الفريضة التي يتواصى المسلمون برعايتها ويستعينون بالله على حفظها حتى انه يقول عند السفر أوغيره لأخيه المسافر: استودع الله دينك وأمانتك، وخواتيم عملك. [2]

وعن أنس قال: ما خطبنا رسول الله- ﷺ - إلاّ قال " لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد عنده " [3] .

1- تفسير البحر المحيط جـ٧ ، ص ١١٤ .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٣ ، ص ٣٨٢ ، جـ ٢ ، ص ٥٢٢ وما بعدها .
- التفسير القرآني للقرآن ، تفسير الكريم الخطيب جـ ٥ ، ص ٣٣٤ وما بعدها .
- تفسير القرطبي جـ ١٣ ، ص ٢٢٦ ، وما بعدها وأيضا ص ٢٥٣ وما بعدها .
- الفتوحات الالهيه للجمل جـ٣ ، ص ٢٢ وما بعدها .
- تفسير المراغى جـ ٧ ، ص ٥ ، وما بعدها ، جـ ١ ، ص ٧٢ .
- تفسير أبى السعود جـ ٤ ، ص ٢٢١ .
- صفوة التفاسير جـ ٣ ، ص ٤٤٦ .
- رواه مسلم ،
- تفسير أبوالسعود جـ ٤ ، ص ٢٢١ .
- التسهيل في علوم التنزيل جـ٣ ، ص ١٤٥ .
- زاد المسير جـ ٦ ، ص ٤٢٨ .

2 - رواه الترمذى .
3 - رواه أحمد.

ويقول النبي- صلى الله عليه وسلم - " اللَّهم انى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة " [1] .

وكان رسول الله- صلى الله عليه وسلم - في حياته الأولى قبل البعثة يلقب بين قومه بالأمين .

وكذلك شوهدت مخايل الأمانة على سيدنا موسى حين سقى لابنتا الرجل الصالح ورفقه بهما ، واحترام أنوثتهما ، وكان معهما عفيفاً ، شريفاً ، ومع ذلك لم يكن موسى نبياً في ذلك الوقت ، بل كان شاباً في فترة المراهقة المبكرة بلغة العصر الحديث ، وفى هذا قدوة لشبابنا المسلم حتى لا يقول محتجاً انه نبي ومعصوم ، فلم يكن موسى نبياً وقتئذ ، بل كان شابا جلداً قويا ، فقد حدث هذا قبل أن ينبأ ، ويرسل إلى فرعون ، ولا غرور فان رسل الله- صلوات الله وسلامه عليهم - يختارون من اشرف الناس طباعا ، وأذكاهم معادن ، واصفاهم سريرةً ولذلك كانت الأمانة في الإسلام ، والاحتفاظ بحقوق الله ، والمحافظة على حقوق العباد يتطلب خلقاً لا يتغير بتغير الأيام بين النعماء والبأساء ، وذلك هوجوهر الأمانة ، ومن الأمانة أيضا وضع كل شئ في موضعه حسب الكفاءة والإمكانات العلمية .

فعن أبى ذر. رضي الله عنه. قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟

قال فضرب بيده على منكبي ، ثم قال : يا أبا ذر انك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلاَّ من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها . [2]

وانظر إلى سيدنا يوسف .عليه السلام .انه لم يرشح نفسه لإدارة الشئون المالية بنبوته وتقواه فحسب بل بحفظه وعمله أيضا.

﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥ ﴾ [سورة يوسف :٥٥] .

وأباذر- رضي الله عنه- لما طلب الولاية لم ير الرسول- صلى الله عليه وسلم - جلداً لها ، وأميناً بها، وجديراً بتوليها لذلك حذره منها ولم يوله حفاظاً عليه ، خشية أن يلحق من ورائها ما يضر بدينه .

هكذا الأمانة ، ومحافظة النبي - صلى الله عليه وسلم - على أصحابه ، ومن الأمانة أن نصطفى الكفاءات لتولى المناصب وإدارة الأعمال ، قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم - " من استعمل رجل على وصاية وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنون "[3] .

1- رواه .
2- رواه مسلم.
3- رواه الحاكم .

فانظر إلى هذا العصر الأنكد الذي تولى فيه أمورنا شرارنا ، خاصةً فيما نسميه الدولة " دولة المؤسسات " واختيار أعضاء المحليات ، ومجلس الشعب ومجلس الشورى ، إنهم أناس لا يتصفون بالأمانة ، ولا يتحلون بالأخلاق الفاضلة إلاَّ من عصم الله وهم قلةً قليلة تكاد تُعَدُّ على أصابع اليد الواحدة .

والأمة التي لا أمانة فيها هي الأمة التي تعبث فيها الشفاعات بالمصالح وتطيش بأقدار الرجال الأكفاء لتهملهم ، وتقدم من دونهم ، وقد استشرى هذا الفساد حتى خلت الساحة من الأكِفْاَءِ ، وغصت بالأكِفاء . جاء رجل يسأل رسول الله - ﷺ - " متى تقوم الساعة ؟فقال له : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، فقال وكيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة " [(١)] .

وقال رسول الله - ﷺ - " إذا جمع الله بين الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء يعرف به فيقال هذه غدرة فلان " [(٢)] .

وفي رواية أُخرى " لكل غادر لواء عند أمته ، يرفع له بقدر غدرته ، ولا غادر أعظم من أمير عامة "[(٣)] يعنى ليس أعظم خيانة ، ولا أسوأ عاقبة من رجل تولى أمور الناس فنام عنها حتى أضاعها ، ومن الأمانة ألا يستغل الرجل منصبه الذي عين فيه لجر منفعة خاصة لنفسه ، أولقرابته ، فإن سرقة المال العام جريمة لا تغتفر ، والمعروف أن كل موظف في الدولة أوشركة له مرتب معين فإذا ما تقاضى قوم ذلك من طريق غير مشروع فهو سُحْت ، وكسب حرام .

قال رسول الله - ﷺ - " من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً ، فما أُخذ بعد ذلك فهو غلول " [(٤)] .

وكان غلولاً لأنه يعد اختلاس من المال العام ، وهو مال الجماعة المسلمة يعنى هو ملك لجميع المسلمين ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ [سورة ال عمران:١٦١].

أما المسلم الذي يلتزم حدود الله فيما أُسند إليه،ويؤدى واجبه على الوجه الأكمل فهو عند الله من المجاهدين لنصرة دينه،وإعلاء كلمته،قال رسول الله- ﷺ -

1 - رواه البخاري .
2 - رواه البخاري .
3 - رواه مسلم.
4 - رواه أبوداود .

"العمل إذا استعمل فاخذ الحق وأعطى الحق لم يزل كالمجاهد في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته" (١)

وقد شدد الإسلام في ضرورة التعفف عن استغلال النفوذ، كما شدد في رفض المكاسب غير المشروعة والتي يشوبها الحرام.

فعن " عدى بن عميرة " قال : سمعت رسول الله - ﷺ - قال " من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطا فما فوق كان غلولا يأتى به يوم القيامة ، فقام إليه رجل أسود من الأنصار-كأنى انظر إليه- فقال يا رسول الله اقبل عنى عملك قال : ومالك؟قال: سمعتك تقول كذا وكذا ، قال : وأنا أقوله الآن من استعملناه منكم على عمل فليجئ بقليله وكثيره فما أوتى منه اخذ ، وما نهى عنه انتهى " (٢) .

وحدث أن استعمل النبي - ﷺ - رجل من " الأزد " يقال له " ابن اللتيبة " على الصدقة ، فلما قدم بها قال : هذا لكم ، وهذا أهدى إلى ، يقول راوي الحديث فقام رسول الله- ﷺ - فحمد الله واثني عليه ثم قال : أما بعد فأنى استعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله فيأت فيقول : هذا لكم ، وهذا هدايا أهديت إلى ، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً ؟

والله لا يأخد أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة فلا اعرفن أحد منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاء ، أوبقرة لها خوار ، أوشاة تبعر ثم رفع يديه حتى رؤى بياض أبطيه يقول : اللَّهم هل بلغت " (٣) .

ومن الأمانة أيضا أن ينظر المسلم إلى حواسه التي انعم الله بها عليه وللأموال والأولاد والمناصب ، والمواهب التي خصه الله بها ، ومنحه إياها ، فيدرك المسلم أنها ودائع الله عنده فيجب أن يسخرها في مرضاة الله ورسوله ، قال الله- عز وجل :-﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ [سورة الأنفال:٢٧:٢٨] .

ومن معاني الأمانة حفظ حق المجلس فإذا كنت في مجلس حاضراً فالأخلاق القرآنية تأمرك بألا تفشى أسرار هذا المجلس ، قال رسول الله- ﷺ -:" اذا حدث رجل رجلاً بحديث ثم التفت فهو أمانة ، يعنى اذا حدثه بحديث وأدار ظهره له فيصبح الحديث

1 - رواه الطبراني .
2 - رواه مسلم.
3- رواه مسلم.

أمانة لا يجوز له إفشاءه ، قال رسول الله- ﷺ - "المجلس بالأمانة الا ثلاثة مجالس ، مجلس سفك دم حرام أو فرج حرام ، أو إنقطاع مال بغير حق " (١) .

وللعلاقات الزوجية أيضا فى نظر الإسلام قداسة وإحترام ، فما يضمه البيت من شئون العشرة بين الرجل والمرأة من الواجب ان يطوى فى أَستار مُسْبَلَةٍ فلا يطلع عليه أحد مهما قرب .

والسفهاء من العامة والدهاء يثرثرون في هذه الامور، وتلك وقاحة يحرمها الله- سبحانه.

فعن أسماء بنت يزيد أنها كانت عند رسول الله- ﷺ - والرجال والنساء قعود عنده.

فقال : لعن الله رجلا يقول ما فعل بأهله ، ولعن الله امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها ؟

فألزم القوم- سكتوا وَجلين- فقلت : أى والله يا رسول الله ، إنهم ليفعلون وإنهن ليفعلن ، قال " فلا تفعلوا فإنما مثل ذلك شيطان لقي شيطانه فغشيها والناس ينظرون "(٢) .

وقال رسول الله - ﷺ -: " ان من أعظم الامانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضى الى امرأته وتفضي إليه ، ثم ينشر سرها " (٣) .

والودائع التى يحفظها الناس لدينا هى أمانة أيضاً نُسأل عنها امام الله- سبحانه - ويجب ردها الى صاحبها متى طلبها .

وقد استخلف رسول الله- ﷺ - سيدنا " على بن أبى طالب "-رضي الله عنه- عند هجرته من مكة الى المدينة ليرد الأمانات والودائع للمشركين حيث أنهم كانوا قد حفظوها لدى النبى- ﷺ - مع ان هؤلاء المشركين أصحاب الودائع التى استخلف النبى عَلِيّاً لردها لأصحابها كانوا بعض الذين استفزوه من الأرض، واجبروه على ترك وطنه مسقط رأسه ، ومدرج صباه ، وذلك في سبيل عقيدته لكن الشريف لا يضيع مع الصغار.

يقول"ميمون بن مهران"ثلاثة يؤدين إلى البر والفاجر : الأمانة ، والعهد ، وصلة الرحم .

أما أن يعد بعض الناس الوديعة غنيمة ، فذلك لون من ألوان السرقة الفاجرة .

1- رواه ابوداود .
2- رواه الإمام احمد.
3- رواه مسلم.



فعن " عبد الله بن مسعود " -رضي الله عنه - قال : القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلاَّ الأمانة ، قال : يؤتى بالعبد يوم القيامة وإن قتل في سبيل الله ، فيقال : أدى أمانتك ، فيقول : اى رب كيف وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال : انطلقوا به الى الهاوية ، وتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه فيراها فيعرفها ، فيهوى فى أثرها حتى يدركها فيحملها على منكبيه ، حتى اذا ظن أنه خارج زلت عن منكبيه فهو يهوى فى أثرها ابد الآبدين ، ثم قال : الصلاة أمانة ، والوضوء أمانة ، والوزن أمانة ، والكيل أمانة ، وأشياء عددها ، وأشد ذلك الودائع ، يقول راوي الحديث : فأتيت البراء بن عازب فقلت : ألا ترى الى ما قال بن مسعود قال كذا وكذا ، قال البراء : صدق اما سمعت الله يقول :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾ [سورة النساء :٥٨] .

إن الأمانة خُلُق اسلامى أرشدنا اليه القرآن الكريم اثناء حديثه عن الأخلاق ، وهوفضيلة من الفضائل العظيمة ، لا يستطيع حملها المهازيل من الرجال ، حيث انها ثقيلة ضخمة تثقل كاهل الوجود كله ، فلا ينبغي للإنسان الاستهانة بها ، أو أن يفرط فيها .

يقول الله - عزوجل:- ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ [سورة الأحزاب:٧٢] .

والظلم والجهل آفتان عرضتا للفطرة الأولى ، وعنى الإنسان بجهادهما ، فلن يخلص له إيمان ، إلاَّ اذا أنقاه من الظلم .

قال تعالى :﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾[سورة الأنفال :٨٢]

وأن يخلص له تقوى إلا إذا نقاها من الجهالة ، يقول سبحانه وتعالى:-﴿ ...ۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ... ﴾ [سورة فاطر:٢٨] .

ولذلك بعد أن يقرأ الآية التى حملت الانسان الأمانة تجد أن الذين غلبهم الظلم والجهل ، خانوا ونافقوا وأشركوا ، فحق عليهم العقاب، ولم تكتب السلامة لأهل الإيمان والأمانة .

قال تعالى: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴿٧٣﴾ ﴾[سورة الأحزاب:٧٣] .

هذه هى الأخلاق فى القرآن الكريم ،ذينكم الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى يجب على المسلم ان يتخلق بأخلاق القرآن الكريم الذى أنزله الله هدى ورحمة للعالمين ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، اللهم وفقنا للعمل بما أودعته من أخلاق فى كتابك العزيز [1].

---

1 - البحر المحيط ج٧ ص١١٣ .
- صفوة التفاسير للصابوني ج٢ ص٤٣٠ وما بعدها.
- مفاتح الغيب او التفسير الكبير للرازي ج١٢ ص٢٦٥ وما بعدها .
- مختصر تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠.
- تفسير الطبرى ج٢٠ ص٣٩ .
- فى ظلال القرآن للامام الشهيد سيد قطب ج٥ ص٢٦٨٥- ٢٦٨٩ .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص٣٨٣- ٣٨٦ .
- روح المعاني للالوسى .
- النهر الماد من البحر المحيط ، حاشية على البحر .
- الدر اللقيط من البحر المحيط ، حاشية على البحر .

" العزة "

ويمضى القرآن الكريم فى توجيهاته الراشدة وحثه على الأخلاق الكريمة ومن بين هذه الأخلاق القرآنية " العزة " فإن اعتزاز المسلم بنفسه ، ودينه ، وربه وعقيدته ، وإيمانه ، هو كبرياء المسلم ، وعزة المسلم ، وهومخالف لكبرياء السلطة والطغيان ، والظلم ، فالعزة التى يوجه إليها القرآن الكريم هى التواضع للفقراء والأنفة والشمم لدى الطغاة ، والمتغطرسين الجبارين ، والترفع عن النفاق أو التذلل ، أو إهانة النفس لسلطان أو جائر ، والانخفاض الى خدمة المسلمين والتبسط معهم ، مع احترام الحق الذى يجمعه بهم ، لذا يقول الله تعالى:- ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة فاطر:١٠]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [سورة النساء:٩٨:٩٩].

ويقول الإمام الشهيد سيد قطب: لقد كان هذا النص يواجه حالة واقعة في الجزيرة العربية فى مكة وغيرها بعد هجرة النبى- ﷺ - وقيام الدولة المسلمة ، فقد كان هناك مسلمون لم يهاجروا ، حبستهم أموالهم ومصالحهم ، حيث لم يكن المشركون يدعون مهاجراً يحمل معه شيئاً من ماله ، أو حبسهم إشفاقهم وخوفهم من مشاق الهجرة حيث لم يكن المشركون يدعون مسلما يهاجر حتى يمنعوه ، ويرصدوا له فى الطريق ، وجماعة أُخرى حبسهم عجزهم الحقيقي من الشيوخ والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلةً للهرب ولا يجدون سبيلاً للهرب والهجرة ، ولقد اشتد أذى المشركين لهؤلاء الباقين من أفراد المسلمين ، وذلك بعد عجزهم عن اللِّحاق برسول الله - ﷺ - وصاحبه ، ومنعهما من الهجرة ، وبعد قيام الدولة الاسلامية ، وبعد تعرض الدولة المسلمة لتجارة قريش في" بدر" وانتصار المسلمين ذلك الانتصار الحاسم ، فأخذ المشركين يسقون هذه البقية المتخلفة صنوفا من العذاب والنكال ويفتنونهم عن دينهم فى غيظ شديد ، وقد فتن بعضهم عن دينه فعلا واضطر بعضهم الى إظهار الكفر تقية ، ومشاركة المشركين عبادتهم وكانت هذه التقية جائزة لهم يوم إن لم تكن لهم دولة يهاجرون اليها متى استطاعوا ، فأما بعد قيام الدولة ، ووجود دار الإسلام فإن الخضوع للفتنة ، أو الالتجاء الى التقية وفى الوسع الهجرة والجهر

بالاسلام ، والحياة فى دار الاسلام ، أمر غير مقبول وهؤلاء هم الظالمون لأنفسهم ، لأنهم قاعدون للمحافظة على أموالهم ومصالحهم اوإشفاقاً من مشاق الطريق ، ومتاعب الهجرة .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ... ﴾ [سورة النساء:٩٧]

حيث أنهم حرموها الحياة فى دار الاسلام وهى حياة طاهرة نظيفة ، وفيها الحرية الكاملة والطمأنينة النفسية والراحة والاستقرار ، بعيداً عن الذل والهوان ، والإرباك العقلي والنفسي وأيضا البدني ، وهؤلاء قد توعدهم الله - سبحانه وتعالى - بالعذاب الشديد فقال تعالى: ﴿ ... فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [سورة النساء:٩٧].

وهذه الآيه تعنى هؤلاء الذين فتنوا عن دينهم ، والقرآن الكريم يصور ذلك الموقف تصويراً حياً نابضاً بالحركة والحوار مع هؤلاء الذين فتنوا فى دينهم فقال تعالى :-

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ ... ﴾ [سورة النساء:٩٧]

إن القرآن الكريم يعالج نفوس بشرية ، ويهدف الى استجاشة عنصر العزة ومطاردة عوامل الضعف والذل والهوان وذلك بقبول الأمر الواقع وذلك مثل الذى نراه اليوم في واقعنا المعاصر من قبول العرب والمسلمين للذل والهوان ، وضياع العزة والكرامة العربية الإسلامية، ونسيان تاريخهم الحافل بالانتصارات وسجلهم المملوء بالأمجاد العظيمة والفتوحات التى سجلها تاريخهم بأحرف من نور ، وقبلوا الذل والهوان خاصة ونحن نكتب هذه الكلمات يقرع سمعي هذا الخبر الذى يطفح بالذل واستخفاف واستهانة العدوالاسرائيلى بالعرب والمسلمين في كل أرجاء الأرض وهومحاصرة العدوالصهيوني للمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين ، مسرى النبى - ﷺ - والذى أَمَّ النبى - عليه السلام- جميع الأنبياء وصلى بهم ، ورضي الأنبياء به إماماً وقائداً ونبياً ، وان دل هذا فإنما يدل على أن الأنبياء جميعاً رضوا به نبيا واماما كما انهم آمنوا بما أُنزل عليه فهو بذلك مسلمون جميعا ، ومع ذلك لا ترى موقفاً صارماً حيال هذه الاستفزازات الصهيونية الماكرة من العرب والمسلمين فأين هم ؟!!

إن الموت الزءام خير لهم من هذه الحياة ، حياة الذل ، والاستكانة والهوان ، ان بطن الأرض خير لهم من ظهرها ، وقد ذكرني هذا الموقف بضياع الأندلس المسلمة ، وسقوطها مملكة تلوالأخرى ، والمسلمون يستنجدون بالمسلمين في كل أرجاء المعمورة فلم يقف لنجدتهم احد ، وفي ذلك يقول الشاعر العربي المسلم مُصَوراً ذلك الموقف المخزي ، والذى يشبه موقف العرب والمسلمين في هذا العصر ، وتلك الآونة المحزنة ، والمؤسفة وكأن الشاعر

قد كشف له الحجاب حيث ان الأبيات تحكى واقعنا المعاصر، وما يحدث الآن من استيلاء الصهيونية العالمية على الحرم الابراهيمى، وتطويق المسجد الأقصى تريد هدمه، وإزالة معالمه، فيقول الشاعر عبد الله السرندى :

تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... وما لها من طول الدهر نسيان

يا راكبين عناق الخيل ضامرة ... كأنها فى مجال السبق عقبان

وراتعين وراء البحر فى دعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان

هل عندكم فيأمن أهل أندلس ... قد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا مستضعفون ... وهم قتلى واسري فما يهتز إنسان

وكان آخر إقليم سقط من بلاد الاندلس " الحمراء " وغادرها قائدها ويدعى "عبد الله" وامتطى صهوة جواده، ويمن ناحية المغرب ثم بكى بكاءً مُراً، وانتحب انتحاباً شديداً، وتُسَمَىْ إلى الآن " بزة المغربي " فقالت له أمه واسمها عائشة :

انك مثل النساء من مضاعا ... لم نحافظ عليه مثل الرجال

فما أشبه الليلة بالبارحة، فما هى ذا الاندلس قد ضاعت، واكتفى المسلمون باستيراد الكابتن " مانويل جوزيه " ليدرب النادي " الأهلى " وهو نادي القرن فهو برتغالي والأندلس هى اسبانيا، والبرتغال حالياً، ثم ضاعت فلسطين والعراق، وأذل المسلمون إذلالاً في البوسنة والهرسك، وقامت مجازر علنية أمام ما يسمى بحقوق الانسان إن المراد بحقوق الإنسان هو الإنسان الكافر وليس سواه كما حوصرت كثرة كاثرة من بلاد الاسلام، فهل آن الأوان لأن نستيقظ من رُقَادنا ؟!! ونفيق من غفلتنا ؟!! ونؤب الى رشدنا ؟!! ليسترد المسلمون مجدهم، وعزتهم وسيادتهم ؟! أجل والله لقد آن .

هل سمعت المسلمين فى القنوات الفضائية وهم يصرخون نساءً ورجالاً وأطفالاً، شيباً، وشباباً، قائلين واإسلاماه حين سمعت بأُذنى وشاهدت ببصري هؤلاء يصرخون واسلاماه قلت لهم وهم لا يسمعون قولي : تلك أيام قد خلت . أين المنتصر بالله ؟؟، أين صلاح الدين ؟؟، الذى أرسل له شاعر وقد كتب له على لسان المسجد الأقصى يقول له :

يأيها الملك الذى ... لمعالم الصلبان نكس

جاءت إليك ظلامة ... تسعى من البيت المقدس

كل المساجد طهرت ... وأنا على شرفي منجس

فَجَيَّشَ صلاح الدين الجيوش ، وقصد المسجد الأقصى ، وحرره بعد احتلال دام "ثمانية وثمانين عاماً" وها هو ذا " المعتصم بالله العباس " وموقفه من الرومي الذى يساوم مسلمة في السوق على سلعة لها ، فيلطمها الرومى على وجهها فتخر ساقطة على الأرض ، فتصيح قائلة " واعتصماه " فيلحق المعتصم لنجدتها ويجيش الجيوش ، ويفتح " عمورية " ويخرب " حصن زبرطة " ويأسر القائد " توفلس " فيهز هذا النصر اريحة الشاعر " حبيب بن أوس الطائي " فيقول مشيداً بالفتح ، بذلك الانتصار العظيم ، فيقول :

السيف اصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف ... فى متونهن جلاء الشيك والريب

يا يوم وقعت عمورية انصرفت ... منك المنى حفلا معسولة الحلب

أبقيت جد بني الاسلام فى صيد ... والمشركين ودار الشرك فى صيب

وفي الحرب العالمية نرى القائد " منتوجمرى " يضع حذاءه فوق قبر " صلاح الدين " ويقول له : ها نحن قد عدنا فقم يا صلاح ، ولوان صلاح الدين حياً ما استطاع ذلك الحاقد الماكران يتفوه بهذه المقولة ، أوان يصل الى مكان يوجد فيه صلاح الدين ولوكان في شرق الارض أوغربها ، إنها اليهودية الماكرة والصليبية الحاقدة والسؤال الآن ، هل يجدي نفعاً دعاء الصالحين ؟ وهل ينزل الله الطير الأبابيل ؟ لا نقول فى ثقة تامة " لا " لن يتقبل الله دعاء مليارو مائتي مليون مسلم في العالم ، وأكثر من مائتى مليون عربى ولن ينزل الطير الأبابيل ما دام هذا العدد موجوداً فوق سطح الأرض .

إنما يستجيب الله سبحانه حين يهب هؤلاء بأسلحتهم وكل طاقتاهم سياسيا وعسكرياً واقتصادياً وقتالياً وحينذاك يكلؤهم الله برعايته ، ويصونهم بحفظه ، وينصرهم بقدرته ، ويحميهم بقوته ومساعدتهم ، يقول الله سبحانه﴿...وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ ...﴾ [سورة المجادلة:٢٢] " وأيدهم بروح منه " فالروح هنا معناها النصر من الله -عزوجل..

ومشهد " الاحتضار " بذاته مشهد ترتجف له النفس البشرية وتتحفز لتصور ما فيه وإظهار الملائكة في المشهد يزيد النفس ارتجافاً وحساسية والقاعدون الذين ظلموا انفسهم وقد حضرت الملائكة لتتوفاهم وهذا حالهم " ظالمى أنفسهم " وهذا وحده كفيل بتحريك النفس وارتجافها ، إذ يكفى أن يتصور المرء نفسه والملائكة تتوفاه وهوظالم لنفسه ، وليس أمامه من فرصة أُخرى لإنصاف نفسه ، فهذه هى اللحظة الأخيرة ، ولكن الملائكة لا يتوفونهم وهم ظالمون لانفسهم فى هدوء وصمت ، بل يقلبون ماضيهم ، ويستنكرون أمرهم ،

ثم يسألونهم فيما أضاعوا أيامهم ولياليهم ؟ وماذا كان همهم فى الدنيا ؟ " قالوا فيما كنتم"؟ فيجيب هؤلاء المحتضرون على هذا الاستنكار جواباً كله مذلة ، ويحسبونه معذرة على ما فيه من مذلة ، " قالوا كنا مستضعفين في الأرض " لقد كنا أذلاء في الأرض لا حول لنا ولا قوة ، ولا عزة ولا طول ، بيد أن هذا الاعتذار غير مقبول البتة حين يجئ الرد عليهم فى قوله سبحانه :﴿...أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ...﴾ [سورة النساء:٩٧]

ليس لديهم عذر حقيقي يقبل ، أوعجز يسمح لهم بقبول معذرتهم ، فليس لديهم العذر الذى يحملهم على قبول المهانة والذل ، والفتنة عن الإيمان حيث ان أرض الله واسعة، وفيها متسع لأمثالهم للعيش فى طمأنينة وعزة وكرامة ، وإنما الذى جعلهم يتحملون الذل والمهانة حرصهم على أموالهم ، ومصالحهم ، وأنفسهم ذلك الذى جعلهم يسكنون ويقيمون في دار الكفر فى ذلة ومهانة ، مع ان أرض الله واسعة ، والهجرة إليها ميسرة ، وينتهي المشهد المؤثر بذكر النهاية المخيفة التى تتجلى في قوله تعالى : ﴿...فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [سورة النساء:٩٧] ثم يستثنى القرآن من لا حيلة لهم فى البقاء فى دار الكفر والتعرض للفتنة ، والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشيوخ، والضعاف، والنساء، الأطفال، فهؤلاء لهم رجاء فى عفوالله ومغفرته ورحمته حيث إن هؤلاء لهم عذر مقبول عند الله وعند الناس لأنهم عاجزون عن الفرار والهجرة بدينهم إلى دار الإسلام ، وقال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة النساء:٩٨ :١٠٠] ويمضى هذا الحكم ويسرى إلى آخر الزمان ، فهو ليس خاصاً بزمان معين ، فهو حكم عام ينظم كل مسلم ومسلمة تناله الفتنة في دينه في أيه أرض ، وتمسكه أمواله ومصالحه الخاصة ، وأولاده وقرابته ، أو إشفاقه من آلام الهجرة ، ومخاوف التعب ، ومحاذر الغربة متى كان هنالك دار إسلامية يستطيع العيش فيها ، ومباشرة حقوقه الإسلامية وإقامة شعائر دينه من صلاة ، وصوم ، ويعيش فى ظلال شريعة الإسلام، متمتعاً بحياة إسلامية رفيعة محافظا على دينه، وإنسانيته ، وكرامته بمنأى عن الذل والهوان ويقول " ابن كثير " هذه الآيه الكريمة عامة فى كل من أقام بين ظهراني المشركين وهوقادر على الهجرة ، وليس متمكن من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه ، مرتكب حراماً بالإجماع ، وبنص هذه الآيه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾ [سورة النساء:٩٧] يعنى بتركهم الهجرة .

فعن " سمرة بن جندب "- رضي الله عنه- قال : قال رسول الله - ﷺ - " من جامع المشرك مسكن معه فإنه مثله " .

وعن أبى هريرة- رضي الله عنه- ان رسول الله- ﷺ - رفع يده بعد ما سلم وهومستقبل القبلة فقال " اللّهم خلص الوليد بن الوليد وعياش بن أبى ربيعة، وسلمة بن هشام ، وضعفة المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً من أيدى الكفار " .

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال " إلاَّ المستضعفين " قال :كنت أنا وأُمى ممن عذر الله- عز وجل - ونرى القرآن الكريم يحرض على الهجرة فيقول: " ومن يهاجر في سبيل الله فيجد فى الارض مراغما كثيراً وسعة " ففي الآيه تحريض على الهجرة وترغيب فى مفارقة المشركين .

ويقول سبحانه :﴿...وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ...﴾ [سورة النساء:١٠٠] يعنى : ومن يخرج من بيته بنية الهجرة فمات في أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر، كما ثبت فى الصحيحين عن عمر بن الخطاب . رضي الله عنه- قال :قال رسول الله - ﷺ -: " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر إليه "

وهو عام في الهجرة ، وفي جميع الأعمال ، ومنه الحديث الثابت في الصحيحين في الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفساً ، ثم أكمل بذلك العابد المائة ثم سال عالم هل له من توبة ، فقال له : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده الى بلد أُخرى يعبد الله فيه ، فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الأخرى أدركه الموت في اثناء الطريق ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقال هؤلاء إنه جاء تائباً ، وقال هؤلاءإ لم يصل بعد ، فأمروا ان يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها ، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه ، وهذه ان تبتعد ، فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر فقبضته ملائكة الرحمة وفي رواية أُخرى :" انه لما جاءه الموت باء بصدره إلى الأرض التى هاجر اليها " .

ويروى لنا " الزبير بن العوام "- رضي الله عنه- قال :" هاجر خالد بن حزام -رضي الله عنه - إلى أرض الحبشة فنهشته حية فمات فنزلت فيه " ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيما " .

ويقــول تعــالى :﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ... ﴾ [سورة النساء:١٠٠] وهذا ترغيب فى الهجرة وهوأمر عام كما أومأنا إلى ذلك آنفا ، فأرض الله واسعةً ورزقه سابغ على العباد ، وقال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة العنكبوت:٥٦] ويقول صاحب " التفسير الكبير " :-" ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم "فى هذا التوفي قولان :الأول :معناه تقبض أرواحهم عند الموت ، وعلى هذا القول كيف الجمع بينه وبين قوله تعالى فى الآيات الكريمة :﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ... ﴾ [سورة الزمر:٤٢] و﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سورة الملك:٢] .وقوله تعالى:﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة البقرة:٢٨] وقوله تعالى:- ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة السجدة:١١] .

قلنا خالق الموت هو الله تعالى ، والرئيس المفوض إليه هذا العمل هو"ملك الموت " وسائر الملائكة أعوانه .

والقول الثاني :. هو أن المعنى : توفاهم الملائكة يعنى يحشرونهم إلى النار وهو قول الحسن .

" ظالمى أنفسهم " فقد يراد بالظلم " الكفر " قال تعالى: ﴿... إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة لقمان:١٣] وقد يراد به المعصية .

وروى أن النبى- صلى الله عليه وسلم - بعث بهذه الآيه إلى مسلمي مكة فقال "جندب بن حمزة " لبنيه " احملوني فأنى لست من المستضعفين ، ولا إنى لا أهتدى إلى الطريق ، والله لا أبيت الليلة بمكة ، فحملوه على سرير متوجهين إلى المدينة وكان شيخاً كبيراً ، فمات في الطريق . وهذا الأمر بالنسبة للقادرين على الهجرة أما غير القادر فلا شئ عليه حيث أنه يعد عاجزا ، وغير قادر على الهجرة والعاجز عن الشئ غير مكلف به ، فأولئك عسى الله ان يعفو عنهم وكان الله عفواًغفوراً ، إن النفر يلفظ " عسى " هنا بقيد ويدل على أن ترك الهجرة فى هذه الأحوال أمر مضيق لا توسعة فيه .

إن العزة والكرامة من أبرز الخِلاَل التى نادي بها الإسلام وَغَرَسَها فى المجتمع الاسلامى ، كما تعهد بنمائها ، وذلك بما شَرْعَهُ من عقائد ، وما سَنَّ من تعاليم ، واليها يومئ سيدنا " عمر بن الخطاب "- رضي الله عنه - بقوله : أحب من الرجل إذا سم خطة حق أن يقول بما لك فيه " لا " ونرى المؤذن يصيح بالأذان خمس مرات في اليوم والليلة ينادى قائلا " الله اكبر ، " في بداية الأذان ونهايته وما ذلك إلاَّ ليتأكد ، ويوقن المسلم أن كل

متكبر بعد الله فهو صغير وان كل متعاظم بعد الله فهو حقير، فهذا النداء يرد الناس إلى رشدهم، وصوابهم كلما اطاشتهم الدنيا، وضللتهم متاهاتها الطامسة، وتوكيداً لهذه المعاني اختار الله- عزوجل - أسمى" العظيم " و" الأعلى "من أسمائه الحسنى ليكررها المسلم اثناء ركوعه وسجوده فيفرد المسلم رب العالمين بالعظمة والعلو، والعزة حق يقابله واجب، فاذا كلفت بعمل فاديته على أكمل وجه، وبضمير يقظ، وبخلق المسلم فلا سبيل لأحد عليك، ولا يستطيع رئيسك فى العمل أن يتوجه إليك بكلمة نابية أو لفظ محرج فبذلك تستطيع أن تحتفظ بعزة نفسك أمام رؤسائك وقيادتك في العمل وخارجه وذلك حين تسد الثغرات التى ينفذ منها إليك، والمثل العربي يقول: " إياك وما يتعذر منه " يقول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٦) وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[سورة يونس :٢٧]

واجتراح السيئات، وارتكاب المناكر، واقتراف الآثام سبيل الإهانة والمذلة وقد بَيَّن الله- عزوجل - أن الهزيمة في موقعة " أحد " كان من أسبابها ما ارتكبه بعض الصحابة - رضي الله عنهم - من مخالفات فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة ال عمران :١٥٥].

فالإسلام عندما أوصى المسلم بالعزة أرشده إلى أسبابها، وَيَسَّرَ له وسائلها، وافهمه ان العزة فى طاعة الله، والمؤمن الذى يعلم ذلك ويعمل به من الواجب أن يأخذ نصيبه كاملاً فى الحياة الرفيعة العظيمة، فاذا ما اعتدى عليه أحد، أو طمع فيه ظالم كان دفاعه عن نفسه جهاداً في سبيل الله، ومن ثم فان موت المسلم دون حقه شهادة في سبيل الله، جاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال:"يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذَ مالي يعنى يريد اغتصابه. قال: لا تعطه مالك، قال: أرأيت إن قاتلني ؟

قال: قاتله، قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: فأنت شهيد، قال: أرأيت ان قتلته ؟
قال: هو فى النار " [1].

أجل فمن عزة المؤمن ألاَّ يكون مستباحاً لكل طامع، وغرضاً لكل هاجم وكلأً مباحاً للظالمين، بل على المسلم ان يستميت دون نفسه، وماله وعرضه، وان أُغرقت في سبيل ذلك

---

1 - رواه مسلم.

كثرة كاثرة من الدماء ، وشرع الله الثأر من المظالم إعزازا لجانب المهضوم ، وإيهانا لجانب المعتدى .

يقول تعالى : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[سورة الشورى:٣٦:٣٨]، ويعي هذه التعاليم ، وتلك الإرشادات الربانية العظيمة فى القرآن المحكم آياته ، التى توفر لأصحابها العزة والكرامة فرادى وجماعات،قال سبحانه:﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[سورة الشورى:٣٩:٤٠].

فمن الأخلاق التى وجهنا إليها القرآن الكريم ان المسلم يغفرله اذا استغضبه من هو دونه ، وأقل منه ، كما من خلقه ان يؤدب المجترئين عليه المتطاولين على شخصيته ، حتى يكسر شوكتهم ، وينأى عن مخاطرهم ، وفى هذه الحال يجب أن يبرز قوته حتى يرهب المجرمين ، وله وقت ذاك ان يعفو وذلك عفوا لمقتدر ، فالخلق الذى تضمنته الآيات الأخيرة يخالف الخلق الذى تضمنته الآيات الأولى ، فالأولى تعنى التجاوز عنها فوات العاثرين ، قال تعالى :﴿...وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الشورى:٣٧]، أما الآيات الأُخرى فتقدم الجاني إلى القضاء ثم تصدر عليه العقاب حتى اذا انكسرت سطوته ، واختفت جرأته وتضاءلت قوته ، وتمكن سيف القصاص من عنقه جاء الفضل ، بعد استطالة العدل فيكون ذلك زيادة فى عزة المسلم ، ومن العزة ألاَّ يستكين المسلم ، ويذل نفسه في سبيل مأرب دنيوي ، اوتحقيق مطلب على يد من يستطيع ذلك ، قال- ﷺ - " اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأُمور تجرى بالمقادير " والبشر جميعاً لا يستطيعون منع شئ اعطاه الله ، أوكتبه لك وإنهم لا يستطيعون إعطاء شئ منعه الله ، اولم يكتبه لك ، فعلى المسلم أن يرد الأمور ومصايرها إلى الله ـ عز وجل ـ فكل قرار لا يتم إلاَّ اذا أمضاه الله - عز وجل- قال تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾[سورة فاطر :٢] .

هذه هى الأخلاق فى القرآن الكريم التى تُوَجهنا إلى العزة ، والكرامة والشهامة ، وعدم الركون إلى متغطرس جبار ، أوفاسق ظالم ، ولا يذل المسلم نفسه إلاَّ لخالقه -عز وجل - ونهى الله - عز وجل - أن يتخذ المؤمنون الكافرين أعواناً وأنصاراً لما يتوهمونه فيهم من القوة ، ويتركون ولاية المؤمنين ، ويطلبون بموالاة الكافرين القوة والغلبة ، وفى الحقيقة إن

الكفار لا عزة لهم ، فكيف تبتغى منهم فقال تعالى :﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [سورة النساء :١٣٩].

فإن كان هؤلاء يطلبون لدى الكافرين العزة والمنعة والغلبة ، فإن العزة لله يؤتيها من يشاء ، فعليهم أن يطلبوها من الله-سبحانه وتعالى-بصادق إيمانهم، وإتباعهم هدايته التى أرشد اليها أنبياءه ورسله ، وبينوا لهم أسبابها وقد أتاها المؤمنين حينما اهتدوا بكتابه ، وساروا على سنته ، ونهجوا نهجه ، فلما اعرضوا عن هذه الهداية التى اعتز بها أسلافهم ذلوا ، وضعفوا ، وخضعوا لعدوهم وصار منهم منافقون يوالون الكافرين يبتغون عندهم العزة والشرف وما هم لها بمدركين ، وحقا انه من اعتز بغير الله ذل ، وما نشاهده في عصرنا هذا خير شاهد ودليل على صدق هذا الكلام ، وهوواقع لا يستطيع أحد ان ينكره ، اوحتى يجادل أويمارى فيه ، وصدق الله حين قال " أأنتم اعلم أم الله" ؟؟!!!

وقد حذر القرآن الكريم قائلاً: يا معشر المؤمنين من يرجع منكم عن دينه الحق ، ويبدله بدين أخر ويرجع عن الايمان إلى الكفر، فسوف ياتى الله مكانهم بأناس مؤمنين يحبهم الله ويحبون الله رحماء متواضعين للمؤمنين ، أشداء متعززين على الكافرين .

يقول " ابن كثير " :" وهذه صفات المؤمنين الكامل ان يكون أحدهم متواضعاً لأخيه متعززاً على عدوه مثل قوله تعالى :﴿... أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ... ﴾[سورة الفتح:٢٩]

ومن علامة حب الله تعالى للمؤمن أن يكون لَيّن الجانب ، متواضعا لإخوانه المؤمنين ، ومتصفا بالقوةِ حِيال المؤمنين والكافرين ، يجاهدون لإعلاء كلمة الله ، ولا يبالون بمن لامهم ، فهم طلاب فى دين الله ، لا يخافون فى ذات الله أحداً ، ومن اتصف بهذه الأوصاف الحميدة فإنما هومن فضل الله عليه وتوفيقه له ، والله- سبحانه وتعالى- واسع الأفضال والإحسان ، عليه بمن يستحق ذلك .

فقال - سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة المائدة:٥٤] .

ومن التوجيهات القرآنية الكريمة ، والإرشادات الإلهية العظيمة التى توجه المسلم للاستمساك بالعزة حيث ان العزة لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين ، فقد قال الكافرون لئن رجعنا من هذه الغزوة وهى " غزوة بني المصطلق " وعدنا إلى المدينة المنورة وهى بلدنا لنخرجن منها محمداً وأصحابه ، وصاحب هذه المقولة " عبد الله بن أبى بن سلول " زعيم المنافقين - وسلول - اسم لأمه ، وعنى بالأعز نفسه وأتباعه ، وعنى بالأذل رسول

الله- ﷺ - وأصحابه ، يقول المفسرون وأهل العلم ، لما قال " ابن سلول " ما قال ورجع إلى المدينة ووقف له ولده " عبد الله " على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يمرون به، فلما جاء أبوه قال له ابنه " عبد الله " وراءك والله لا تدخل المدينة أبدا حتى تقول ان رسول الله هوالأعز، وأنا الأذل ، فقالها ، ثم جاء إلى رسول الله- ﷺ - فقال :يا رسول الله بلغني إنك تريد ان تقتل أبى ، فان كنت فاعلاً فمرني فأنا احمل إليك رأسه ، فقال له رسول الله - ﷺ - بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا ، ولله - عز وجل - القوة والغلبة ، ولمن أعزه وأيده من رسوله والمؤمنين ، وليست لغيرهم ، والصيغة تفيد الحصر.

يقول القرطبي " توهموا إن العزة بكثرة الأموال والأتباع فبين الله -عز وجل- ان العزة والمنعة لله ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لفرط جهلهم وغرورهم ، وعمى قلوبهم لا يعلمون ، وغاب عنهم لطيش عقولهم ، وفساد نياتهم ، ان العزة والغلبة لأوليائه دون أعدائه . فقال تعالى : ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة المنافقون:٨].

هذه الأخلاق فى القرآن الكريم الذى يحافظ علي المؤمن ، ويصون كرامته ويحافظ عليه من أن يتعرض للذل ، والمهانة ، والضعف ، فلو أن المسلمين استمسكوا بهذه القيم ، وتلك الأخلاق القرآنية لعزا المسلمون وسادوا ، وعاشوا حياةً ملؤها العزة والكرامة .

" الرحمة "

إن الرحمة كمال في الطبيعة يجعل المرء يرق لآلام الخلق ، ويسعى لازالتها ، فإن تبلد الاحساس يهوى بالإنسان إلى منزلة الحيوان ويسلبه عطفة الحب والرأفة ، وهى صفة من صفات الله – عز وجل- قال تعالى :﴿...رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾[سورة غافر:٧].

وعن " عمر بن الخطاب " - رضى الله عنه - قدم على رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بسبى – يعنى اسرى – فاذا امرأة من السبى تسعى قد تحلب ثديها إذا وجدت صبياً فى السبى ، أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته . فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم -:" اترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ .

قلنا " لا والله . وهى تقدر على الا تطرحه ! ، قال : فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها . (١)

وكثرة كاثرة من اسماء الله الحسنى ينبع من معانيها الرحمة والكرم والعفو والفضل ، وقد جاء فى الحديث القدسى"ان رحمتى تغلب غضبى".(٢)والله-عزوجل-أفضل الرحماء، ورسوله- صلى الله عليه وسلم -كذلك قال تعالى:﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾[سورة المؤمنون:١١٨].
وقال تعالى في نبيه- صلى الله عليه وسلم -:﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة الأنبياء:١٠٧]

وقال – صلى الله عليه وسلم -:" مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوتداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى " .

فأصحاب الرأفة، والرحمة قريبيون من الله - سبحانه وتعالى – أما الجبارون، وقساة القلوب ، وَغُلاَّظ الأكباد ، والكاذبين المستكبرين فهم فى الدرك الأسفل من النار.

وفى الحديث : " إن أبعد الناس من الله تعالى القاسى القلب " (٣) .

وكان رسول الله- صلى الله عليه وسلم - يعد جمود العين ، واستغلاق القلب من الشقاء ، وقد أراد الله أن يمنن على الإنسانية جمعاء بمن ينصر الضعيف ، ويعين على نوائب الدهر ، ويحمل الكل ، ويأسوالجراح ، ويترفق بالأمة فأريل سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم - ولذلك قال الله

1- رواه البخارى .
2- رواة مسلم .
3- رواه الترمذى .

تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[سورة ال عمران:١٥٩].

وقد لازمته - ﷺ - هذه الخلال العظيمة فى أدلك الظروف ، عندما حاول المشركون اغتياله فى غزوة " أحد " ونظر إلى اصحابه - رضى الله عنهم - وهم مضرجون في دماءهم الذكية ، ويقال له : يا رسول الله ادع على المشركين ، فما كان منه - علية الصلاة والسلام - إلاَّ أن قال : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون .

إن القسوة دليل على النقص في الإنسان ، وفي تاريخ الأمم دليل الفساد الخطير ولذلك حذر الإسلام منها ، فقال تعالى : ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الحديد:١٦] .

ونرى الإسلام يأمر المسلمين بالتراحم ، وجعله من دلائل الإيمان الكامل قال رسول الله - ﷺ - لن تؤمنوا حتى تراحموا ، قالوا : يا رسول الله : كلنا رحيم . قال : " انه ليس برحمة أحدكم صاحبه ، لكنها رحمة العامة " (١) .

وقال رسول الله- ﷺ -: " من لا يرحم الناس لا يرحمه الله " ، وزاد في روايه أخرى " ومن لا يغفر لا يغفر الله له ، وقال - علية الصلاة والسلام - " من لا يرحم من في الأرض ، لا يرحمه من فى السماء " (٢) .

وقال تعالى : ﴿ ... أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ ... ﴾[سورة الفتح:٢٩] .

والإسلام رسالة خير وسلام ، وعطف على البشر أجمعين ، وسور القرآن الكريم جميعاً مُفْتَتِحَة بقوله "بسم الله الرحمن الرحيم" ورحمة الله وسعت كل شيء عدا المشركين، قال تعالى : ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ

1- رواه الطبرانى .
2- رواه البخارى .

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٥٧﴾ [سورة الأعراف:١٥٦ :١٥٧].

وقد تأخذ الرحمة طابع القسوة مثل القسوة التى يسلكها المربى مع مريديه وتلامذته ، ومثل الأب مع أولاده فالقسوة هنا تُعَدُ رحمةً بهم ، يقول الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

كما أن القصاص في الإسلام يعد رحمةً بالمسلمين ، وحماية لدمائهم وأموالهم حتى لا يطمع فيها طامع ، ولا يتجرأ عليها سفيه ، كما انه حقن للدماء وحفاظ على الأعراض وصون للحرمات ، يقول الله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [سورة البقرة:١٧٩] وجاءت كلمة حياة نكرة لتدل على العظمة ، يعنى ولكم فى القصاص حياة عظيمة يا أصحاب العقول فالقسوة التى حرمها الإسلام هى التى لا ترتبط بمنطق ولا عدالة .

قال رسول الله- ﷺ -: " جعل الله الرحمة مائة جزء ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه " (١) .

وفي روايه أُخرى : " إن الله تعالى خلق – يوم خلق السماوات والأرض – مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض فجعل منها في الأرض رحمة واحدة ، فيها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضه على بعض " (٢) .

وعنأبى هريرة - رضى الله عنه – قال : سمعت الصادق المصدوق صاحب هذا القول " ابا القاسم " يقول : " لا تنزع الرحمة إلاَّ من شقى " (٣) .

وبينه الإسلام أن هناك أقواما يستحقون أضعافاً من الرحمة ، وهم ذووا لأرحام، والرحم مشتقة من الرحمة فى مبناها ، فيجب ان تستقيم معها في معناها ، قال رسول الله- ﷺ -: " الراحمون يرحمهم الله تعالى ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم مشتق من الرحمن ، من وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله "(٤) .

1- رواه البخارى .
2- رواه مسلم .
3- رواه ابوداود .
4- رواه الترمزى .

والشجنة هى القاربة المشتبكة اشتباك العروق، فواجب على المسلم أن يؤدى حقوق اقربائه ، وذلك بالمودة الدائمة المتواصة ، وأحق الناس بالمودة والرحمة هم الوالدان ، قال تعالى : ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾ [سورة الإسراء:٢٤] ثم الأولاد ، فعن " البراء بن عاذب - رضى الله عنه – قال : "اتى ابوبكر عائشة وقد أصابتها الحُمْى ، فقال : " كيف انت يا بنية وَقَبَلّ خدها [١] .

وعن أبي هريرة كذلك . قال : « قبل رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الحسن بن علي - رضي الله عنهما - وعنده الأقرع بن حابس .

فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً! فنظر إليه رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثم قال :" من لا يرحم لا يُرحم " .

وفي رواية أخرى : " أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك [٢].

قال أنس رضى الله عنه دخلنا مع رسول الله– صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على أبى سيف القين وكان صهراً لابراهيم ولده عليه السلام فاخذ رسول الله ابراهيم فقبله وشمه ثم دخلنا عليه بعد ذلك وابراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله تذرفان فقال له عبد الرحمن بن عوف وأنت يا رسول الله قال « يا ابن عوف إنها رحمة » ثم اتبعهاأُخرى أى دمعةً أخرى فقال « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وان بفراقك يا ابراهيم لمحزنون »[٣] .

كما تجب الرحمة باليتامى، فإن كفالتهم ، والإحسان إليهم من أذكى القربات، فعن "أبى هريرة "- رضى الله عنه - أن رجلا شكا إلى رسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قسوة قلبه فقال : " امسح رأس اليتيم ، واطعم المسكين " [٤].

كما تجب الرحمة المرضى ، وأصحاب العاهات ، فلا يجوز لمسلم أن يؤاخذهم بما أعفاهم الله منه ، قال تعالى : ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ [سورة الفتح:١٧]

ومن الرحمة أيضا الرفق بالخدم ، قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:- "اخواتكم حولكم فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم " .

1- رواه البخارى .
2- رواه البخارى .
3- رواه مسلم .
4 - رواه احمد .

وعن أنس-رضى الله عنه- قال : خدمت رسول الله- صلى الله عليه وسلم - عشر سنين ، فما قال لى لشيء فعلته لما فعلته ، ولا لشيء تركته لما تركته .

وعن أبى مسعود البدرى-رضى الله عنه- :"كنت اضرب غلاماً لى بالسوط فسمعت صوتاً من خلفى: " إعلم أبا مسعود- فلم أفهم الصوت من الغضب – فلما دنا منى إذا هورسول الله- صلى الله عليه وسلم - : " فاذا هو يقول : " إعلم ابا مسعود ان الله اقدر عليك منك على هذا الغلام فقلت : " يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى .

فقال : " اما لوتفعل للفحتك النار " [1] .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حسن الملكة نماء ، وسوء الخلق شئم"[2] .

وجاءه رجل يسأله:" كم مرة اعفو عن الخدم ، قال - صلى الله عليه وسلم -:"كل يوم سبعين مرة "[3] .

وقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم -: " من ضرب سوطاً ظلماً اقتص منه يوم القيامة " .

ومن الرحمة فى الإسلام الرفق بالحيوان ، فقد رأى " عمر بن الخطاب " – رضى الله عنه – رجلا يسحب شاة برجلها ليذبحها ، فقال : ويلك قدها للموت قوداً جميلاً ، وقال رجل يا رسول الله: انى لأرحم الشاة أن أذبحها ، فقال : " ان رحمتها رحمك الله"[4]

والدليل على أن الإسلام عرف طريق الرفق بالحيوان قبل الغرب أن يعرفه والشرق، وقبل ان تنشأ المستشفيات والتى تعرف " بالوحدات البيطرية " ويعمل فيها الأطباء المتخصصون ، وقبل ان يعرف العالم " جمعيات الرفق بالحيوان " عرف الإسلام وَعَرّفَ العالم الرحمة والرفق ، والشفقة بالحيوان ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج ، واذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى ! فنزل البئر فملأ خفه ماءً ، ثم امسكه بِفِيِه حتى رقى فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له " .

قالوا :يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرا ، قال :" في كل كبد رطبة اجرا " .

وفي روايه : ان امرأة بغيا رأت كلبا فى يوم حار ببئر ، قد أولج لسانه من العطش فنزعت له موقها – أى خفها – فغر لها به . فإن كانت الرحمة بكلب تغفر الذنوب للبغايا فان الرحمة بالبشر تصنع العجائب .

1- رواه مسلم .
2- رواه البذار .
3- رواه الحاكم .
4- رواه الحاكم .

ويقول الله- عز وجل- : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة آل عمران:٨].

يعنى لا تملها عن الحق ، ولا تضلنا بعد ان هديتنا إلى دينك القديم وشرعك المستقيم وامنحنا من فضلك وكرمك رحمة ثبتنا بها على دينك الحق انك انت يارب المتفضل على عبادك بالعطاء والاحسان .

فعباد الرحمن ينادون رحمة الله التى ادركتهم بالهدى بعد الضلال ووهبتهم هذا العطاء الذى لا يعادله عطاء .

وهم يوحى ايمانهم يعرفون أنهم لا يقدرون على شيء إلاَّ بفضل الله ورحمة ، وانهم لا يملكون قلوبهم فهى فى يد الله ، فيتجهون اليه بالدعاء ان يمدهم بالعون والنجاة، وعن عائشة – رضى الله عنها – قالت : كان رسول الله - ﷺ - كثيراً ما يدعو" يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبى على دينك "، قلت يا رسول الله :ما أكثر ما تدعو بهذا العامة .

فقال : ليس من قلب إلاَّ وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن اذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه .

ومتى استشعر القلب المؤمن وقع المشيئة على هذا النحو لم يكن أمامه إلاَّ أن يلتصق بركن الله ، فلا ملجأ من الله إلاَّ إليه وأن يتوجه إلى الله يناشده رحمته وفضله .

ويقول " القرطبى " : وهب لنا من لدنك رحمة – أى من عندك ، ومن قيلك تفضلاً ، لا عن سبب منا ولا عمل . ومعنى الآية " هب لنا نعيماً صادراً عن الرحمة ، لأن الرحمة راجعة إلى صفة الذات فلا يتصور فيها الهبة .

ويقول صاحب اللّطائف : ما ازدادوا قرباً إلاَّ ازدادوا أدباً ، واللياذ إلى التباعد أقوى أسباب رعاية الأدب ويقال حين صدقوا في حسن الاستعانة أُمِدُّوا بأنوار الكفاية . وربما يقصد الأمام " القشيرى " فى لطائفه بهذا القول :انهم ابدا طامعون الهداية ، محتاجون – لا لأعمالهم – بل هم محتاجين لفضل الله ورحمته ، ومهما أسبغ عليهم يشعرون انهم ما زالوا بعيدين عن التمام وعلى هذا التفسير تنسجم هذه العبارة مع سابقتها " ما ازدادوا قرباً إلاَّ ازدادوا ادبا " .

ويقول صاحب التفسير الكبير : " لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا " يعني لا تمنعها الألطاف التي معها يستمر قلبهم على صفة الإيمان ، وذلك لأنه تعالى لما منعهم ألطافه عند استحقاقهم منع ذلك جاز أن يقال : أزاغهم ويدل على هذا قوله تعالى :﴿........إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ........ ﴾ [سورة الصف:٥]

وقال الأصمعى ؛ لا تبلنا ببلوى تزيغ عندها قلوبنا فهو كقوله سبحانه : ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [سورة النساء:٦٦] وقال : ﴿......لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ......﴾[سورة الزُّخرُف:٣٣]. والمعنى لا تكلفنا من العبادات ما لا نأمن معه الزيغ ، وقد يقول القائل :لا تحملني على إيذائك أي لا تفعل ما أصير عنده مؤذياً لك الثالث : قال الكعبي " لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا "أي لا تسمنا باسم الزائغ ، كما يقال : فلان يكفر فلاناً إذا سماه كافراً ، والرابع : قال الجبائي :أي لا تزغ قلوبنا عن جنتك وثوابك بعد إذ هديتنا؛ وقال آخرون : احرسنا من الشيطان ومن شرور أنفسنا حتى لا نزيغ .

ومجمل القول : ان أولئك الراسخون فى العلم مع اعترافهم بالإيمان بالمتشابه يطلعون إلى الله ان يحفظهم من الزيغ بعد الهداية ، ويهبهم الثبات على معرفة الحقيقة ، والاستقامة على الطريق فهم يعرفون ضعف البشر ، وكونهم عرضة للتقلب والنسيان والذهول ، فينافون أن يقعوا فى الخطأ ، والخطأ قرين بالخطر.

ويقول الله تعالى فى معنى الرحمة ؛ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾ [سورة هود:٩].

يعنى اذا انعمنا على الإنسان بأنواع النعم من الصحة والأمن ، والرزق ، وغيرها من النعم فاذا ما سلبناه تلك النعم فاذا هو بؤس قنوط من رحمة الله .

ومن معانى الرحمة ما يسجله القرآن الكريم فى قوله تعالى ؛﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾

والمعنى ولئن اعطينا الانسان نوعاً من أنواع النعم كرفاء عيش وبسطة رزق ، وصحة وامن ، وولد بار، رحمة مبتدأة منا اذقناه لذتها فكان شديد الاغتباط بها ، ثم سلبنا ذلك بما يحدث من الأسباب التى قدرها الله تعالى في الخليقة مثل المرض، والموت والعسر

إنه ليظل في هذه الحال شديد اليأس من الرحمة ، قاطعاً للرجاء من عود تلك النعمة ، كثير الكفران لغيرها من النعم التى لا يزال يتمتع بها فضلا عما سلف منها ، انه يجمع بين اليأس بعودة ما وقع منه والكفر بما يقر له لحرمانه من فضيلتى الصبر والشكر.

و" الاذاقة " هنا معناها الاعطاء القليل .

ومن معانى الرحمة فى القرآن الكريم قول الحق سبحانه :- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة الأنبياء:١٠٧].

والمعنى قد ارسل الله محمداً - ﷺ - رحمةً للعالمين من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء .

فالبشرية كلها قد تأرت بالمنهج الذى جاء به طائعة أوكارهة ، شاعرة أو غير شاعرة وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة لمن يريد ان يستظل بها ويستروح فيها نسائم السماء الرضية في هجير الأرض المحرقة وبخاصة فى هذه الأيام التى تهب علينا فيها الأعاصير الهوجاء حاملة تيارات الغزو الفكرى ، والثقافى من الشرق والغرب مستهدفة اسلامنا ، ونبينا ، وكتابنا ، وليس أدل على ذلك من الهجمات الشرسة العدوانية التى تشنها هذه البلاد مثل " الدنمارك " حيث شنت هجوماً عنيفا وقاسياً على سيدنا محمد - ﷺ - كما هاجمت الإسلام في حملة شرسة ، ورسومات " كاريكاتيرية " تصف الإسلام بأنه دين الارهاب ، بينما الإسلام هو دين العدالة ، ودين الرفق ، ودين الرحمة بين جميع الناس ، ولكل العالمين .

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [سورة الأنبياء:١٠٧]. وان إنسانية اليوم في مسيس الحاجة إلى هذه الرحمة ، والتراحم فيما بينها ، خاصة ذلم العَالَمْ الشارد في متاهات المادة ، ونار الحروب ، وجفاف الأرواح ، وقسوة القلوب .

ويمضى القرآن في الحث على الأخلاق الفضيلة ، والخِلاَل العظيمة والخصال الحميدة فيقول سبحانه : ﴿ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة التوبة:٦١].

كان المنافقون أو جماعة منهم يؤذون رسول الله- ﷺ - ويعيبونه ويقولون هو "اذن سامعه " أى يسمع من كل احد ما يقوله ، وَيَقْبَلَهَ ويصدقه ، وهم يريدون بذلك أنه سليم القلب ، سريع الاغترار بكل مايسمع دون أن يتدبر فيه ، ويميز بين ما هوجدير بالقبول لوجود أمارات الصدق فيه ، وما لا ينبغى قبوله وهذا عيب في الملوك والرؤساء لما يترتب عليه من تقريب المنافقين وأبعاد الناصحين ، وإنما قالوا ذلك لأنه كان- عليه الصلاة والسلام – يعاملهم باحكام الشريعة ، كما يعامل عامة المؤمنين بالبناء على الظاهر، فظنوا انه يصدق كل ما يقال له فيقول لهم القرآن : نعم انه أُذن ، ولكنه نعم الأُذن لأنه أُذن خير لا كما تزعمون ، فهو لا يقبل مما يسمعه إلاَّ ما يعتقد انه الحق ، وما فيه مصلحة الخلق ، وليس باذن في سماع الباطل مثل الكذب ، والنميمة ، والجدل ، والمراء واذا سمعه من غير أن يستمع إليه لا يقبله ، ولا يصدقه ما لا يجوز تصديقه ، كما هوشأن الملوك

والزعماء الذين يتقرب إليهم أهل الأهواء ، وذلك بالسعاية لإبعاد الناصحين المخلصين عنهم ، وحملهم على إيذاء من يبتغون ايذاءه،ثم يُبّين الله– عز وجل – المراد من أُذن الخير فقال يصدق بالله ، وبما يوحى اليه مما فيه خيركم وخير غيركم ويصدق المؤمنين الصادقى الإيمان من المهاجرين والأنصار– رضى الله عنهم – وذلك لما علمهم من ثبات العقيدة ، وصدق ايمانهم الذى يحتم عليهم أن يصدقوا النبى – ﷺ – فيما يحدثوه به ، كما أنه رحمة للذين آمنوا منكم ، إيمانا صحيحاً ، صادقاً إذ كان سبب هدايتهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وليس من أظهر الإسلام وأبطن الكفر نفاقا إذ هونقمة عليه في الدارين .

ومن الرحمة أيضا قوله تعالى :- ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الروم:٢١]

والمعنى ومن آياته الباهرة ، الدالة على عظمته ، وكمال قدرتة أن خلق أصلكم وهوآدم – عليه السلام – من تراب ثم أنتم تتطورون من نطفة إلى علقة ومن علقة إلى مضغة ، إلى بشر عقلاء تتصرفون فيما هوقوام معايشكم .

ويقول"ابن كثير":فسبحان من خلقهم وسيرهم وسخرهم ، وصرفهم في فتون المعايش والمكاسب،وفاوت بينهم في العلوم والفكر ، والحَسِن والقَبِيح ، والغنَى والفقير والسعادة والشقاوة .كما أن آياته العظيمة أن خلق لكم من جنس آخر يقول " ابن كثير " :

ولو أنه تعالى جعل الإنسان من جنس آخر ، من جان أوحيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل النفرة وذلك من تمام رحمته ببنى آدم ، لتميلوا إليهن ، وتألفوهن .

وجعل بين الأزواج والزوجات محبة وشفقة ، يقول " ابن عباس " : – رضى الله عنهما – المودة هى " حب الرجل امرأته ، والرحمة هى شفقته عليها ألاَّ يصيبها بسوء، أما فيما ذكر لعبد عظيم لقوم يتفكرون فى قدرة الله وعظمته فيدركون حكمته العليا . ومن معانى الرحمة في القرآن الكريم قوله تعالى : -﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الحُجُرات:١٠]

يعنى ليس المؤمنون إلاَّ إخوه تجمعهم رابطة الإيمان ، فلا ينبغى أن تكون بينهم عداوة ولا شحناء ، ولا بغضاء ، ولا تقاتل ، والتعبير بلفظه " إنما "هنا للحصر ، فكأنه يقول : " لا أخوه إلاَّ بين المؤمنين ، ولا أخوه بين مؤمن وكافر " ، وفي الآية إشارة إلى أن أخوه

الإسلام أقوى من أخوه النسب ، ودليل ذلك أن النبى- ﷺ - نسب " سلمان الفارسى " إلى آل بيته فقال – علية الصلاة والسلام – " سلمان من آل البيت " ولم ينسب عمه " ابا لهب " وقد قال شاعرهم :

لقد رفع الإسلام سلمان فارس   وحط بالشرك النسيب ابولهب

فأخوة النسب لا يُعْبَأ بها إذا خلت عن عن أخوة الإسلام ، فأصلحوا بين إخواتكم المؤمنين ، ولا تتركوا الفرقة تدب ، والبغضاء تعمل عملها ، واتقوا اللّه تعالى بإمتثال أوامره، وإجتناب نواهيه ، لتعمكم الرحمة ، وتنالكم المغفرة وتسعدوا بجنات عرضها السماوات والأرض ، كما أنكم تسعدون بمرضات اللّه – عز وجل – .

ويمضى القرآن الكريم في توجيهاته الراشدة ، وحكمه العالية وإرشاداته النافعة المبنية على الرحمة والمودة والصفاء ، فيقول تعالى : -﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الحديد:٢٧].

والمعنى ثم اتبعنا بعدهم برسلنا الكرام ، أرسلناهم رسولاً بعد رسول موسى، إلياس، يونس ...

وغيرهم وجعلناه بعد اؤلئك الرسل لأنه كان آخر الأنبياء من بنى إسرائيل يعنى سيدنا عيسى- عليه السلام- وأنزلنا عليه الانجيل الذى فيه البشارة بـ " محمد " – ﷺ – وجعلنا فى قلوب أتباعه الحواريين الشفقة والرحمة والرأفة ، واللين .

يقول صاحب التسهيل :" هذا ثناء من اللّه عليهم بتحيتهم بعضهم في بعض ، كما وصف تعالى أصحاب محمد – ﷺ – بأنهم " رحماء بينهم " أما الرهبانية التى ابتدعها القسس والرهبان وأحرثوها من تلقاء أنفسهم ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها .

يقول " أبوحيان " : والرهبانية هى رفض النساء ، وشهوات الدنيا واتخاذ الصوامع، وقد أحدثوها من عند أنفسهم ، وما كتبناها عليهم ، وما أمرناهم الا بما يرضى اللّه ، والاستثناء هنا منقطع ، والمعنى وما كتبنا عليهم الرهبانية ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم ابتغاء رضوان اللّه فما قاموا بها حق القيام ولا حافظوا عليها كما ينبغى .

يقول **"ابن كثير"**:- وهذا ذم لهم من وجهين ، أحدهما الابتداع في دين اللّه ما لم يأمر به اللّه والثانى في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة تقربهم إلى اللّه – عز وجل – .

وفي الحديث " لكل أمة رهبانية ، ورهبانية أمتى الجهاد في سبيل اللّه" فأعطينا

الصالحين من أتباع عيسى- عليه السلام- الذين يثبتوا على العهد وآمنوا بمحمد- ﷺ- ثوابهم مضاعفاً ، وكثير من النصارى خارجون عن حدود الطاعة ، منتهكون لمحارم الله مثل قوله تعالى :﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة التوبة:٣٤] ومن بين الآيات القرآنية الكريمة التى تحض على الأخلاق المتمثلة في الرحمة قول الحق -سبحانه وتعالى:﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ [سورة البلد:١٧] والمعنى ثم كان من الذين عملوا هذه القربات لوجه الله تعالى ، وكان مع ذلك مؤمنا صادق الإيمان ، وفي الآية إشارة إلى أن هذه القرب والطاعات لا تنفع الا مع الإيمان وأوصى بعضهم بعضا بالصبر على الإيمان ، وطاعة الرحمن وبالرحمة والشفقة على الضعفاء والمساكين .

ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " في ظلاله " و" ثم " هنا ليست للتراضى الزمنى وإنما للتراضى المعنوى ، باعتيار هذه الخطوة هى الأشمل والأوسع نطاقاً ، والأعلى أُفقاً ، والا فما ينفع فك رقاب ، ولا إطعام طعام بلا إيمان ، فالإيمان مفروض وقوعه قبل فك الرقاب ، وإطعام الطعام ، وهوالذى يجعل للعمل الصالح وزناً في ميزان الله ، لأنه يصله بمنهج ثابت مطرد . فلا يكون الخير فلتة عارضة ترضيةً لمزاج متقلب ، أو ابتغاء مَحْمَدَةٍ من البيئة أومصلحة .(١)

1- التفسير .
- مختصر ابن كثير جـ٣ ، ص ٥٢ الكبير للرازى ، ص ٢٠ ، ص ١٧٥.
- القرطبى جـ ١٠ ، ص ٢٥٢ .
- الطبرى جـ ٢١ ، ص ٢٢٢.
- البحر المحيط جـ٧ ، ص ١٦٨.
- الكشاف جـ٣ ، ص ٤٣٠ .
- زاد المسير جـ٦ ، ٣٩٣.
- حاشية الصاوى ، جـ٣ ، ص ٢٨١.
- تفسير المراغى جـ ٧ ، ص ١٤٦ وما بعدها ، جـ ١ ، ص ١٠٢ و ما بعدها .
- صفوة التفاسير .
- الجلالين جـ ٤ ، ص ١٧٦.
- البيضاوى جـ٣ ، ص ١٤٦.
- تفسير ابن كثير .
- روح المعانى للالوسى .
- فى ظلال القرآن جـ٥،ص٢٤٠٢ وما بعدها.جـ١، ص ٣٧٠ وما بعدها.وجـ٦،ص٣٩١٣ وما بعدها
- مفاتيح الغيب جـ ٤ . ص ٩٩ وما بعدها .
- لطائف الاشارات للقشيرى جـ ١ ، ص ٢٢٠ وما بعدها .

وكما قال سبحانه ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [سورة البلد: من ١٣-١٧]

فَثُم هنا لإفادة معنى الفضل والعفو. والصبر هوالعنصر الضرورى للإيمان بصفة عامة ، ولإقتحام العقبة بصفة خاصة ، والتواصى به يعزز درجة الصبر ذاته وهى درجة تماسك الجماعة المؤمنة ، وتواصيها على معنى الصبر وتعاونها على تكاليف الإيمان . فهى أعضاء متجاوبة الحس ، تشعر جميعا شعورا واحدا بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض ، وحمل تكاليفه فيوصى بعضها بعضا بالصبر على العبء المشترك ، ويثبت بعضها بعضا فلا تتخاذل ، ويقوى بعضها بعضا فلا تنهزم ، وهذا أمر غير الصبر الفردى وإن يكن قائما على الصبر الفردى ، وهوإيحاء بواجب المؤمن فى الجماعة المؤمنة ، وهو ألا يكون عنصر تخذيل ، بل عنصر تثبيت ، و لا يكون داعية هزيمة ، بل داعية اقتحام ، ولا يكون مثار جزع ، بل مهبط طمأنينة . وكذلك التواصى بالمرحمة ، فهوأمر زائد على الرحمة إنه إشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصى به والتحاض عليه ، واتخاذه واجباً جماعياً فرديا في الوقت ذاته يتعارف عليه ، ويتعاون عليه الجميع .

فمعنى الجماعة قائم في هذا التوجيه وهو المعنى الذى يبرزه القرآن الكريم ، كما تبرزه أحاديث رسول الله - ﷺ - .

لأهميته فى تحقيق حقيقة هذا الدين ، فهودين جماعة ، ومنهج أمة مع وضوح التبعة الفردية ، والحساب الفردى فيه وضوحاً كاملاً . أولئك أصحاب الذين يقتحمون العقبة ، كما وصفها القرآن وحدودها " أولئك أصحاب الميمنة "وهم أصحاب اليمين كما جاء في مواضع أُخرى ، أو أنهم أصحاب اليمين والحظ والسعادة ، وكلا المَعْنَيَين متصل في المفهوم الايمانى .

ومجمل القول أن الإسلام يأمر بالرحمة ، والتراحم ، وهو خلق القرآن الكريم الذى يوجه المسلمين إلى التراحم فيما بينهم فالرحمة كمال في الطبيعة يجعل المرء يرق لآلام الخلق ، ويسعى لإزالتها ، ولاييأس لأخطائهم فيتمنى لهم الهدى ، هى كمال في الطبيعة حيث إن تبلد الإحساس يهوى بالإنسان إلى منزلة الحيوان ، ويسلبه أفضل ما فيه وهوالعاطفة الحية النابضة بالحب والرأفة ، بل إن الحيوان قد تجيش فيه مشاعر مبهمة تعطفه على ذراريه ، ومن ثم كانت القسوة ارتكاساً بالفطرة إلى منزلة البهائم ، بل إلى منازل الجماد الذى لا يعى ولا يهتز .

ولقد وصف أمير الشعراء " احمد شوقى " رسول الله - ﷺ - بالرحمة فقال :

وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان فى الدنيا هم الرحُماء

ويقول الحق سبحانه : ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [سورة الكهف:١٠]

والمعنى واذكر حين لجأ الشبان إلى الغر وجعلوه مأواهم فقالوا ربنا أعطنا من خزائن رحمتك مغفرة ورزقا وأصلح أمرنا وأجعلنا من الراشدين المهتدين .

ويقول الحق سبحانه : ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [سورة الكهف:١٦]

يعنى وإذا اعتزلتم أيها الفتية قومكم وما يعبدون من الأوثان فالتجؤا إلى الكهف يبسط لكم ربكم ويوسع عليكم رحمته ويسهل عليكم أسباب الرزق وما تحتاجون إليه من غِداء وعشاء فى الغار.

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الكهف:٥٨]

والمعنى ، وربك يا محمد- ﷺ - واسع المغفرة ، عظيم الرحمة بالعباد مع تقصيرهم وعصيانهم وتمردهم ولو أنه يعاقبهم بما اجترحوا من سيئات ، وارتكبوا من مناكر لعجل لهم العذاب في الدنيا ولكنه- سبحانه وتعالى- يؤخرهم عنهم العذاب الذى يستعجلونه به رحمة بهم وقد جرت سُنة الله تعالى أن يمهل الظالم لكنه لا يهمله ، حيث إن لهم وعداً آخر في القيامة يرون فيه الاهوال ولن يجدوا لهم فيه ملجأ ولا منجى .

ويقول- سبحانه وتعالى- :﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الكهف:٨٢]

والمعنى ، وأما الجدار الذى بنته دون أجر قد خبئ تحته كنز من ذهب وفضة لفلاحين يتيمين فى المدينة وكان أبوهما صالحاً تقياً فحفظ الله لهما الكنز لصلاح أبيهما وقيل أنه الأب السابع وظاهر اللفظ أنه أبوهما مباشرة وهو الأرجح . فأراد الله أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار رحمة من الله بهما لصلاح أبيهما ما فعلت ذلك عن أمرى أى من أمرى ومن تلقاء نفسى بل هو بأمر الله وإلهامه .

ويمضى القرآن الكريم في الحث على الأخلاق الفاضلة ، والتمسك بها والسير على منوالها كى يسعد المسلم في دنياه ، ويفوز بالجنة في أُخراه فيقول الحق- سبحانه

وتعــــالى :-﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [سورة البقرة:٢٤٧]

وهنا تتكشف سِمَة من سمات بنى إسرائيل ، فقد كان مطلبهم أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه ، فلما جاءهم من يقاتلون تحت لوائه نكصوا على أعقابهم ، وجادلوا في اختيار الله لهم ، واستكبروا أن يكون طالوت الذى بعثه الله لهم مَلكاً عليهم ، لأنهم يرون أنهم أحق بالملك منه بالوراثة ، فلم يكن من نسل الملوك فيهم ، ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرر التغاضى عن أحقية الوراثة ، وكل هذا غبش فى التصور ، كما أنه من سمات بنى اسرائيل المعروفة . ولقد كشف لهم نبيهم عن أحقية الذاتية ، وعن حكمة الله في اختياره فقــــــال: " ....إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ...." [سورة البقرة:٢٤٧]

إنه رجل قد اختاره الله وزاده بَسطةً فى العلم والجسم ، والله يؤتى مُلكة من يشاء ، فهوملكه وهوصاحب التصرف فيه ، وهو يختار من عباده من يشاء والله واسع عليم ، ليس لفضله خازن ، وليس لعطائه حد ، وهوالذى يعلم الخير ويعلم كيف توضع الأمور في مواضعها . وهى أمور من شأنها أن تصحح التصور المشوش ، وأن تجلوعنه الغبش ، بيد أن طبيعة بنى اسرائيل ونبيها يعرفها لا يمكن أن تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها ، وهم مقبلون على معركة ولابد لهم من أمر خارق للعادة ، وظاهرة تهز قلوبهم ، وتردها إلى الثقة واليقين . ولما أعترض بنو اسرائيل على رياسة وإمارة طالوت يبين الله تعالى لهم أن السبب في اختياره هو:

أولا : العلم ، ليتمكن بوساطته من معرفة أمور السياسة .

ثانيـــا : قوة البدن ، وذلك ليعظم خطره في القلوب ، ويكون في وسعه ومكنته مقاومة الأعداء ، ومكابدة الشدائد . وقد خصه الله – سبحانه وتعالى – منهما بحظ وافر.

يقول " ابن كثير" : - رحمه الله تعالى – " ومن هنا ينبغى أن يكون الملك ذا علم ، وشكل حسن ، وقوة شديدة في بدنه ونفسة ، والله يعطى الملك لمن يشاء من عباده من غير إرث أومال ، والله واسع الفضل ، عليم من هو أهل فيعطيه إياه ولذلك لما طلبوا آية تدل على اصطفاء الله له أجابهم الله تعالى إلى ذلك فقال – سبحانه وتعالى :-

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [سورة البقرة:٢٤٨]

فعلامة اختياره عليكم هو أن يرد الله إليكم التابوت الذى أخذ منكم ويقول " الزمخشرى " :- هوصندوق التوراة الذى كان موسى – عليه السلام – إذا قاتل قدمه فكانت تسكن نفوس بنى اسرائيل ولا يفروا " . ففى التابوت السكون والطمأنينة ، والوقار ، وفيه أيضاً بقيةً من آثار آل موسى وهارون وهى " عصا موسى وثيلبهم ، وبعض الألواح التى كتب فيها " التوراة " تحملة الملائكة .

يقول " ابن عباس " – رضى الله عنهما :-" جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدى طالوت والناس ينظرون .

إن في هذا الأمر وهو نزول التابوت بين يدى " طالوت " لعلامة وأمارة ودليل واضح جلى على أن الله – سبحانه وتعالى – اختاره ليكون ملكاً عليهم إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر . ويقول صاحب لطائف الاشارات إنهم نسوا حق الاختيار فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فاستبعدوا أن يكون طالوت ملكاً لأنه كان فقيراً لا مال له ، فبين لهم أن الفضيله باختيار الحق ، وأنه وإن عدم المال فقد زاده الله علما ففضلكم بعلمه وجسمه ، وقيل : أراد أنه محمود خصال النفس ولم يرد عظيم البنية فإن في المثل " فلان اسم بلا جسم " يعنى " ذكر بلا معنى وأن الله تعالى إذا أظهر نوراً أمده بتأييد من قِبَلِهِ ، فلما ملك طالوت عليهم أزال الإشكال عن صفته بما أظهر من آياته الداله على صدق قول نبيهم فى اختياره فرد عليهم التابوت الذى فيه السكينة ، فاتضحت لهم آية ملكه وأن نبيهم – عليه السلام – صدقهم فيما أخبرهم . ويقول الأستاذ " أحمد مصطفى المراغى " في تفسيره المعروف : " روى في أخبار بنى اسرائيل أن الاسرائليين في الزمن الذى بعث فيه " صموئيل " نبياً لهم ، كانوا قد انحرفوا عن شريعتهم ، وعبدوا الأصنام والأوثان وضعفت فيهم الرابطة الدينية ، فسلط الله عليهم أهل فلسطين ، فأنتخثوهم وقتلوا منهم العدد الكثير، وأخذوا تابوت عهد الرب ، وكانوا من قبل يستفتحون به ، يعنى " يطلبون الفتح والنصر به " على أعدائهم ففترت همتهم ، واستكانوا وذلوا ، ولم يكن لهم إلى ذلك العهد ملوك بل رؤساؤهم وقضاتهم رجال الدين ، ومن بينهم أنبياؤهم ومن هؤلاء " صموئيل " فقد كان قاضياً ، ولما كبرت سنه جعل بينه قضاة ، فكانوا قضاة الجور ، وأكلة " الرشا " فاجتمع شيوخ بنى إسرائيل الذين عبر عنهم القرآن " بالملأ " وطلبوا من " صموئيل " أن

يختار لهم ملكاً يحكم فيهم كبقية الشعوب الأخرى ، فحذرهم ، وأنذرهم ظلم الملوك ، واستعبادهم للامم فألحوا ، فألهمه الله أن يختار لهم " شاول " ملكا ، فقالوا : كيف يملك علينا ، وهولا يستحق هذا التملك ؟ لأنه هناك من هوأحق به منه ، ولأنه لا يوجد لديه ما يتوقف عليه الملك وهم " المال " ولأنه ليس من سلائل الملوك ، ولا من سلائل النبوة ، وقد كان الملك في سبط " يهوذا ابن يعقوب "لا يتجاوزه إلى غيره ومنهم " داود وسليمان " – عليهما السلام – وكانت النبوة في سبط " لآل بن يعقوب " ومنه " موسى وهارون " وقد جرت العادة عند الناس أن الملك لابد أن يكون وارثاً للملك أو ذا نسب شريف يسهل على عظماء الناس أن يخضعوا له ، أن يكون ذا مال كثير يدير به الملك ، ولا يأبهون بمعارفه وصفاته الذاتية وفضائله وأخلاقه . من أجل هذا بين الله فيما حكاه عن نبيه خطأ هؤلاء القوم في زعمهم أن الملك لا يستحق إلا بالنسب ، وسعة المال فقال تعالى:- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [سورة البقرة:٢٤٨]

يعنى إن الله اختاره ملكا عليكم لما فيه من المزايا الآتية :-

أولا : الاستعداد الفطرى ، وهوفى المنزلة الأولى من الأهمية ومن ثم قدمه .

ثانيا : السعَه فى العلم الذى يكون به التدبير ، ومعرفة مواطن ضعف الأُمة وقوتها ، وجودة الفكر فى تدبير شؤونها .

ثالثا : بسطة الجسم ، وكمال قواه المستلزمة لصحة الفكر ، فقد جاء في أمثالهم " العقل السليم فى الجسم السليم " وللشجاعة، القدرة على المدافعة والهيبة والوقار .

رابعا : توفيق الله تعالى له بتسخير الأسباب التى لا عمل له فيها وهذا ما عناه – سبحانه وتعالى - بقوله " والله يؤتى ملكه من يشاء " أما المال فليس بلازم في تأسيس الملك ، لأنه متى وجدت الأسباب سهل على صاحبها إيجاد المال اللازم لتدبير الملك ، فكم في الناس من أسس دولة وهو فقير أُمى ، وكان استعداده ومعرفته بحال الأمة التى سادها كافياً في الاستيلاء عليها ، واستعانته بأهل العلم والشجاعة كافياً في تمكين سلطته فيها . " والله واسع عليم " أى والله واسع التصرف والقدرة ، إذا شاء أمراً اقتضته حكمته في نظام الخليفة فإنه يقع لا محالة ، عليم بوجود الحكمة فهو يضع لهم مِنَ السُنَن والنظم ما هوفى منتهى الإبداع والإتقان ، وليس فى الإمكان أبدع مما كان .

هذه هى الأخلاق في القرآن الكريم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فلوأن الناس تمسكوا بإسلامهم وسنة نبيهم ، وقرآن ربهم لسعدوا في الحياة الدنيا ، وفازوا برضوان الله تعالى في الدار الآخرة [(١)].

ومن الأخلاق في القرآن الكريم،ما تقصه علينا هذه الآية وهى قوله تعالى :﴿.....وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [سورة آل عمران:٨]

يقول " الامام القرطبى ":-

" وهب لنا من عندك ، ومن قبلك تفضلاً عن سبب منا ، ولا عمل وفى هذا إستسلام وتطارح ، يعنى وهب لنا نعيماً صادراً عن الرحمة لأن الرحمة راجعه إلى صفة الذات فلا يتصور فيها الهبة .

وفي الكشاف " وهب لنا من لدنك رحمة يعنى وأعلم أن تطهير القلب عما لا ينبغى مقدم على تنويرة بما ينبغى فهؤلاء المؤمنون سألوا ربهم أولاً ألا يجعل قلوبهم مائلة إلى الباطل ، والعقائد الفاسدة ، ثم إنهم أتبعوا ذلك بأن طلبوا من ربهم أن ينور قلوبهم بأنوار المعرفة وجوارحهم وأعضاءهم بزينه الطاعة ، وإنما قال " رَحْمَةً " ليكون ذلك شاملاً لجميع أنواع الرحمة ، فأولها أن يحصل فى القلب نور الإيمان ، والتوحيد والمعرفة .

وثانيها : أن يحصل في الجوارح والأعضاء نور الطاعة ، والعبودية والخدمة .

وثالثها : أن يحصل في الدنيا سهولة أسباب المعيشة من الأمن والصحة والكفاية .

ورابعها : أن يحصل عند الموت سهولة سكرات الموت .

وخامسها : أن يحصل في القبر سهولة السؤال وسهولة ظلمة القبر .

وسادسها : أن يحصل في القيامة سهولة العقاب ، والخطاب وغفران السيئات وترجيح الحسنات بقوله تعالى : " مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً " يتناول جميع هذه الأقسام ولما ثبت بالبراهين الباهرة ، الكاهرة أنه لا رحيم إلا هو ولا كريم إلاَّ هو لا جرم أكد ذلك بقوله تعالى : " مِن لَّدُنكَ " تنبيها للعقل والقلب والروح على أن المقصود لا يحصل الا منه سبحانه ، ولما كان هذا المطلوب في غاية العظمة بالنسبة إلى العبد لا

1- تفسير المراغى جـ ١ ، ص ٢١٤ إلى ص ٢١٨.
- لطائف الاشارات للقشيرى جأ ١ ، ص ١٩١ ، ص ١٩٢ .
- فى ظلال القرآن جـ ١ ، ص ٢٦٧ ، ص ٢٦٨ .
- القرطبى جـ ٣ ، ص ٢٤٥ .
- مختصر ابن كثير جـ ١ ، ص ٢٣٤ .
- تفسير القرطبى جـ ٢ ، ص ١٠٥٥ إلى ص ١٠٥٨ .

جرم ذكرها على سبيل التنكير، كأنه يقول " أطلب رحمة وآية رحمة ، أطلب رحمة من لدنك ، وتليق بك وذلك يوجب غاية العظمة ، ثم يقول تعالى: " **إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ** "كأن العبد يقول : "إلهى هذا الذى طلبته منك فى هذا الدعاء عظيم بالنسبة إلى كمال كرمك وغاية جودك ورحمتك ، فأنت الوهاب الذى من هبتك حصلت حقائق الاشياء وأدواتها ، وماهياتها ، ووجودها ، فكل ما من سواك فمن جودك ، واحسانك وكرمك ، يا دائم المعروف ويا قديم الإحسان لا تخيب رجاء هذا المسكين ، ولا ترد دعاءه ، واجعله بفضلك أهلا لرحمتك يا أرحم الراحمين ويا أكرم الأكرمين .

" العلم "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة قوله تعالى : ﴿......وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [سورة آل عمران:٧]

والمعنى ، لا يعلم تفسير المتشابه ومعناه الحقيقى إلاَّ اللّٰه ووحده والثابتون المتمكنون من العلم يؤمنون بالمتشابه وأنه من عند اللّٰه ، وكل من المتشابه والمحكم حق وصدق لأنه كلام اللّٰه وما يتعظ ويتدبر الا أصحاب العقول السليمة المستنيرة .

ويقول صاحب التفسير الكبير : " يكون العلم بالمتشابه حاصلاً عند اللّٰه تعالى وعند الراسخين في العلم ، وهذا القول مروى عن " ابن عباس " ومجاهد والربيع وأكثر المتكلمين ، والراسخ فى العلم هوالذى عرف ذات اللّٰه وصفاته بالدلائل اليقينية القطعية وعرف أن القرآن كلام اللّٰه تعالى بالدلائل اليقينية فإذا رأى شيئاً متشابهاً ودل القطعى على أن الظاهر ليس مراد اللّٰه تعالى علم حينئذ قطعاً أن مراد اللّٰه شيئاً آخر سوى ما دل عليه ظاهره ، وأن مراد ذلك اللّٰه حق ، ولا يصير كون ظاهره مردوداً سببه في الطعن في صحة القرآن ، وكل من المحكم والمتشابه من عند ربنا ، وذكر كلمة " عند " لمزيد التأكيد .

" وما يذكر إلا أولوا الألباب " هو ثناء من اللّٰه تعالى على الذين قالوا " ءَامَنَّا بِهِۦ " ومعناه ، وما يتعظ بما في القرآن إلاَّ ذُوا العقول الكاملة فصار هذا اللفظ كالدلالة على أنهم يستعملون عقولهم في فهم القرآن ، فيعملون الذى يطابق ظاهره دلائل العقول فيكون مُحْكَماً ، وأما الذى يخالف ظاهره دلائل العقول فيكون متشابهاً ثم يعلمون أن لكل كلام من لا يجوز في كلامه التناقض والباطل ، فيعلمون أن ذلك المتشابه لابد أن يكون له معنى صحيح عند اللّٰه تعالى ، وهذه الآية دليل على علو شأن المتكالمين الذين يبحثون عن الدلائل العقلية ، ويتوسلون بها إلى معرفة ذات اللّٰه ، وصفاته وأفعاله ، ولا يفسرون القرآن إلاَّ بما يطابق دلائل العقول ويوافق اللغة والإعراب والشيء كلما كان أشرف كان ضده أخس ، فكذلك يفسر القرآن متى كان موصوفاً بهذه الصفة ، كانت درجته هذه الدرجة العظمى التى عظم بها اللّٰه الثناء عليه ،ومتى تكلم في القرآن من غير أن يكون متبحراً في علم الأصول وفي علم اللغة والنحوكان في غاية البعد عن اللّٰه،ولهذا قال النبى - ﷺ - :

" من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار . "

وقد حس عليهم الكتاب ، فمن ظاهر واضح تنزيله ، ومن غامض شكل تأويله ، فالقسم الأول لبسط الشرع واهتداء أهل الظاهر ، والقسم الثانى لصيانة الأسرار عن اطلاع

الأجانب عليها ، فسبيل العلماء الرسوخ في طليق معناه على ما يوافق الأصول ، فما حصل عليه الموقوف فمقابل بالقبول ، وما امتنع من التأثر فيه بمعلول الفكر سلموه إلى عالم الغيب ، وسبيل أهل الإشارة والفهم إلقاء السمع بحضور القلب فما سنح لمفهومهم من لوائح التعريفات بنوا عليه إشارات الكشف وذلك إن طولبوا باستدامة الستر ، وطي السر تخارسوا عن النطق ، وإن أمروا بالإظهار والنشر أطلقوا بيان الحق ونطقوا عن تعريفات الغيبة ، فأما الذين أبدوا بأنوار البصائر فهم مستضيئون بشعاع شموس الفهم ، وأما الذين ألبسوا غطاء الريب ، وخرموا لطائف التحقيق فنقسم بهم الأحوال وتترجم بهم الظنون ويطيحون في أودية الريب والتلبيب فلا يزدادون إلاَّ جهلاً على جهل ، ونفورا على شك ، ومن وجد علم من الله فيكون ايمانهم بلا احتمال جولان خواطر التجويز ، بل عن صريح الظهور ، وصفاء اليقين وأما أصحاب العقول الصاحية ففى صحبة التذكر لظهور البراهين ويفهم من ذلك أن المتعرض لتفسير القرآن الكريم أن يكون متحصناً بالعلوم ، والمعارف ، والفطانة ، والتروى والعقل الناضج ولذلك لا يعلم تفسيره الحقيقى ، ومقصودة ، وهدفه ، ومرماه إلا الله- سبحانه وتعالى- والراسخون بالعلم ، وكله من عند الله ، وما يتدبر ذلك إلاَّ أصحاب العقول الواعية ، والفكر السليم والقلوب الطاهرة مع الصفاء والنقاء ، والابتهال إلى الله-عز وجل- والانقطاع له ، وهذا يحيى الفكر والفهم والتوفيق ، والهداية إلى تفسير كتاب الله- عز وجل- ، وفهم دقائقة (1) .

ويكرم القرآن الكريم العلماء ، وطبيعة الإسلام تفرض على الأمة التى تعتنقه أن تكون أمة متعلمة ، ترتفع فيها نسبة المثقفين ، وتهبط أوتنعدم فيها نسبة الجاهلين ، لأن حقائق هذا الدين من أصول وفروع ليست طقوساً تنتقل بالوراثة ، أو تعاويذ تضيع بالإيحاء، وتنتشر بالأيهام ، بل هى حقائق تستخرج من كتاب حكيم ، ومن سنة واعية – صلى الله على صاحبها – وسبيل استخراجها لا يتوقف على القراءة المجردة ، بل لابد من أمة تتوافر فيها العقول الذكية والأساليب العالية ، والآداب الكريمة ، ولا ريب أن مدارسة مناهج الإسلام تخلق في أى أمة تعنى بها جواً من الفقه التشريعى القائم على الاوامر والنواهى ، يعنى الحقوق والواجبات ، وجوا من الآداب الإجتماعية الدقيقة المتعلقة

1- لطائف الاشارات جـ ١ ، ص ٢٢٠ وما بعدها .
- القرطبى جـ ٢ ، ص ١٢٥٨ ، وما بعدها .
- مفاتيح الغيب جـ ٤ ، ص ٩٧ ، وما بعدها .
- تلخيص البيان جـ ١٧ .
- تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير جـ ١ ، ص ٣٤٤ ، وما بعدها .

بقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجوا من البحث الصحيح والاجتهاد المخلص لمد رواق الإسلام على ما تفديه العصور من أقضية شتى وشئون متجددة فإذا قَلْتْ هذه العناصر في بيئة ما اضمحل أمر الإسلام، وذليل اغصانه، كما تبلى الشجرة، الباسقة المرتفعة فى أرض ذهب خصبها، وجف ماؤها إن العلم للإسلام كالحياة للإنسان، ولن يجد هذا الدين مستقراً له إلاَّ عند أصحاب المعارف الناضجة، والألباب الحصينة، يقول الله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة إبراهيم:٥٢] ويصور أحاديث أهل جهنم فيقول: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [سورة المُلك:١٠] ويقول القرآن الكريم فى الذين طمست مشاعرهم، وماتت مواهبهم واستغلقت أذهانهم: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [سورة البقرة:١٧١]

لذلك يقول الله — عز وجل:- ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [سورة آل عمران:١٨]

وهى شهادة في معنى الإقرار فالكل عبيد له و" أُولوا العلم " هم الذين عرفوا وحدانيته بالادلة القاطعة.

ولذلك قال - ﷺ -:- " وإذا علمت مثل الشمس ذا شهد " وهذا يدل على أن هذه الدرجة العالية والمرئية الشريفة ليست إلاَّ لعلماء الأصول.

ويقول " سعيد بن جبير " كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فلما نزلت هذه الآية خررنا سجدا ".

ويقول " الكلبى " :لما ظهر رسول الله - ﷺ - بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان !.

فلما دخلا على النبي - ﷺ - عرفاه بالصفة والنعت.

فقالا له: أنت محمد ؟ قال (نعم).

قالا: وأنت أحمد ؟ قال: (نعم).

قالا: نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك.

فقال لهما رسول الله - ﷺ -: (سلاني).

فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله.

فأنزل الله تعالى على نبيه - صلى الله عليه وسلم - " شهد الله أنه لا إله إلا هووا لملائكة وأولوالعلم قائماً بالقسط " فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وقد قيل: إن المراد بأولى العلم الأنبياء عليهم السلام. وقال ابن كيسان: المهاجرون والأنصار.

وقال "مقاتل" : مؤمنوا أهل الكتاب .

وقال " السدى والكلبي " : المؤمنون كلهم ، وهوالأظهر لأنه عام. وما يؤسده ونميل إليه، والذى يتناسب مع فهم الآية الكريمة حيث قال الله تعالى : " وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ " وهى عامة. وليست خاصة بقوم بأعينهم ، إنما المراد العلماء في كل منهم ، وفي كل عصر من العصور ، وفي كل زمان ومكان وهوالأنسب للفهم ، المتزن المستقيم .

وفي هذه الآية دليل على فضل العلم ، وشرف العلماء ، فلوكان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه ، واسم ملائكته ،كما قرن اسم العلماء وقال الله تعالى :

" في شرف العلم لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ﴿..وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمًا﴾ [سورة طه:١١٤]ولوكان شيء أشرف من العلم لأمرالله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيد من العلم وقال - صلى الله عليه وسلم - " إنما العلماء ورثة الانبياء : " العلماء أمناء الله على خلقه " .

وهذا شرف عظيم للعلماء . وعن البراء قال : " قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

" العلماء ورثة الانبياء يحبهم أهل السماء ويستغفرلهم الحيتان في البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة " .

والعلماء على درجات ، فمن عالم وصفه فَنَــاْء وربانية ، وعالم يعرف احكام حلاله وحرامه ، وعالم يعلم أخباره وسنته وآثاره ، وعالم يعلم كتابه ويعرف تفسيره وتأويله ومحكمه وتنزيله ، وعالم يعلم صفاته ونعوته ويستقوى حجمه وتوجيه بحديث يخرجه ، وعالم لاطاقة حتى أحضره ثم كاشفه فقهره فالاسم باق ، والعين مَحْوٌ، والحكم طارق ، والعبد محق ، قال قائلهم :

بنوحق غــدوا بــالحق صِــرفاً فنعت الخلْــق فــيم هومــستورُ

ويقول " الزمخشرى " : شبهت دلالته على وحدانيته بشهادة الشاهد في البيان والكشف ، وشهدت الملائكة وأهل العلم بوحدانيته بدلائل خلقه وبديع صنعه .

ويقول " ابن كثير " :

" شهد تعالى وكفى به شهيداً وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم وأصدق القائلين { أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ } أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق وأن الجميع عبيده وخلقه وفقراء إليه وهو الغني عما سواه كما قال تعالى:

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ...﴾ [سورة النساء:١٦٦] ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال " شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ " وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام " .

إن أول ما نزل من آيات القرآن الكريم قوله -سبحانه وتعالى- : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [سورة العلق١:١٩]

وهذه اول صيحه تسموبقدر القلم ، وتنوه بقيمة العلم ، وتعلن الحرب على الأمية الغافلة والجهالة الجهلاء ، وتجعل اللبنة الأولى في بناء كل رجل عظيم أن يقرأ ، وأن يتعلم وسما الله- عز وجل- بدرجات العلماء حتى قرنهم بنفسه وملائكته فى الشهادة بوحدانيته والإقرار بعدالته ، كما ذكرناه فى الآية آنفة الذكر "

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [سورة آل عمران:١٨]

فأنى لمن يعيش على هامش الحياة بجهله أن يعرف الحق عن خالقه رب الحياة ، أوحتى يلمح طرفاً من صفات الله العظيمة ، وآياته الكبرى .

لذلك أعز الله تعالى العلماء ، وآثرهم بكرامته وفضله ، قال رسول الله- ﷺ - :

"يقول الله- عزوجل- للعلماء يوم القيامة ، إذا قعد على كرسيه للفصل بين العباد :

" إنى لم أجعل علمى ، وحلمى فيكم إلاَّ وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبُالى . " (١) .

1- رواه الطبرانى .

إن المعرفة الجيدة أسبق عند الله من العمل المضطرب ، ومن العبادة الجافة المشوبه بالجهل،والقصور،قال رسول الله – ﷺ –:" قليل العلم خير لكم من كثير العبادة " (١)

وقال – ﷺ –:" فضل العلم خير من فضل العبادة " (٢) .

وقال – ﷺ –:" أفضل العبادة الفقه " (٣) .

وقال – ﷺ –: " يا أبا ذر لأن تغدوتتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعه ، ولأن تغدوفتعلم بابا من العلم عمل به أولم يعمل به خير لك من أن تصلى ألف ركعة " (٤) .

ويقول – ﷺ –: " فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد " .

وروى عن رسول الله – ﷺ –أنه قال : " فضل العالم على العابد سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الفرس السريع المضمر مائة عام وذلك أن الشيطان يضع البدعة للناس فيبصرها العالم فينهى عنها والعابد مقبل على عبادته لا يتوجه لها ولا يعرفها ."(٥) .

وكل علم نافع للاسلام ، وأمته في شتى الفنون ، ومختلف المعارف سواء أكانت هذه العلوم دينية ، أوكونية ، أوفي الطاقة النووية ، أوفي التاريخ أوالجغرافيا ، أوفي علم النفس ، كل ما يخدم الإسلام ، ويأخذ بيد الأُمة إلى الرقى والحضارة والتمدن فهو علم ، ويثاب عليه مبتكره ومخترعه ، فأصل العلوم جميعاً هوالقرآن الكريم ، وما عداه أمتان وأغصان ، وفروع ، فكل علم نافع يعد علما .

وقال – ﷺ –: " إن الله وملائكته وأهل السماوات وأهل الأرض حتى النملة في حجرها ، وحتى الحوت في جوف البحر ليصلون على معلم الناس الخير " (٦) .

وحسبنا أن القرآن الكريم عندما فوه بفضل العلم وجلال العلماء إنما عنى بالعلماء الذين يعرفون عظمة الخالق من عظمة الخلق ، وإنما عنى العلم الذى ينشأ من النظر في النبات والحيوان وشئون الطبيعة الأخرى .

إن علوم الحياة مساويةً لعلوم الآخرة في خدمة الدين ، وتجلية حقائقه .

1- رواه الطبرانى .
2- رواه البذار .
3- رواة الطبرانى .
4- رواه ابن ماجة .
5- رواه الديلمى عن ابى هريرة .
6- رواة الترمزى .

ويقول الله-عز وجل-فى فضل العلم : ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾ [سورة النساء:١٦٢]

والمعنى : لكم المتمكنون في العلم والسابقون فيه مثل " عبد الله بن سلام وجماعته ", والمؤمنون من المهاجرين والانصار أصحاب النبى- ﷺ - من غير أهل الكتاب يؤمنون بما انزل اليك وما أُنزل من قبلك يعنى يؤمنون بالكتب والأنبياء جميعا ، ثم يمتدح الله – عز وجل- مقيموا الصلاة والمعطون زكاة اموالهم ، والمؤمنون بوحدانية الله ، وبالبعث بعد الموت هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الجليلة سنعطيهم ثواباً جزيلا على طاعتهم وهوالخلود في الجنة .

ويقــول الله تعــالى : ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [سورة الإسراء:١٠٧]

وهوخطاب للمشركين الذين اقترحوا المعجزات على وجه التهديد والوعيد يعنى آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا فإن ايمانكم به لا يزيده كمالا ، وتكذيبكم له لا يورثه نقصا والعلماء الذين قرأوا الكتب السالفة من صالحى أهل الكتاب إذا سمعوا القرآن تأثروا فَخَروا ساجدين لله رب العالمين .

والمعنى إن لم تؤمنوا به أنتم فقد آمن به من هو خير منكم واعلم ويقول الله – عز وجل- : ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ [سورة مريم:٤٣]

وقد كرر النصح باللطف ، ولم يصف اياه بالجهل الشنيع فى عبادته للأصنام وإنما ترفق ، وتلطف به كلامه يعنى جاءت من العلم بالله ومعرفة صفاته القدسية ما لا تعلمه انت فاقبل نصيحتى واطعنى أرشدك إلى طريق مستقيم فيه النجاة من المهالك وهودين الله الذى لا عوج فيه .

ويقول الحق-سبحانه وتعالى- : ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [سورة الحج:٥٤]

والمعنى ، وأهل العلم أن القرآن الكريم هو الحق النازل من عند الله تعالى فيؤمنوا بهذا القرآن فتخشع وتسكن له قلوب بخلاف من في قلبه مرض وإن الله مرشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم ، ومنقذهم من الضلالة والغواية ، وهاديهم إلى طريق الحق ، وهو طريق النجاح في الدنيا ، والفلاح في الدار الآخرة وبذلك يكون العالم سعيداً في دنياه ، فائزاً برضوان الله فى أخراه .

ويقول الحق-سبحانه وتعالى- في فضل العلم والعلماء :﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة النمل:٤٢]

والمعنى : أمثل هذا العرش الذى رأيته عرشك ؟ ولم يقل أهذا عرشك ؟ حتى لا يكون تلقينا لها ، فقالت كأنه هوأى شبيه له ، ومقارب ، ولم تقل " بلقيس " :

نعم هو، ولا ليس هو. يقول " ابن كثير " : " وهذا غاية في الزكاء والحزم .

وأُوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين هذا من قول سيدنا " سليمان " – عليه السلام– وقال ذلك تحدثاً بنعمة الله : لقد أُوتينا العلم من قبل هذه المرأة بالله ، وبقدرته وكنا مسلمين لله من قبلها فنحن أسبق منها علماً وإسلاماً .

ويقول الله- عز وجل-: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة العنكبوت:٤٩]

والمعنى : ليس الامر كما حسب الظالمون والمبطلون والمرتابون ، بل هوآيات واضحة الإعجاز، ساطعة الدلالة على أنها من عند الله محفوظةً في صدور العلماء ، ومن خصائص القرآن العظيم أن الله حفظه من التبديل والتغيير بطريقتين :

أولاهما : الحفظ في السطور.

ثانيهما : الحفظ في الصدور بخلاف غيره من الكتب فإنها مُسَطرة لديهم غير محفوظة في صدورهم،ولهذا دخلها التحريف وقد جاء في صفة هذه الأمة" أناجيلهم في صدورهم "

.

وقال الحسن " أعطيت هذه الأمة الحفظ "وكان من قبلها لا يقرأون كتابهم : لا نقرأ ، فإذا أطلقوا لم يحفظ ما فيه الا النبيون ، وما يكذب بها إلاَّ المتجاوزون الحد في الكفر والعناد وهم بذلك ظالمون لأنفسهم .

ويقول **"** القرطبى **"** : إتيان التابوت، والتابوت كان من شأنه فيما ذكر أنه أنزله الله على آدم عليه السلام، فكان عنده إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السلام، فكان في بنى إسرائيل يغلبون به من قاتلهم حتى عصوا فغلبوا على التابوت غلبهم عليه العمالقة: جالوت وأصحابه في قول السدى، وسلبوا التابوت منهم. وهذا أدل دليل على أن العصيان سبب الخذلان، وهذا بَيّنْ. قال النحاس: والآية في التابوت على ما روى أنه كان يسمع فيه أنين، فإذا سمعوا ذلك ساروا لحربهم،وإذا هدأ الأنين لم يسيروا ولم يسر التابوت .

وقيل: كانوا يضعونه في مأزق الحرب فلا تزال تغلب حتى عصوا فغلبوا وأخذ منهم التابوت وذل أمرهم، فلما رأوا آية الاصطلام ، وذهاب الذكر، أُنِفّ بعضهم وتكلموا في أمرهم حتى اجتمع ملؤهم أن قالوا لنبى الوقت" يعنى الذى كان في زمنهم " .

أبعث لنا ملكا، فلما قال لهم:ملككم طالوت راجعوه فيه كما أخبر الله عنهم، فلما قطعهم بالحجة سألوه البينة على ذلك، فلما سألوا نبيهم البينة على ما قال، دعا ربه فنزل بالقوم الذين أخذوا التابوت داءً بسببه . وهذا هوانتقام الله – سبحانه وتعالى – من العصاة فلا عقوبة إلاَّ بذنب ، وكان ما حل بهم جزاءً وفاقا .

ويمضى القرآن الكريم مبيناً فضل العلم والعلماء فيقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سورة سبأ:٦]

والمعنى : " ويعلم أولوا العلم من أصحاب النبى- ﷺ - ومن جاء بعدهم من العلماء العالمين الذين يعلمون أن هذا القرآن الذى أنزل عليك يامحمد- ﷺ - هوالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وهو حبل الله المتين من حكم به عدل ومن قال به صدق ، ومن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم . وهوأيضا يرشدنا إلى الحق كما يرشد الذين يتمسكون به إلى طريق الله – سبحانه وتعالى- وهوالطريق الغالب الذى لا يُقْهَر ، وهوالطريق المحمود ، والله-عز وجل -الحميد المحمود فى ذاته وصفاته وأفعاله .

ويبين الله-عز وجل- في القرآن الكريم درجة العلماء ، كما يبين أقدارهم عند الله – سبحانه وتعالى- فقال – سبحانه وتعالى- :﴿.....يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة المجادلة:١١]

والمعنى : يرفع الله المؤمنين بامتثال أوامره ، وأوامر رسوله- ﷺ - ، والعلماء منهم خاصةً أعلى المراتب ، ويمنحهم أعلى الدرجات الرفيعة في الجنة . يقول الصحابى الجليل "عبد الله بن مسعود " – رضى الله عنه – :"مدح الله العلماء في هذه الآية، ثم قال :

يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم فى العلم فإن الله تعالى يقول :

" يرفع الله العالم فوق المؤمن الذى ليس بعالم درجات " .

ويقول الامام الشهيد " سيد قطب " : " والعلم الذى يهذب النفوس ويهذب القلب فيتسع ويطيع ، يؤديان إلى الرفعة عند الله درجات " (١) .

1- فى ظلال القرآن الكريم جـ ٦ ، ص ٣٥١٢ ، بتصرف .



وفي مقابل لرفعة المكان الذى تطوعوا بتركه ورفعوا عنه لاعتبار رآه الرسول - ﷺ - . " والله بما تعملون خبير "

فالله يجزى عن علم ومعرفة بحقيقة ما تعملون ، وبما وراءه من شعور مكنون . وهكذا يتولى القرآن تربية النفوس وتهذيبها ، وتعليمها السماحة والطاعة ، فالدين تحول فى الشعور ، وحساسية فى الضمير.

ويقول " القرطبى " : " بين الله-عز وجل- في هذه الآية ان الرفعة عند الله بالعلم والإيمان ولا بالسبق الى صدور المجالس .

وفي الحديث " فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب " وعنه- ﷺ - يشفع يوم القيامة ثلاثة :

" الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء ، فأعظم بمنزلة هى واسطة بين النبوة والشهادة وذلك بشهادة رسول الله - ﷺ - . والله خبير بمن يستحق الفضل والثواب ممن لا يستحقه .

ويقول " ابن كثير " - رحمه الله تعالى - : " إن الله تعالى خبير بمن يستحق الاحترام والتكريم والتقدير وعلو الشأن والرفعة ، ومن لا يستحق ذلك .

ويروى أن " نافع بن عبد الحارث " – رضى الله عنه – لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟

قال: استخلفت عليهم ابن أبزي .

قال: وما ابن أبزي؟

فقال: رجل من موالينا.

فقال" عمر بن الخطاب ": استخلفت عليهم مولى؟.

فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاض. " يعنى هو قارئ للقرآن الكريم ، وعالم بعلم الميراث وهو المعنى بالفرائض ويحسن القصص في الوعظ والإرشاد ، يعنى يريد أن يقول هو من العلماء " .

فقال عمر، رضي الله عنه: أما إن نبيكم - ﷺ - قد قال: "إن الله يرفع بهذا الكتاب قومًا ويضع به آخرين" . ([1]) فالعلم نور، ونور الله لا يهدى للعصاة :

سألت وجيع سوء حفظ فارشدنى إلى ترك المعاصى

1- رواه مسلم من غير وجه وكتاب " العلم " من صحيح البخارى .



وأخبرنـــى بـــأن العلـــم نـــور ونـــور الله لا يهـــدى لعاصـــى

وسئل **"** الخليل بن احمد الفراهيدى **"** ؛ أيهما أفضل العلم ام المال ؟ فقال " الخليل بن احمد الفراهيدى " : العلم أفضل . قيل له فما بالنا نرى العلماء بزدحمون على أبواب الملوك ولا نرى الملوك يزدحمون على ابواب العلماء ؟

فقال " الخليل بن أحمد الفراهيدى " : لأن العلماء يعرفون حق الملوك والملوك يجهلون حق العلماء .

ثم أنشد قائلاً ؛

العلم يحيى قلوب الميتـــين كمـــا تحيا البلاد إذا ما مسها المطـــر

والعلـــم يجلـــى ســـواد القلـــوب كما يجلى سواد الظلمة القمـــر (١)

فانظر أيها الأخ المسلم ، والأُخت المسلمة كيف حث القرآن الكريم على طلب العلم؟وما أعده الله من جزاء في الدار الآخرة للعلماء ، وتكريم في الدنيا بأعلى المراتب وأشرف المناصب فالعلم سعادة في الدنيا ، وسعادة في الآخرة وشرف وتكريم عند الله ورسوله وعند الناس وصدق الله تعالى اذ يقول :﴿.... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .... ﴾ [سورة الزُّمَر:٩] ويمضى القرآن الكريم مبيناً كرامة العلماء ، ومقدارهم لدى خالقهم فيقول – سبحانه وتعالى- ﴿.....إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة فاطر:٢٨] والمعنى : إنما يخشاه – سبحانه وتعالى - العلماء ، وما ذلك إلاَّ لأنهم عرفوه حق المعرفة فعبدوه ، ووحدوه ، ورضوا به ربا ، وبمحمد – ﷺ – نبيناً ورسولا .

يقول**"ابن كثير"**:"إنما حق خشية"العلماء" العارفون به ، فكل من عرف الله فهوعالم . فكلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم ، والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر " .

هذه مكانه العلم والعلماء عند الله – سبحانه وتعالى- ولذلك عنى القرآن الكريم بالأخلاق ، وبين أنه لا يعقلها الا العالمون ، لذلك عندما كان العرب الجهلة يطوفون بالبيت عراة ، ويحرمون على أنفسهم ما أحله الله من الطيبات ، ومن التجمل بالثياب التى خلقها الله لهم للنفع والزينة ، والطيبات من المأكل والمشرب بين الله تعالى أنه لا يفقه ذلك الا من خصهم الله بالعلم ، وكرمهم بالفقه ، وهذبهم بالتعليم .

1- مجافى الأدب فى حدائق العرب ، للأب لويس شيخو عوض .

فقال – عز من قائل :- ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف:٣٢].

فهذه الطيبات للمؤمنين ، وإن شاركهم فيها الكافرون في الحياة الدنيا ولكنها ستكون خالصة وخاصة بهم يوم القيامة لا يشاركهم فيها أحد .

والسر في ذلك أن الله حرم المحبة على الكافرين فهى خاصة بالمؤمنين فحسب . وكذلك تبين وتوضح الآيات التشريعية لقوم يتدبرون حكمة الله ويفقهون تشريعه ، وفي هذا تكريم للعلماء ، وإعلاء لأقدارهم حيث خصهم الله – عز وجل – بفهم شريعته ، وأسرار كتابه الكريم وهوالقرآن العظيم " .

وفى تكريم وأفضلية العلم يقول الحق-سبحانه وتعالى -:﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة التوبة: ١١:١٢] والمعنى : أن الله -عزوجل- خص العلماء وهم أهل الفقه والفهم بايات كثيرة في كتابه الحكيم مبيناً أن العلماء هم المقصودون بهذا الخطاب لأنهم أهل له ولفهم غايته والحكمة منه ، فقال تعالى يبين الحجج والأدلة لأهل العلم والفهم: " ... وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ... "

وهذا البيان هو" فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة يعنى أعطوها فهم إخوانكم في الدين ، لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم .

وخص العلماء بفهم هذه الأمور ، وفقه تلك القضايا . وفي الآية الآتية ينبه الله تعالى على دلائل قدرته ، ووحدانيته ، وهوبقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهاج ، كما جعل القمر منيرا بالليل ، وهذا من كمال رحمته بالعباد ، ولما كانت الشمس أعظم جرما خصت بالضياء ، لأنه هوالذى له سطوع ولمعان .

يقول " الطبرى ":- " والمعنى : " أضاء الشمس ، وأنار القمر ، وقد سيره في منازل وهى " البروج " ذلك لتعلموا أيها الناس حساب الأوقات ، فبالشمس تعرف الأيام وبسير القمر تعرف الشهور والاعوام ، وما خلق الله ذلك عبثا ، بل لحكمة عظيمة وفائدة جليلة ، وذلك ليبين الآيات الكونية ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله ويتدبرون حكمته .

ويقول " ابوالسعود " : يعنى"يعلمون الحكمة في إبداع الكائنات ، فيستدلون بذلك على شئون مبعثها جل وعلا .

ويقول " صاحب اللطائف":أنوار العقول نجوم ، وهى للشياطين رجوم وللعلوم أقمار، وهى أنوار واستبصار، وللمعارف شموس،ولها على أسرار العارفين طلوع كما قيل: -

إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب

وكما أن في السماء كوكبين ، شمساً ، وقمراً أبدأ بضيائها ، والقمر في الزيادة والنقصان يستر بمحاقه ، ثم يكمل حتى يصير بدراً ثم يعود جديداً .

وكل ليلة يجد مزيداً ، فإذا صار بدراً تماماً ، ولم يجد أكثر من ليلة لكماله مقاماً ، ثم يأخذون في النقصان إلى أن يخفى شخصه ، ويتم نقصه . كذلك من الناس من هومترددين قبضه وبسطه ، وصحوه ومحوه ، وإيابه ، لا فناء فيستريح ، ولا بقاء له دوام صحيح .

وقيل :

كلما قلت قد دنا ل قيدى كبلونى فأوثقوا المسمارا

ويقول " ابن كثير " فى معنى هذه الآية :-" يخبرنا تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه أنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء ، وجعل شعاع القمر نوراً ، هذا فن ، وهذا فن آخر ففاوت بينهما لئلا يشتبها . وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل وقدر القمر منازل فأول ما يبدو صغيراً ، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره ، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر كقوله تعالى : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة يس:٣٩:٤٠] وقوله تعالى : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [سورة الرحمن:٥] وقوله في هذه الآية الكريمة : {وَقَدَّرَهُۥ} أي القمر { مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ } فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام . ﴿.... مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ..... ﴾ [سورة يونس:٥]أي لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة .

كقوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [سورة ص:٢٧]وقال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [سورة المؤمنون ١١٥:١١٦] وقوله : ﴿.... نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ .... ﴾ [سورة الأنعام:٥٥]

أي نبين الحجج والأدلة ونوضح الآيات لقوم يعلمون،يعنى أهل العلم والإيمان [1] .

بعد أن حكى الله سبحانه أن الكفار أقسموا بالله جهد أيمانهم على إنكار البعث والقيامة، وتمادوا في الغى والضلالة ، ومن هذه حاله فليس بالعسير عليه أن يقدم على إيذاء المؤمنين بألوان من الإيذاء حتى يضطروهم إلى الهجرة عن الديار ، ومفارقة الأهل والأوطان ، ذكر هنا حكم تلك الهجرة ، وبين ما لهؤلاء المهاجرين من حسنات في الدنيا وأجر في الآخرة ، من جزاء أنهم فارقوا أوطانهم ، وصبروا وتوكلوا على الله .

وفي هذا ترغيب لغيرهم في الهجرة واحتمال كل أذى في سبيل الله احتساباً للأجر.

فعن قتادة- رضى الله عنه - قال : هؤلاء هم أصحاب محمد- ﷺ - ، ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم ، حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ، ثم بوأهم الله المؤمنين ، فقال- سبحانه وتعالى-:﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة النحل:٤١]

والمعنى: والذين فارقوا قومهم ودورهم ، وأوطانهم ، وذهبوا إلى بلاد أخرى احتسابا لأجر الله ونيلاً لمرضاته من بعد ما نالهم من الكفار من أذى في أنفسهم وأموالهم لنسكننهم في الدنيا مساكن حسنة يرضونها ، إذ هم لما تركوا مساكنهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله عوضهم الله خيراً منها في الدنيا ، فمكن لهم في البلاد ، وحكمهم فى رقاب العباد ، وصاروا أمراء وحكاماً ، وكان من منهم للمتقين إماما .

ثم ترى أن الله - سبحانه وتعالى- يخبر أن ثوابهم في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا فقال تعالى:﴿..... وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

حيث إن ثوابهم في الآخرة " الجنة "التى لا يغنى نعيهما ، ولا يزول خيرها .

1- تفسير ابن كثير ، جـ ٢ ، ص ٤٠٧ وأيضا جـ ٤ ، ص ٣٢٦ .

- مجافى الأدب فى حدائق العرب ، للأب لويس شيخوعوض .
- تفسير ابوالسعود جـ ٤ ، ص ٣١٠ .
- البحر المحيط جـ ٤ ، ص ٢٩٢ .
- تفسير الطبرى جـ ١١ ، ص ٨٦ .
- صفوة التفاسير جـ ١ ، ص ٤٤٤.
- مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٢١٢.
- فى ظلال القرآن الكريم للامام الشهيد سيد قطب جـ ٦ ، ص ٢٥١٢ بتصرف .
- تفسير القرطبى جـ ١٧ ، ص ٣٠٠.
- تفسير الالوسى جـ ٢٨ ، ص ٣٠.
- لطائف الاشارات للامام القشيرى جـ ٢، ص ٧٩ - ٨٠ .

فيروى عن " عمر بن الخطاب "-رضى الله عنه- أنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءً يقول له : "خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ذخره لك في الآخرة أفضل ثم تلا هذة الآية "﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [سورة النحل:٤١]

وهؤلاء هم الذين صبروا على ما نالهم من أذى قومهم ، ولم يرجعوا القهقرى وعلى مفارقة الوطن المحبوب ، وعلى احتمال الغربة بين ناس لم تجمعهم بهم ألفة نسب ولا جوار في دار ، وقد فوضوا أمرهم إلى ربهم الذى أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وأعرضوا عن كل ما سواه .

ويقول " ابن كثير " : " يخبرنا تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيل ابتغاء مرضاته وهم الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان ، رجاء ثواب الله وجزائه . ويحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجرى الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم ، ومن أشرافهم سيدنا " عثمان بن عفان " ومعه زوجه رقية بنت رسول الله - ﷺ - . وقد قيل فيهم أحسن شخصين رأى إنسان " رقية وبعلها عثمان وجعفر بن ابى طالب عم الرسول- عليه الصلاة والسلام، وأبوسلمة بن عبد الأسود-رضى الله عنهم أجمعين- في جماعة قريب من ثمانية ، ما بين رجل وأمرأة صديق وصديقة . فوعد الله- سبحانه وتعالى- بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة،فقال -سبحانه وتعالى-﴿.....لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ .....﴾[سورة النحل:٤١]

يقول " ابن عباس- رضى الله عنهما - والشعبى وقتادة وهى " المدينة وقيل هو" الرزق الطيب " ولا منافاة بين القولين فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم ، فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا ، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هوخير له منه ، وكذلك وقع ، فقد مكن الله لهم في البلاد ، وحكمهم في رقاب العباد ، وصاروا أمراء وحكاما .

وكل منهم للمتقين إماماً ، وأخبرنا تعالى أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما اعطاهم فى الدنيا ولأجر الآخرة أكبر مما أعطيناهم في الدنيا لوكانوا يعلمون ، يعنى لوكان المتخلفون عن الهجرة منهم يعلمون ما أدخر الله لمن أطاعه ، وأتبع رسوله - ﷺ - ثم وصفهم الله تعالى فقال " الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون " يعنى صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله – سبحانه وتعالى - الذى أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة .

ونرى الله-عزوجل-يقول: ﴿.... لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [سورة النحل:٤١]

وهنا يبين المولى - سبحانه - أفضلية العلماء، فالعلماء يعرفون بلا ريب ربهم حق المعرفة ويؤمنون بما أعده الله من الأجر الجزيل، والثواب العظيم لمن هاجر في سبيل الله ويعمل في الله ولله .

فهنا يبين -سبحانه وتعالى- أقدار العلماء، وما وهبه الله لهم من علم ومعرفة وبصر بالأمور، ولذلك قال تعالى " لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ " فالعلم نور للبصيرة والبصر، وبه يدرك المسلم أين يكون الخير وما الشيء الذى يصلح حاله في دنياه وأُخراه .

ويقول " القرطبى " هم " صهيب " و" بلال " و" خباب " و" عمار " – رضى الله عنهم- والصواب والراجح أن المقصود بالآية جميع المهاجرين في سبيل الله تعالى (١) .

إن التعليم والتعلم روح الإسلام، لا بقاء لجوهره، ولا كفالة لمستقبله إلاَّ بهما، والناس في نظر الإسلام أحد رجلين : إما متعلم يطلب الرشد، وإما عالم يطلب المزيد من العلم وليس بعد ذلك من يؤبه له .

وقال رسول الله - ﷺ -"العالم والمتعلم شريكان في الخير، ولا خير في سائر الناس " (٢)

ويمضى القرآن الكريم فى الحديث عن العلم فيقول - سبحانه وتعالى-:-﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سورة النمل:٥٢]

يعنى فتلك بيوتهم خاويةً، ومساكنهم خالية ودورهم خربة وذلك الخراب والدمار بسبب ظلمهم وكفرهم، فلذلك أهلكهم الله- سبحانه وتعالى- ، وخرب دورهم ومساكنهم إن في هذا الخراب والدمار لمساكنهم عبرةً وعظة لقوم يعلمون قدرة خالقهم، وتدبير ربهم فيتعظون بذلك، ويقول " ابن كثير "- رحمه الله تعالى- " فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ " يعنى : فارغةً ليس فيها أحد وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون . ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " في ظلاله :" ومن لمحة إلى لمحة إذا التدمير والهلاك، وإذا الدور الخالية والبيوت الخالية، وقبل كانوا منذ لحظة واحدة في الآية السابقة من السورة يدبرون ويمكرون، ويحسبون أنهم قادرون على تحقيق ما يمكرون ، وهذه السرعة في عرض هذه الصفحة بعد هذه مقصودة في السياق، لتظهر المباغتة الحاسمة القاضية، وهى

---

1 - تفسير القرطبى ، جـ ١٠ ، ص ١٠٧ .
- تفسير ابن كثير جـ ٢ ، ص ٥٧٠.
- تفسير المراغى جـ ٥ ، ص ٨٥ – ٨٦ .

٢- رواة ابن ماجة .

مباغتة القدرة التى لا تغلب للمخدوعين بقوتهم ، ومباغتة التدبير الذى لا يخيب للماكرين المستنرين بمكرهم .

"إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ " والعلم هوالذى عليه التركيز في السورة وتعقيبهاتها على القصص والأحداث ، وبعد مشهد المباغتة يجئ ذكر نجاة المؤمنين الذين يخافون الله ويتقونه . ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة فُصِّلَت:١٨]

والذى يخاف الله يقيه- سبحانه وتعالى-من المخاوف فلا يجمع عليه خوفين كما جاء في الحديث القدسى(١) .

وبالنظر إلى المعنى : إن بيوتهم خربة بظلمهم ، ووقع منهم الظلم لجهلهم فلو كانوا يعلمون بعاقبتهم ما فكروا في الظلم ولكن الله أعمى أبصارهم ، وختم على قلوبهم ، فلم يفطنوا إلى ما يكون في صالحهم فى الدنيا والآخرة ، إن هؤلاء اغتروا بأنفسهم ، وجبروتهم وأموالهم ، وسلطانهم ، ومناصبهم فظلموا فكان عقباهم أن خرب الله بيوتهم بظلمهم ، وجعلها خاوية على عروشها ، وأصبحوا عبرةً ، وعظةً لمن كان على علم ، وفقه ، وفطانه ، ولذلك كانوا آية للعلماء الذين يخشون ربهم بالغيب . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

ويبين الله-عز وجل- أيضا قدر العلم ، وقيمة العلماء في فهم ما يكون سبباً في سعادتهم في الدنيا والآخرة فيقول معقباً على القصص القرآنى الذى تمثلت فيه ألوان الفتن ، ومن الصعاب والعقبات في طريق الدعوة ففى قصه نوح- عليه السلام-تتمثل فى ضخامة الجهد المبذول ، وضآله الحصيلة حيث لبث في قومه- عليه السلام- ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً ، ولم يؤمن به إلاَّ القليل " فأخذهم الطوفان وهم ظالمون " .

وفي قصة سيدنا : ابراهيم – عليه السلام – يتبدى سوء الجزاء بالحجة والمنطق ، فما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا " أقتلوه أو أحرقوه " وفي قصة " لوط "-عليه السلام- يتبدى تبجح الرزيلة وإعلانها جهاراً نهاراً ، وبدت واضحةً كالشمس في رابعة النهار ، وسقورها بلا حرج ، ولا استحياء ، وأنحدار البشرية إلى الدرك الأسفل من الانحراف ، والشذوذ مع الاستهتار بالنذير.

1- صفوة التفاسير للصابونى جـ ٢ ، ص ٤١٣.
- زاد المسير .
- البحر المحيط جـ ٧ ، ص ٨٥.
- فى ظلال القرآن الكريم للشيخ سيد قطب جـ ٥ ، ص ٢٦٤٦.
- تفسير القرآن العظيم إبن كثير جـ ٣ ، ص ٣٦٨ .

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[سورة العنكبوت:٢٩]

وفي قصة سيدنا " شعيب "- عليه السلام- مع مدين يتبدى الفساد والتمرد على الحق والعدل ، والتكذيب " فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين " وتذكر الإشارة إلى " عاد وثمود " بالاعتزاز بالقوة ، والبطر بالنعمة ، كما تذكر الإشاره إلى " قارون " و" فرعون " و" هامان " بطغيان المال ، واستبداد الحكم ، وتمرد النفاق ويغيب على هذا القصص بمثل يضربه لهو أن القوة المرصودة في طريق دعوة الله ، وهى مهما تمكنت ، واستطالت .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة العنكبوت:٤١]

ويقول " ابن كثير ": في هذة الآية " هذا مثل ضربه الله – سبحانه وتعالى - للمشركين في اتخاذهم آلهةً من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسكون بهم في الشدائد ، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ، ووهنه فليس في أيدى هؤلاء من آلهتهم إلاَّ كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجزى عنه شيئًا . فلوأنهم علموا بهذا الحال ، ما أتخذوا من دون الله اولياء .

هذا بخلاف المسلم المؤمن من قلبه لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباعه لشرع الله – عزوجل - والتمسك بسنه رسوله - ﷺ- . وفي ذلك التمسك يكون قد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

وذلك لقوتها ومتانتها ، وتماسكها ، وقوة نسيجها ، ثم قال- سبحانه وتعالى- متوعداً لمن عَبَدّ غيره ، وأشرك به ، إنه – سبحانه وتعالى- يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم .

ثم - قال تعالى-﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت:٤٣]. يعنى:وما يفهمها، ويتدبرها الا الراسخون في العلم، والمتضلعون منه .

وعن سيدنا " عمرو بن العاص "- رضى الله عنه- قال : عقلت عن رسول الله- ﷺ- .

" ألف مثل " وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعلمها إلاَّ العالمون وعن " عمرو بن مرة "– رضى الله عنه - قال " ما مررت بآيه من كتاب الله لا أعرفها إلاَّ أحزننى لأنى سمعت الله تعالى يقول: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة العنكبوت:٤٣] .

فإن مثل الذين اتخذوا من دون الله أصناماً يعبدونها في اعتمادهم عليها ورجائهم نفعها كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتاً لا يغنى عنها في حر، ولا برد ولامطر، ولا أذى .

يقول" القرطبى " –رحمه الله تعالى-: " هذا مثل ضربه الله - سبحانه وتعالى- لمن أتخذ من دونه آلهه لا تنفعه ولا تضره كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً ، وإن أضعف البيوت لبيت العنكبوت ، لتفاهته وحقارته، لوكانوا يعلمون أن هذا مثلهم ما عبدوها . بل كانوا يفكرون تفكيرا سليما ليعلموا أن هذه المعبودات لا تغنى عنهم من الله شيئا ، ولفكروا فيما ينفعهم في الدنيا والآخرة ، ولوأن هؤلاء استغلوا نعمة العقل التى انعمها الله عليهم واستغلوها في فهم الحقيقة لعبدو الله- سبحانه وتعالى- ، ووحدوه ، وما أشركوا به شيئا ، فإن العقل نعمة كبيرة أنعم الله بها على الانسان فالعلماء الذين يبتدعون، ويبتكرون ، ويخترعون السفن الفضائية والصواريخ العابرة للقارات ، والقنابل النووية والأسلحة الفتاكة ، والمخترعات العلمية الأخرى التى يعج بها العالم الآن وأصبحت ملء السمع والبصر.

إنهم علماء ويملكون عقولا فذة ، وانهم لمحاسبون عليها في الدار الآخرة يوم الحساب والوقوف بين يدى الله – سبحانه وتعالى- لأنهم لو استغلوا هذه العقول صاحبة الابتكارات العلمية ، والمخترعات النووية لهدوا إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط العزيز الحميد ، وعرفوا أن لهذا الكون خالقاً هو: الله – سبحانه وتعالى - الذى خلقهم ، ومن العدم أوجدهم ، وللعلوم سخرهم وهداهم إلى العلم والاختراع .

فلوانهم فكروا قليلاً بما منحه الله لهم من مواهب العلم والفكر لهدوا إلى أنه هو الله، وأن محمداً عبده ورسوله ومصطفاه .

ولذلك قال تعالى : ﴿.....لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ.....﴾[سورة سبأ:١٤]، لكنهم لم يعلموا لأن على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوةً . ([1])

1- تفسير القرطبى جـ ١٣ ، ص ٣٤٥.
- تفسير الطبرى جـ ٢٠ ، ص ٩٦.
- تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٤١٣ – ٤١٤ .
- فى ظلال القرآن الكريم للامام سيد قطب جـ ٥ ، ص ٢٧٢٦ وما بعدها بتصرف .
- مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٣٧ .

وفي الآية القرآنية الآتية صورة مشرقة ، فالقنوت والطاعة ، والتوجه وهو ساجد قائم، وهذه الحساسية المرهفة وهو يَحْــذَر الآخرة ، ويرجورحمة ربه وهذا الصفاء ، وتلك الشفافية التى تفتح البصيرة ، وتمنح القلب نعمة الرؤية والالتقاط والتلقى .

هذه كلها ترسم صورة مشرقة مضيئة من البشر ، مقابل تلك الصورة النكدة المطموسة التى رسمتها الآية السابقة على هذه الآية التى نحن بصدد شرحها وسير أنوارها، وخبر أسرارها فلا جرم يعتقد هذه الموازنة .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الزُّمَر:٩]. فالعلم الحق هو" المعرفة " وإدراك الحق ، وهوأيضا : تفتح البصيرة والاتصال بالحقائق الثابتة فى هذا الوجود ، وليس العلم هوالمعلومات الفردة المفردة التى تزحم الذهن ، ولا تؤدى إلى حقائق الكون الكبرى ، ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس وهذا هوالطريق إلى العلم الحقيقى ، والمعرفة المستنيرة ، هذا هو القنوت لله وحساسية القلب ، واستشعار الحذر من الآخرة ، والتطلع إلى رحمة الله وفضله ، ومراقبة الله .

هذا هو الطريق ، ومن ثم يدرك اللُّب ويعرف ، وينتفع بما يرى ، وما يسمع وما يجرب ، وينتهى إلى الحقائق الكبرى الثابتة من وراء المشاهدات والتجارب الصغيرة ، فأما الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة ، والمشاهدات الظاهرة ، فهم جامعومعلومات ، وليسوا بالعلماء . وهذا هومعنى قول الحق – سبحانه وتعالى – :" إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ "

وإنما يعرف أصحاب القلوب الواعية المتفتحة المدركة لما وراء الظواهر من حقائق، المنتفعة بما ترى وتعلم ، التى تذكر الله في كل شيء تراه وتلمسه ولا تنساه ، ولا تنسى يوم لقاه .

ويقول المفسرون في الآية لإستفهام حُذِفّ جوابه لدلالة الكلام عليه أى أم من هومطيع عابد في ساعات الليل يتعبد ربه في صلاته ساجداً ، وقائماً كمن أشرك بالله ، وجعل له أندادا ؟ .

يقول " القرطبى " بين الله تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذى مضى ذكره حال كونه خائفاً من عذاب الآخرة .

راجياً رحمة ربه وهى الجنة ، هل يستوى هذا المؤمن التقى مع ذلك الكافر الفاجر ؟ لا يستوون عند الله ، ثم ضرب مثلا فقال سبحانه :" قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ

وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ؟ " يعنى : هل يستوى أويتساوى العالم و الجاهل ؟ فكما لا يستوى هذان كذلك لا يستوى المطيع والعاصى ، إنما يعتبر ويذكر ويتعظ أصحاب العقول السليمة .

يقول الإمام " الفخر الرازى " : " واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة ، فأولها: أنه بدأ فيها بذكر العمل ، وختم فيها بذكر العلم ، أما العمل فهو " القنوت " ، و" السجود " و" القيام " وأما العلم ففى قوله – سبحانه وتعالى – : "قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ؟ " .

وهذا يدل على أن كمال الانسان محصور في هذين المقصودين فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هى النهاية . وفي وفي الكلام حذف وتقديره .

أمن هو قانت كغيره؟ . وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه ، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية "الكافر" ثم مثل بالذين يعلمون ، وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم . أجل إن العلم له أفضلية على كل شيء فليس العالم كالجاهل ، وليس من يعرف كمن لا يعرف وليس من يفطن ، كمن لا يفطن .

وليس من يفقه كمن لا يفقه فمما لا ريب فيه أن العلماء أفضل من الجهلاء وصدق الإمام " على بن ابى طالب "-رضى الله عنه- حين قال : " والجاهلون لأهل العلم أعداء . (١)

إن القرآن الكريم ، كتاب الله وبيانه ، ووحيه وتنزيله ، وهداه وسبيله به قصم الله ظهر كل شيطان مريد ، أذل به كل جبار عنيد ، وهوالذى أحنى رأس " الوليد " ، وآلان قلب " عمر " ، هوالذى سمعته الجن فتهتف قائلة : ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ﴿١﴾ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ﴿٣﴾﴾ [سورة الجن:١:٣]

ربوا الشباب على الفضائل والتقى لا تتركوه فريسة الشيطان

1 - تفسير ابوالسعود جـ ٤ ، ص ٢ – ٣ .
- تفسير القرطبى جـ ١٢ ، ص ٢٣٨ ، ص ٢٤٢ .
- حاشية زادة على البيضاوى جـ ٣ ، ص ١٩٤ .
- التفسير الكبير جـ ٢٦ ، ص ٢٥٠.
- التسهيل لعلوم التنزيل جـ ٣ ، ص ١٩٢ .
- حاشية الصاوى جـ ٣ ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .
- مختصر ابن كثير جـ٣ ، ص ٢١٥.
- فى ظلال القرآن الكريم للامام سيد قطب جـ ٥ ، ص ٣٠٤٢ بتصرف .

وخــــذوه بـــالقرآن يحفـــظ نفـــسه　　　فالخير كل لاخيــر فـــى القــرآن

ويقول الله-عز وجل-فى تبيان فضل العلماء: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾ [سورة فُصِّلَت:٤:٥]

فهوالتفصيل المحكم ، وفق الأعراض والأهداف ، ووفق أنواع الطبائع والعقول ، ووفق البيئات والعصور ، ووفق الحالات النفسية ، وحاجاتها المتنوعة . التفصيل المحكم وفق هذه الاعتبارات سمة واضحة في هذا الكتاب ، وقد فُصْلّت هذه الآيات وفق تلك الاعتبارت،فصلت قرآنا عربياً لقوم يعقلون،يعنى لديهم الاستعداد للعلم والمعرفة،والتمييز.

ويقول " ابن كثير "- رحمه الله- كتاب فصلت آياته يعنى بينت معانية وأحكمت أحكامه فى حال كونه قرآناً عربياً بيناً واضحاً . فمعانيه مفصله وألفاظه واضحة غير مشكلة كقوله تعالى : "كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ " .يعنى وهومعجز من حيث لفظه ومعناه .

قال تعالى: ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [سورة فُصِّلَت:٤٢] وقوله تعالى "لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ "

يعنى إنما يعرف هذا البيان والوضوح " العلماء الراسخون في العلم " وهوكتاب جامع للمصالح الدينية والدنيوية بينت معانيه ، ووضحت أحكامه بطريق القصص والمواعظ ، والأحكام ، والامثال في غاية البيان والكمال ، وفي حال كونه قرآناً عربياً غير ذى عوج اضحاً جلياً نزل بلسان العرب لقوم يفهمون تفاصيل آياته ودلائل اعجازه ، فانه في أعلى طبقات البلاغة ، ولا تنبرق أسراره إلا لمن كان عالما بلغه العرب .

ويقول الامام " الفخر الرازى " :" والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج اليه المرضى من الأدوية ، وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية ، فكان أعظم نعمةً عند الله تعالى على أهل هذا العالم ، إنزال القرآن الكريم عليهم وسمى " كتابا " لأنه جمع فيه علوم الأولين والآخرين ، وقد فرقت آياته ، وجعلت تفاصيل في معان مختلفه فبعضها في وصف ذات الله تعالى ، وشرح صفات التنزيه والتقديس ، وشرح كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته ، وعجائب أحوال خلقه :

السماوات ، والأرض ، والكواكب ، وتعاقب الليل والنهار ، وعجائب أحوال النبات، والحيوان ، والإنسان وبعضها في أحوال التكاليف المتوجهة نحو القلوب ، ونحو الجوارح وبعضها في الوعد ، والوعيد ، والثواب والعقاب ودرجات أهل الجنة ، ودرجات أهل النار ،

ويعقبها في المواعظ والنصائح وبعضها في تهذيب الأخلاق ، ورياضة النفس ، وبعضها في قصص الأولين وتواريخ الماضين .

وبالجملة فمن أنصف علم أنه ليس في يد الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة ، والمباحث المتباينة مثل ما في القرآن الكريم .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة يوسف:٢]

يعنى : نزل بلغة العرب ولسانهم ، ويؤكد هذا المعنى قوله – سبحانه وتعالى- : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة إبراهيم:٤]

ويعنى باللِّسان اللُّغة والمعنى وما أرسلنا من رسول إلاَّ بلغة قومه ، ليسهل عليه دعوتهم ، وشرح التوحيد لهم والتفاهم معهم بلسانهم ولغتهم ، وجعلناه قرآناً عربياً لأننا أنزلناه على قوم عرب ، فجعلناه بلغة العرب ليفهموا المراد منه وهوتنزيل من الله لأجلهم وكذلك فصلت آياته لأجلهم فالقرآن الكريم لا يفقهه ويعرف معانيه ، ويتدبر آياته إلاَّ العلماء الذين بوسعهم فهم مَرَاجِعِه ، وأهدافه وما يتغياه كتاب الله . (١)

ويبين الله- عزوجل- فضل العلماء ، وكرامتهم عند الله وعند الناس والذين يقدرون العلم ، ويحترمون ذويه ، فبين الله -عزوجل - فضل العلم على غيره فلا يستوى من يعلم من الناس ومن لا يعلم .

إن الذى أنزل إليك يا محمد من ربك وهوالقرآن وهوالكتاب الحق الذى لا ريب فيه، ولا مرية ولا لبس ولا اختلاف فيه بل هوكله حق يصدق بَعْضِه بعضا لا يضاد شيء منه شيئا آخر فأخباره كلها حق ، أوامره ونواهيه عدل يقول تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ [سورة الأنعام:١١٥]

يعنى صدقاً في الأخبار ، وعدلاً فى الطلب فلا يستوى من تحقق صدق ما جئت به يا محمد ، ومن هوأعمى لا يهتدى إلى الخير لا يفهمه ، ولوفهمه ما إنقاد له ولا صدقه ولا اتبعه .

---

1 - تفسير الرطبى جـ ١٥ ، ٣٤١.
- البحر المحيط جـ ٧ ، ص ٤٨١ .
- صفوة التفاسير جـ ٣ ، ص ١١٥ .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ ، ص ٩٠ .
- فى ظلال القرآن الكريم ، للامام سيد قطب جـ ٥ ، ص ٣١٠٨ .
- مفاتيح الغيب جـ ١٣ ، ص ٥٩١ – ٥٩٢ .

قال تعالى :﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [سورة الحشر:٢٠]

ويقول الله تعالى هنا :- ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة الرعد:١٩]

أى أفهذا كهذا ؟لا يستوون ، إنما يتعظ بذلك ويعتبر ، ويعقل أولوا العقول السليمة ، الصحيحة ندعوا اللّٰه-عز وجل- أن يجعلنا منهم فلا يستوى من يعلم والذى لا يعلم أن الذى أنزله اللّٰه عليك هو الحق الذى لا ريب فيه والذى لا يعلم ذلك فهوأعمى عن الحق ، لا يهتدى إلى الخير يفهم ولويُسِرَّ له الفهم ما آمن ، وما اهتدى ، وما صدق ، وما اطاع فيظل مشهدوها في ظلمات الجهل ، وغياهب الضلاله .

يقول " قتادة " - رضى اللّٰه عنه - هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب اللّٰه ، وعقلوه ، ووعوه ، وهؤلاء كمن هو أعمى عن الحق فلا يبصره ولا يعقله ، إنما يتذكر أولوا الألباب ، يعنى إنما يعتبر بهذه الأمثال ، ويتعظ بها ، ويسير أغوارها ويخبر أسرارها إلاَّ أولوا العقول السليمة والأفكار الرجيحة .

ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب" في معنى الآية : ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة الرعد:١٩]

إن المقابل لمن يعلم أن أنزل إليك من ربك هوالحق ليس هومن يعلم هذا إنما المقابل هو الأعمى ، وهوأسلوب عجيب فى لمس القلوب ، وتجسيم الفروق .

وهوالحق فى الوقت ذاته ، لا مبالغة فيه ولا زيادة ، ولا تحريف .

فالعمى وحده هوالذى ينشئ الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التى لا تختفى إلاَّ على أعمى والناس إزاء هذه الحقيقة الكبيرة صنفان :

مبصرون فهم يعلمون ، وعمى فهم لا يعلمون ، والعمى عمى البصيرة وانطماس المدارك ، وأستغلاق القلوب ، وانطفاء قبس المعرفة في الأرواح وانفصالها عن مصدر الاشعاع .

" إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ " وهم الذين لهم عقول وقلوب مدركه تذكر بالحق فتتذكر ، وتنتبه إلى دلائله فتتفكر ، وهذه صفات أولى الألباب ، هؤلاء الذين يوفون بعهد اللّٰه ولا ينقضون الميثاق ، وهوعهد مطلق يشمل كل عهد وميثاق مطلق ينتظم به كل ميثاق ، والعهد الأكبر هو عهد الإيمان ، والميثاق الأكبر هو الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان .

والاستفهام في قوله تعالى " أفمن يعلم " أستفهام أنكارى توبيخى يعنى هل يستوى من آمن وصدق بما نزل عليك يا محمد بمن بقى يتخبط في ظلمات الجهل السعدى

لا عقل له كالأعمى ، يقول " ابن عباس " – رضى الله عنهما - : "نزلت هذه الآية في " حمزة وأبى جهل " ، إنما يتعظ بآيات الله ، ويعتبر بها ذو العقول السليمة والألباب الراجحه ، والبصائر المستنيره ، وهنا يُبَيّن القرآن الكريم فضل العالم على غيره من الذين يتمتعون بالجهالة الجهلاء والأمية النكراء .

والعالم بصير بالأمور يملك حساً مرهفاً وقلباً واعياً ، ولساناً ذاكراً ، فلا يستوى بمن أعمى عن الهدى والذى يرتع في ظلمات الجهل والكفر. (1)

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى تحث على العلم قول الحق-سبحانه وتعالى- ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [سورة الكهف:٦٥]

والمعنى : وجد " الخضر "– عليه السلام – عند الصخرة التى فقد عندها الحوت وفي الحديث أن " موسى " وجد " الخضر " مسجى بثوبه مستلقيا على الأرض فقال له : "السلام عليك " ، فرفع رأسه وقال له : " وأنى بأردك السلام ؟ . والخضر ليس نبياً وإنما هومن عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين ، وقد أظهر الله على يديه هذه الكرامات والأمور الغيبية تعليماً للخلق " فضل العبودية "وقد وهبناه نعمة عظيمة ، وفضلا كبيرا ، وهى الكرامات التى أظهرها الله على يديه .

وعلمناه من لدنا علما خاصا بنا لا يعلم الا بتوفيقنا وهوعلم الغيوب قول العلماء:

" هذا العلم الربانى ثمرة الاخلاص والتقوى ويسمى " العلم اللَّدَني " يورثه الله لمن أخلص العبودية له ، ولا ينال بالكسب والمشقة ، وإنما هو هبه الرحمن لمن خصة الله بالقرب ، والولاية ، والكرامة .

ويقول الحق- سبحانه وتعالى- :﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة الكهف:٦٦:٦٧]

والمعنى :" هل تأذن لى في مرافقتك لأقتبس من علمك ما يرشدنى في حياتى ؟

وهذه مخاطبة فيها ملاطفة ، وتواضع من نبى الله الكريم – ﷺ – وكذلك ينبغى أن يكون الإنسان مع من يريد أن يتعلم منه .

1 - تفسير المراغى جـ ٥ ، ص ٩١-٩٢ .
- تفسير ابن كثير جـ ٥ ، ص ٥٠٩ .
- فى ظلال القرآن جـ ٤ ، ص ٢٠٥٩ .
- الطبرى جـ ١٣ ، ص ١٣٤ .
- صفوة التفاسير جـ ٢ ، ص ٨٠ .

ويقول الحق- سبحانه وتعالى-:- ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾﴾ [سورة طه:١١٤]

والمعنى جل الله - سبحانه وتعالى- وتُقَدس الملك الحق الذى قهر سلطانه كل جبار عما يصفه به المشركون من خلقه ، وإذا أقرأك جبريل القرآن فلا تعجل معه ، بل استمع إليه ، واصبر حتى يفرغ من تلاوته ، وحينئذ تقرأ أنت .

يقول " ابن عباس "- رضى الله عنهما - :

" كان- عليه السلام- يعاد " جبريل " فيقرأ قبل أن يفرغ " جبريل " من الوحى ، حرصاً على حفظ القرآن ، ومخافة النسيان ، فنهاه الله عن ذلك ، يقول " القرطبى " : وهذا مثل قوله تعالى:- " لا تحرك به لسانه لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه " والمعنى لا تتعجل بالقراءة يا محمد - صلى الله عليه وسلم- قبل فراغ " جبريل " من قراءته فعلينا جمع القرآن في صدرك ، ثم علينا بيانه وتفسيره .

" ..... وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ..... " .

يعنى سل الله-عزوجل- زيادة العلم النافع .

يقول " الطبرى " أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم . ويقول الحق – سبحانه وتعالى:- ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ [سورة الأنبياء:٨٠]. والمعنى : علمنا " داود "- عليه السلام- صنع الدروع وكان ذلك بالإنةِ الحديد له يقول " قتادة "-رضى الله عنه- : " أول من صنع الدروع " داود "-عليه السلام- وكانت صفائح ، فهوأول من سردها وجعلتها لتقيكم في القتال شر الأعداء ، ثم قال تعالى ﴿....فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ وهواستفهام يراد به " الأمر "يعنى أشكروا الله على ما انعم به عليكم .

يقول الحق- سبحانه وتعالى- : ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الفرقان:٥٩]

والمعنى : إن هذا الإله العظيم الذى ينبغى أن نتوكل عليه هوالقادر على كل شيء فهوالذى خلق السماوات السبع والأرضيين السبع . خلق السماوات السبع في ارتفاعها واتساعها ، والارضيين السبع في كثافتها وأمتدادها في ستة أيام من أيام الدنيا .

يقول " ابن جبير " : " الله قادر على أن يخلقها في لحظة ، ولكن علم خلقه الرفعه والتثبيت ثم استوى على العرش استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تعطيل ، وهو الرحمن ذوالجود والإحسان فسأل عنه من هوخبير عارف بجلاله ورحمته .

وقيل المراد : فاسأل الله الخبير بالأشياء ، العالم بحقائقها يطلعك على جَلِيّة أمر والقول الأول أظهر وأصح ، والثانى مروى عن " مجاهد " – رضى الله عنه – ، وفي الآية آنفة الذكر وإن لم يذكر لفظ " العلم " صراحةً ولكن القارئ يفهمها ضمنا ومن فحوالكلام ، حيث يقول الحق- سبحانه وتعالى - : ﴿...فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ ولا يكن أن يكون خبيرا الا إذا كان عالما بالأمور ويواطنها ، عارفا بالأسرار مطلعا على الحقائق ، ولا يكون خبيرا إلاَّ إذا كان عالماً عارفاً فهنا ذكر العلم بطريقة الخبرة ، فالخبرة علم .

ويمضى القرآن الكريم في الحديث عن العلم مبينا قيمته ، وفضله وأهميته ، ونفعه ، وخيره للناس أجمعين فيقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة النمل: ١٥ : ١٦]

يخبر المولى – عز وجل- عما أنعم به على عبده ونبيه " داود "وابنه " سليمان " – عليهما السلام – من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة ، وما جمع بهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الذين ولهذا يقول المولى – سبحانه وتعالى :- " وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ " .

ويروى أن " عمر بن عبد العزيز " كتب فقال : " إن الله لم ينعم على عبد نعمة فيحمد الله عليها إلاَّ كان حمده أفضل من نعمه ، ولوكنت لا تعرف ذلك إلاَّ في كتاب الله المنزل ، قال الله تعالى : " وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ " .

فأى نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان – عليهما السلام – وورث " سليمان " " داود " في الملك والنبوة . وليس المراد به وراثة المال لم يخص " سليمان " وحده من بين سائر أولاد " داود " فإنه قد كان " لداود " مائة امرأة ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة ، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، كما أخبر بذلك رسول الله- ﷺ - في قوله :

" نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهوصدقة "، وقد أخبر " سليمان " بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير ، وكان يعرف لفظة الطير والحيوان .

وهذا شيء لم يعطه لأحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به ورسوله- ﷺ - ومن زعم من الجهلة الرعاع أن الحيوانات كانت تنطق مثل بنى آدم قبل " سليمان ابن

داود " فهوقول بلا علم ، وجهالة جهلاء ، ولوكان الامر كذلك لم يكن لتخصيص " سليمان " -عليه السلام- بذلك فائدة اذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ويعرف ما تقول ، وليس الأمر كما زعموا ، ولا كما قالوا بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا على هذا الشكل والمنوال ، ولكن الله- سبحانه وتعالى- كان أفهم "سليمان "- عليه السلام- ما يخاطب به الطيور في الهواء ، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف اصنافها ، ولهذا قال تعالى :﴿.....عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ .....﴾ [سورة النمل:١٦]

يعنى مما يحتاج إليه الملك إن هذا لهو الفضل المبين ، يعنى الظاهر البين علينا .

عن أبى هريرة – رضى الله عنه - أن رسول الله- ﷺ- قال : " كان داود – عليه السلام – فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع ، قال ، فخرج ذات يوم وَأُغِلقت الأبواب فأقبلت امرأة تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار.

فقالت لمن في البيت : من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة ؟

والله لنفتضحن بداود فجاء داود – عليه السلام – فإذا الرجل قائم وسط الدار ، فقال له داود : من انت ؟

فقال : الذى لا يهاب الملوك ، ولا يمتنع من الحجاب ، فقال داود – عليه السلام – أنت إذاً والله ملك الموت . مرحبا بأمر الله فتزمت داود مكانه حتى قبضت نفسه ، وحتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس .

فقال " سليمان " – عليه السلام – للطير : " أظلى " داود " فظلَّلت عليه الطير حتى أظلمت عليه الأرض ، فقال لها " سليمان " – عليه السلام – اقبضى جناحاً جناحاً ، يقول "ابو هريرة " – رضى الله عنه - يا رسول الله ، كيف فعلت الطير ؟ فقبض رسول الله - ﷺ -يده وغلبت عليه يومئذ المضرحية وهى النسور الحمراء .

وفي مجال العلم والتعليم ، والتعلم يقول الحق – سبحانه وتعالى - :﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[سورة القصص ١٣: ١٤]

والمعنى : فرددناه إلى أمه كى تقر عينها به ، ولا تحزن عليه ، ولتعلم أن الله وعدها وعد الحق من رده اليها وأن جعله من المرسلين . فحينئذ تحققت بَردِه إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين ، فعاملته في تربيته ما ينبغى له طبعاً وشرعاً وَلكنَ أكثرهم لا يعلمون

حكم الله في أفعاله، وعواقبها المحمودة ، التى هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس وعاقبته محموده في نفس الأمر وذلك لقوله تعالى : ﴿....وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [سورة البقرة:٢١٦]وقال تعالى :- ﴿.....فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [سورة النساء:١٩]

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ [سورة يوسف:٢٢]

يقول " مجاهد "-رضى الله عنه- يعنى النبوة .

ومعنى قوله " حكما " يعنى حكمة مثله قول رسول الله - ﷺ -: " إن من الشعر لحكما " .

والمعنى إن من الشعر لحكمة ، والحكمة في الأدب العربى تعج بها مصادر الأدب فاطلبها في مظانها الرئيسية .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩﴾ [سورة العنكبوت:٤٩]

يعنى : هودلائل واضحة في صدور الذين وهبهم الله العلم ، لا لبس فيها ولا غموض ولا شبهة فيها ولا ارتياب . دلائل يجدونها بينةً في صدورهم تطمئن اليها قلوبهم ، فلا تطلب عليها دليلاً وهى الدليل والعلم الذى يستحق هذا الاسم تجده في الصدور في قرارتها مستقراً فيها ، منبعثاً منها ، يكشف لها الطريق ويصلها بالخيط الواصل إلى هناك ، وما يجحد بآياتنا الا الظالمون ، لا يعدلون في تقدير الحقائق ، وتقويم الأمور ، والذين يتجاوزون الحق والصراط المستقيم .

ويقول الحق- سبحانه وتعالى -: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ٢٢﴾ [سورة الروم:٢٢]

والمعنى : ومن آياته خلق السماوات والأرض ، واختلاف لغاتكم ، وذلك بأن علم كل صنف لغة ، وألهم وضعها ، وأقدر عليها ، وقيل إن المراد اختلاف أجناسكم ، نطفكم وأشكالكم ، فإنه لا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفية وكذلك الاختلاف في بياض الجلد وسواده ، أو تخطيطات الأعضاء وهيئاتها وألوانها ، وحلاها ، بحيث يقع التمايز والتعارف حتى إن التوأمين مع اتفاق موادهما ، وأسبابهما ، والأمور الملاقية لهما في التخليق يختلفان في شيء من ذلك لا محاله ، إن في ذلك لآيات للعالمين ، لا تكاد تخفى

على عاقل من ملك أو إنس ، أوجن ويؤيد ذلك قول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿... وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة العنكبوت:٤٣]

ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " :

" ومع آية السماوات والأرض عجيبة اختلاف الألسنة والألوان بين بنى الإنسان ولا بد أنها ذات علاقة بخلق السماوات والأرض . فأختلاف الأجواء على سطح الأرض واختلاف البيئات ذلك الاختلاف الناشئ من طبيعة وضع الأرض الفلكى ، ذو علاقة باختلاف الألسنة والألوان مع اتحاد الأكل والنشأة في بنى الإنسان ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا..... ﴾ [سورة الروم:٧]

وآية خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان لا يراها ولا يفطن اليها ، ولا يعقلها الا الذين يعلمون ، ولذلك يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿......فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الروم:٢٢] ويقول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الروم:٥٦]

والمعنى : وأولوا العلم هؤلاء هم فى الغالب المؤمنون الذين آمنوا بالساعة وأدركوا ما وراء ظاهر الحياة الدنيا ، فهم أهل العلم الصحيح ، وأهل الإيمان البصير وهم يردون الأمر هنا إلى تقدير الله وعلمه " لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ " ، فهذا هو الأجل المقدر ، ولايهم طويلاً كان ام قصيراً ، فقد كان ذلك هو الموعد وقد تحقق " فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون " .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى-:- ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة ص:٢٠]

والمراد أنه تعالى شدد ملكه بما يقوى الدين ، وأسباب سعادة الآخرة والمراد تشديد ملكه في الدين والدنيا ، ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك ؟ وآتيناه الحكمة وهى اسم جامع لكل ما ينبغى علماً وعملاً . فكان ملكه قوياً عزيزاً وكان يسوسه بالحكمة والحزم جميعا .

" وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ " هوقطعه والحزم فيه برأى لا تردد فيه ، وذلك مع الحكمة والقوة وهى غاية الكمال في الحكم والسلطان في عالم الإنسان ، ومع ذلك هذا كله فقد تعرض " داود " -عليه السلام – للفتنه والابتلاء ، وكانت عين الله عليه تكلأه وترعاه ،

وتثبت خطاه ، وكانت يد الله معه تكشف له ضعفه وخطأه ، وتوقيه خطر الطريق ، وتعلمه كيف يتوقاه .

ويقول الحق- سبحانه وتعالى - : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة محمد:١٩]

وهوالتوجيه إلى تذكر الحقيقة الأولى التى يقوم عليها أمر النبى- ﷺ - ومن معه .

" فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ " وعلى أساس العلم بهذه الحقيقة واستحضارها في الضمير تبدأ التوجيهات الأخرى . " وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ " .

علما بأنه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

ولكن هذا واجب العبد المؤمن الشاعر، الإحساس الذى يشعر أبدا بتقصيره مهما كان جهد ، ويشعر وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، الاستغفار ذكرٌ وشكرٌ على الغفران ، ثم هو اليقين المستمر لمن خلف رسول الله - ﷺ - ممن يعرفون منزلته عند ربه ويرونه يوجه إلى الذكر والاستغفار لنفسه قم للمؤمنين والمؤمنات ، وهوالمستجاب الدعوة عند ربه .

فيشعرون بنعمة الله عليهم وهويوجههم لأن يستغفر لهم ليغفر لهم .

ويقول تعالى وهى المسة الأخيرة في الآية " وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ " حيث إن القلب المؤمن يشعر بالطمأنينة والحقوق معا ، الطمأنينة وهوفي رعاية الله حينما تقلب أوثوى ، والخوف من هذا الموقف الذى يحيط به علم الله ويتعقبه في كل حالاته ، ويطلع على سرة ونجواه ، إنها التربية ، على اليقظة الدائمة ، والحساسية المرهفة ، والتطلع والحذر، والانتظار.

ويقول الله - عز وجل- في العلم وأهله :-

﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة الجمعة:٢]

فالأميون هم العرب ، كما قال - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة آل عمران:٢٠]

وتخصيص الأميين بالذكر لا ينبغى من عداهم ، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، كما قال- عزوجل-في قوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ..... ﴾ [سورة الزُّخرُف:٤٤]

هو ذِكْر لغيرهم يتذكرون به ، ومثل قوله تعالى :﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [سورة الشعراء:٢١٤]وهذا وأمثاله لا يتنافى مع قوله تعالى :﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [سورة الأعراف:١٥٨] وقوله — سبحانه وتعالى - :﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة الأنعام:١٩]وقوله - عز وجل-:-﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة هود:١٧]

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته - ﷺ -إلى جميع الخلق أحمرهم ، وأسودهم ، وهذة الآية هى مصداق إجابة الله لخليله " سيدنا ابراهيم " – عليه السلام – حين دعا لأهل مكة " أن يبعث الله فيهم رسولا منهم يتلوعليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فبعثه الله - سبحانه وتعالى - على حين فترة من الرسل ، وقد اشتدت الحاجة إليه ، وقد مقت الله أهل الأرض عربهم ، وعجمهم ، إلاَّ بقايا من أهل الكتاب ، أى قدراً يسيراً مما بعث الله به " عيسى بن مريم " – عليه السلام – ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة الجمعة:٢]

وذلك أن العرب كانوا قديما متمسكين بدين " ابراهيم " الخليل – عليه السلام – فبدلوه وغيروه ، وقلبوه وخالفوه ، واستبلوا بالتوحيد شركا ، وباليقين شكا ، وابتدعوا أشياءً لم يأذن بها الله .

وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها ، وغيروها ، وأولوها فبعث الله محمداً - ﷺ - بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ، ومعادهم ، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ، أورضى الله عنهم ، والنهى عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى ، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع ، وجمع له تعالى جميع المحاسن ممن كان قبله وأعطاه ما يعطى أحداً من الأولين ، ولا يعطيه أحداً من الآخرين – فصلوات الله وسلامه عليه – إلى يوم الدين .

ويقول-سبحانه وتعالى-: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾ [سورة القلم:١] وفي هذه الآية الكريمة يقسم الله – سبحانه وتعالى – " بنون" و" القلم " وبالكتابة والعلاقة واضحة بين الحرف " نون " بوصفه أحد حروف الأبجدية وبين القلم ، والكتابة .

فأما القسم بها فهوتعظيم لقيمتها أوتوجيه اليها في وسط الأمة التى لم تكن تتجه إلى التعلم عن هذا الطريق وكانت الكتابه فيها مختلفة ونادرة في الوقت الذى كان دورها المقدر لها في علم الله يتطلب نموهذه المقدرة فيها وانتشارها بينها ، لتقوم بنقل هذه العقيدة وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى إرجاء الأرض . ثم لتنهض بقيادة البشرية قيادة راشدة . وما من شك في أن الكتابة عنصر أساسى في النهوض بهذه المهمة الكبرى .

ومما يؤكد هذا المفهوم أن يبدأ الوحى بقوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [سورة العلق: ١: ٥]

وهذا خطاب موجه للنبى- ﷺ - الأمى الذى قدر الله أن يكون أُمياً لحكمة يعلمها الله تعالى ، وربما نعلمها نحن فشاء الله أن يكون أميا حتى لا يقال إنه استقى هذا المنهج وقبسه من فكر أبيه ، أوفكر أمه ، أوهوفكر من ثقافة قوم آخرين ، لذلك يقول النبى – ﷺ -: " أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، بيد أنى من قريش وربيت في بنى سعد " . وقد بدأ الوحى إليه منزها بالقراءة والتعليم والتعلم ، ثم أكد هذه اللَّفتة في الآية الكريمة والتى نحن بصدد شرحها .

أكد ذلك بالقسم " بنون " و" القلم " وما يسطرون .

وكان هذا حلقة من المنهج الآلهى لتربية هذه الأُمة ، وإعدادها للقيام بالدور الكونى الضخم الذى قدره لها في علمه المكنون . يقسم الله – عز وجل – بنون والقلم وما يسطرون منوها بقيمة الكتابة مُعَظّماً لشأنها ، كما أومأنا إلى ذلك آنفا لينفى عن النبى – ﷺ – تلك الفرية ، والأكذوبة التى رماها بها المشركون ، مستعداً لها ونعمته على رسوله ترفضها ، " ما أنت بنعمة ربك بمجنون " .

ويقول الله – عز وجل – : ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦﴾ [سورة التكاثر: ٢:٦]

والمعنى : ارتدعوا انزجروا فلوعلمتم العلم الحقيقى الذى لا ريب فيه ولا اهتداء ، ولا شك لوأنكم عرفتم ذلك لما ألهاكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله – عز وجل – ولما خدعتم

بنعيم الدنيا عن أهوال الآخرة ، وشدائدها ، يقول - ﷺ -: " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً " .

وهو جزء من حديث رواه البخارى وهو: " إِنِّى أَرَى مَا لاَ تَـرَوْنَ وَأَسْـمَعُ مَـا لاَ تَسْمَعُونَ أَطَّت السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئطَّ مَا فيهَا مَوْضعُ أَرْبَعِ أَصَابعَ إِلاَّ عَلَيْه مَلَكٌ سَـاجِدٌ لَوعَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ لَضَحكْتُمْ قَليلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثيراً وَلاَ تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ وَلَخَـرَجْتُمْ عَلَى - أَوإِلَى - الصُّعُدَات تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ "

ويقول صاحب التسهيل :

" وجواب " لو" محذوف والتقدير " لوتعلمون لازدجرتم ، واستعددتم للآخرة ، وإنما حذف لقصد التهويل فيقدر السامع أعظم ما يخطر بباله مثل قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الأنعام:٢٧]

هذا هوالعلم الذى مَجَّدَهُ الله - عز وجل - في كتابه الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، كما ذكر لأقدار العلماء فبينا فضلهم على سائر العباد ، وأنهم قوة عظيمة ضد الشيطان وذلك بسلطان علمهم ، وغزير معارفهم فإن عالما واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، وهى في الوقت نفسه دعوة إلى التعليم ، ونشر العلم ، وطلب العلا والمعارف ، وصدق الشاعر ،اذ يقول :

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم ... لم يبن ملك على جهل وإقلال

ويقول أيضا :

والمال إن تدخره محصنا ... بالعلم كان مطية الاخفاق (١)

1- صفوة التفاسير جـ ٢ ، ص ١٩٨ ، جـ ٣ ص ٥٩٨ .
- تفسير الطبرى ، جـ ١٦ ، ص ٢٢٠ ، جـ ١١ ، ص ٤٢٠ .
- القرطبى جـ ١١ ، ص ٢٥٠.
- حاشية الصاوى على الجلالين جـ ٣ ، ص ٦٦
- مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ ، ص ٤٩٦ ، ص ٥١٦
- حاشية الشهاب على البيضاوى جـ ٧ ، ص ١١٧
- تفسير القرآن العظيم لأبن كثير جـ ٣ ، ص ٣٥٨ ، ص ٣٨٢ ، جـ ٤ ، ص ٣٦٣
- فى ظلال القرآن الكريم جـ ٥ ، ص ٢٧٦٤ وأيضا ص ٢٧٧٧ ، ص ٣٠١٧ ، جـ ٦ ص ٣٦٥٤
- مفاتيح الغيب جأ ١٣ وص ٣٠٢ .

" الصدق "

إن الله خلق السموات والأرض بالحق ، وطلب إلى الناس أن يبنوا حياتهم على الحق ، فلا يقولوا إلاَّ حقاً ، ولا يعملوا إلاَّ حقاً ، وحيرة البشر وشقوتهم راجعة إلى ذهولهم عن الحق والصدق ، ولذا كان التمسك بالصدق في كل أمر من أمور الحياة ، وفي كل قصة من القضايا واجب على كل مسلم ومسلمة ، وركيزةً من ركائز الإيمان وركن ركين في خُلُق المسلم الذى يأمر به القرآن الكريم . يقول رسول الله - ﷺ -:" إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث " (١) .

وقال - عليه الصلاة والسلام - : " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة " (٢) .

قد نهى القرآن الكريم على أقوام جريهم وراء الظنون التى ملأت عقولهم وقلوبهم ، وأفئدتهم بالخرافات ، وأفسدت حاضرهم ومستقبلهم بالأكاذيب . قال تعالى : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة النجم:٢٣]وفي قوله:﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة يونس:٣٦]وقوله تعالى :-﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة النجم:٢٨]

ولذا نرى الإسلام حارب وطارد الكذابين ، كما أنه شدد النكير عليهم ، فعن عائشة أم المؤمنين – رضى الله عنها – قالت :" ما كلن من خلق أبغض إلى رسول الله - ﷺ - من الكذب ، اطلع على أحد من ذلك فيخرج من قلبه حتى يعلم أنه قد أحدث توبة " (٣) .

وعن عائشة – رضى الله عنها – أيضا : " ما كان خلق أبغض إلى رسول الله - ﷺ -من الكذب ولقد كان الرجل يكذب عنده الكذبة ، فما يزال فى نفسه حتى يعلم أنه أحدث فيها توبه " (٤) .

ولا غروفإن السلف الصالح كانوا يتلاقون على الفضائل ، وكانت المعالم الأولى للجماعة المسلمة صدق الحديث ، ودقة الأداء ، وانضباط الكلام . لذا حكموا فسادوا ،

١- رواه البخارى .
٢- رواه الترمزى .
٣- رواه الامام أحمد .
٤- رواه ابن حبان .

وقادوا فنجحوا ، وساسوا العالم كله سياسة الصدق والدقة والانضباط فإنبهر بهم العالم ، كما انبهر بسلوكهم وما يزال التاريخ يتحدث بصدقهم ، وأخلاقهم ، وانضباطهم وَحُسْن سلوكهم ، وسيرتهم الزاكية العطرة وبحق كانوا مثلا يحتذى في هذا السلوك الذى ارتقى به المجتمع المسلم .

فأما الكذب فهومن أمارات النفاق ، وأمارات انقطاع الصلة بالدين فمما لا ريب فيه أن الكذب رذيلة كبرى ، وداء عضال ، إذا ما أصيب به مجتمع من المجتمعات ، فسد ، وانحل ، وشاعت فيه الرذيلة ودرست فيه الفضيلة وأصيب بأدواء لم تكن في سابقيه . ولا عذر البتة لمن يتخذون الكذب خُلُقاً ويعبثون على خديعة الناس. قال رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم -:

" يطبع المؤمن على الخلال كلها إلاَّ الخيانة والكذب " [١].

وسئل رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم - : " أيكون المؤمن جبانا ؟

- قال : نعم
- قيل له : أيكون المؤمن كذابا ؟
- قال : لا [٢].

لذا نرى القرآن الكريم يوجه المسلم إلى هذا الخلق الكريم ، كى يستقيم أمره ويصلح حاله وتقوى شوكته ، فى أكثر من موضع ، وأكثر من آية .

فيقول الله - عز وجل -: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [سورة البقرة:١٧٧]

والمعنى : ليس البر وعمل الخير، وفعل الطاعات محصوراً في أن يتوجه الإنسان في صلاته جهة المشرق أوجهة المغرب ، ولكن البر الصحيح هو: الإيمان باللّه ، واليوم الآخر والملائكة والنبيين والكتب المنزله من اللّه - سبحانه وتعالى - على أنبيائه ، ويعطى وينفق المال على محبته له ، وحرصه على جمعه ، لذى القربى واليتامى والمساكين ، وأبناء السبيل ، وهم المسافرون الذين انقطع عنهم المال ، والذين يسألون المعونة بدافع الحاجة ، كما ينفقه أيضا في فكاك الأسرى من أسرهم ، والعبيد الأَرِقْاء بالفداء ، وقام بأداء الاركان ومن أهمها

١- رواه الامام احمد .

2- رواه الامام مالك .

" الصلاة " و" الزكاة " والذين يوفون بالعهود ، ولا يخلفون الوعود والصابرين على الشدائد ، وحين القتال فى سبيل اللّٰه .

من كانت هذه صفاتهم ، وأوصافهم هم الذين صدقوا في ايمانهم وأولئك هم الكاملون في التقوى ، وأصحاب الإيمان الصادق ، الموفون بعهودهم . وفي الآية " ثناء ومديح " للأبرار ، وإيحاء إلى ما يلاقونه من إطمئنان وخيرات حسان . ويقول صحاب اللَّطائف :

" وما ذكر في هذه الآية من وجوه الإحسان وفنونه ، ووجود قضايا الإيمان وإيتاء المال ، وتصفية الأعمال ، وصلة الرحم ، والتمسك بفنون الذمم والعصم والوفاء بالعهود ومراعاة الحدود وعظيم الأثر ، كثير الخطر ، محبوب الحق شرعا ومطلوبه أمراً لكن قدام الحق عنك بعد فنائك ، وامتحانك من شاهدك واستهلالك في وجود القِدم ، وتعطل رسومك عن مساكنات إحساسك - أتمُّ وأعلى في المعنى؛ لأن التوحيد لا يُبقِي رسماً ولا أثراً ، ولا يغادر غَيْراً ولا غَبَراً والغير هو السوى ، والغبر فهو معروف .

وهناك خلاف بين العلماء في أن هذا الخطاب عام أوخاص ، والصحيح والراجح أنه عام ينتظم جميع المسلمين في كل زمان و مكان ، فهوخطاب عام .

والبر يشمل جميع الطاعات قال تعالى :- ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [سورة الانفطار:١٣:١٤]فجعل البر ضد الفجور .

وقال تعالى :- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة المائدة:٢]

وعدوا البر بتحقيق ماهيته فى أمور خمسة هى:-

أولها : الإيمان بالله . ثانيها : إيمان باليوم الآخر .

ثالثها : الإيمان بالملائكة . رابعها : الإيمان بالكتب .

خامسها : الإيمان بالرسل .

وأهل هذه الصفات هم الذين صدقوا في ايمانهم . ولذا قال بعضهم هذه الصفة خاصةً للأنبياء-عليهم السلام- ، وقال آخرون هذه عامةً في جميع المؤمنين .

ونحن نرى أنها عامة في جميع المؤمنين في كل زمان ، وفي كل عصر ، كما أومأنا إلى ذلك آنفا [(١)].

ويقول الحق- سبحانه وتعالى-:﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾ [سورة المائدة:١١٩]

والمعنى إن يوم القيامة ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم في الآخرة ويوم الجزاء ، يوم يقف الناس في عرصات القيامة للحساب و الجزاء .

وفي ذلك اليوم ينفع الذين صدقوا في دنياهم صدقهم في هذا اليوم وجزاء صدقهم في دنياهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يعنى من تحت غرفها وأشجارها ما كثين فيها لا يخرجون منها أبدا ، وبذلك يكونوا قد نالوا رضا ربهم جزاء صدقهم في الدنيا ، وهم أيضا قد رضوا عن ربهم حيث جازاهم ما وعدهم به فى كتابه العزيز إنه الفوز الكبير برضوان الله- سبحانه وتعالى- وهذا الرضوان ، وذلك الفوز:

هو جنات تجرى من تحتها الأنهار حيث أن الجميع ملكه ، وتحت سلطانه وقهره ومشيئته ، وهوالقادر على كل شيء .

ويقول الإمام " القشيرى " : " مَنْ تَعَجَّل ميراثَ صدقه في دنياه من قبول حصل له من الناس ، أورياسةٍ عقدت له ، له أونفع وصل إليه من جاهٍ أومال . فلا شيء لَه في آجله من صواب صدقه ، لأن الحقَّ - سبحانه - نصّ بأنَّ يومَ القيامةً ينفع فيه الصادقين صدقهم .

قوله جلّ ذكره : {...رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ...} .

ورضاءُ الحق - سبحانه - إثباتُ مَحَلّ لهم ، وثناؤه عليهم ومدحُه لهم ، وتخصيصهم بأفضاله وفنون نواله . ورضاؤهم عن الحق - سبحانه في الآخرة وصولهم إلى مُنَاهم ؛ فهو الفوز العظيم والنجاة الكبرى ."

ويقول " القرطبى " : " قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم" أي صدقهم في الدنيا فأما في الآخرة فلا ينفع فيها الصدق وصدقهم في الدنيا يحتمل أن يكون صدقهم في

1- التفسير الكبير المسمى " نفاتيح الغيب " للامام فخر الرازى جـ٣ ، ص ٨ – ٢٤ بتصرف .
- صفوة التفاسير للصابونى جـ ١ ، ص ١١٥ وما بعدها بتصرف .
- لطائف الاشارات جـ ١ ، ص ١٤٩ .
- خلق المسلم للامام العصر الحديث المغفور له الشيخ محمد الغزالى ص٣١ وما بعدها بتصرف .

العمل لله ويحتمل أن يكون تركهم الكذب عليه وعلى رسله، وإنما ينفعهم الصدق في ذلك اليوم وإن كان نافعاً في كل الأيام لوقوع الجزاء فيه.

وقيل: المراد صدقهم في الآخرة وذلك في الشهادة لانبيائهم بالبلاغ وفيما شهدوا به على أنفسهم من أعمالهم ويكون وجه النفع فيه أن يكفوا المؤاخذة بتركهم كتم الشهادة فيغفر لهم بإقرارهم لانبيائهم وعلى أنفسهم " .

ونحن نرى أن المراد بالصدق في الآية وفي غيرها من الآيات التى تذكر الصدق ، والصادقين ، والصادقات هوالصدق في الدنيا ، مع الله ، ومع الناس وفي العبادات ، والمعاملات، وجميع الأعمال المنوطة بالمسلم ، وكل التكاليف وجميع الأوامر ، والنواهى الواردة فى القرآن الكريم والسنة . لذا كان جزاؤهم في الآخرة جنات تجرى من تحت غرفها الأنهار ، وتجرى أيضا من تحت اشجارها الأنهار ، وما ذلك الا لأنهم صدقوا الله ورسوله وصدقوا في كل أعمالهم ، وافعالهم وحركاتهم ، وسكناتهم ، وفي نومهم ويقظتهم وسرهم وجهرهم . ثم بين الله- عز وجل- ثوابهم في الآخرة أيضا أنه راض عنهم ، راضون عنه وذلك بالجزاء الذى أثابهم به . وذلك الظفر العظيم خيره الكبير نفعه ، العظيم ثوابه .

ويقول " ابن كثير "- رحمه الله تعالى- في هذه الآية : " عن ابن عباس يقول: يوم ينفع الموحدين توحيدهم .

﴿....لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ ....﴾ [سورة التوبة:١٠٠]أي لهم جنات تجرى من تحتها ومن تحت اشجارها :ماكثين فيها لا يَحُولون ولا يزولون، رضي الله عنهم ورضوا عنه، كما قال تعالى: {.... وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ....} [سورة التوبة:٧٢]، فعن أنس مرفوعا قال: قال رسول الله - ﷺ -: " ثم يتجلى لهم الرب تعالى فيقول: سلوني سلوني أعطكم".

قال: "فيسألونه الرضا، فيقول: رضاي أحلكم داري ، وأنالكم كرامتي فسلوني أعطكم. فيسألونه الرضا"، قال: "فيشهدهم أنه قد رضي عنهم ".

وقوله: {... ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ... }[سورة التوبة:٧٢] أي: هذا هوالفوز الكبير الذي لا أعظم منه كما قال تعالى:- ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة الصافات:٦١] .

وكما قال: ﴿....وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة المطفِّفين:٢٦] .

هو- سبحانه وتعالى- الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها القادر عليها، فالجميع ملْكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير ولا عديل، ولا والد ولا ولد ولا صاحبه، فلا إله غيره ، ولا رب سواه ، ولا معبود بحق غيره .[(١)]

وفى معنى الصدق يقول المولى :- ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة الأعراف:١٠٥]

والمعنى : حقيق علي ،يعنى واجب . ومن قرأ " علي ألا " فالمعنى حريص على ألا أقول ، وفي قراءة " عبد الله " حقيق ألا أقول " وذلك باسقاط " علي " وقيل " علي " بمعنى الباء أى حقيق بإلا أقول وكذلك فى قراءة " أُبَىّ" والأعمش " بإلا أقول ، كما تقول رميت بالقوس وعلى القوس ، فحقيق على هذا يعنى " محقوق " فأرسل معى " بنى إسرائيل " أى خلهم ، وكان يستعملهم فى الأعمال الشاقة .

ويقول صاحب الظلال : " فما كان الرسول الذي يعلم حقيقة الله ، ليقول عليه إلا الحق ، وهو يعلم قدره؛ ويجد حقيقته - سبحانه - في نفسه .

{ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ } .

تدلكم على صدق قولي : إني رسول من رب العالمين .

وباسم تلك الحقيقة الكبيرة . . حقيقة الربوبية الشاملة للعالمين . . طلب موسى من فرعون أن يطلق معه بني إسرائيل . . إن بني إسرائيل عبيد لله وحده ؛ فما ينبغي أن يعبدهم فرعون لنفسه ! إن الإنسان لا يخدم سيدين ، ولا يعبد إلهين . فمن كان عبداً لله ، فما يمكن أن يكون عبداً لسواه . وإذ كان فرعون إنما يعبد بني إسرائيل لهواه؛ فقد أعلن له موسى أن رب العالمين هو الله . وإعلان هذه الحقيقة ينهي شرعية ما يزاوله فرعون من تعبيد بني إسرائيل!

إن إعلان ربوبية الله للعالمين هي بذاتها إعلان تحرير الإنسان .

تحريره من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله .

تحريره من شرع البشر، ومن هوى البشر، ومن تقاليد البشر، ومن حكم البشر.

1- تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٢ ، ص ١٢١- ١٢٢ بتصرف .
- تفسير القرطبى جـ ٤ ، ص ٢٣٧٦ بتصرف .
- لطائف الاشارات للامام القشيرى جـ ١ ، ص ٤٥٨ بتحقيق وتقديم وتعليق الدكتور ابراهيم بسيونى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨١ م .
- صفوة التفاسير جـ ١ ، ص ٣٧٥ بتصرف .

وإعلان ربوبية الله للعالمين لا يجتمع مع خضوع أحد من العالمين لغير الله؛ ولا يجتمع مع حاكمية أحد بشريعة من عنده للناس . . والذين يظنون أنهم مسلمون بينما هم خاضعون لشريعة من صنع البشر - أي لربوبية غير ربوبية الله - واهمون إذا ظنوا لحظة واحدة أنهم مسلمون! إنهم لا يكونون في دين الله لحظة واحدة وحاكمهم غير الله ، وقانونهم غير شريعة الله . إنما هم في دين حاكمهم ذاك . في دين الملك لا في دين الله!

وعلى هذه الحقيقة أُمر موسى - عليه السلام - أن يُلبي طلبه من فرعون إطلاق بني إسرائيل : " يا فرعون إني رسول من رب العالمين " . . . " فارسل معي بني إسرائيل " . . . مقدمة ونتيجة . . تتلازمان ولا تفترقان .

ولم تغب على فرعون وملئه دلالة هذا الإعلان . إعلان ربوبية الله للعالمين . . لم يغب عنهم أن هذا الإعلان يحمل في طياته هدم ملك فرعون . وقلب نظام حكمه وإنكار شرعيته وكشف عدوانه وطغيانه . . ولكن كان أمام فرعون وملئه فرصة أن يظهروا موسى بمظهر الكاذب الذي يزعم أنه رسول من رب العالمين بلا بينة ولا دليل :

" قال : إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين " . . ذلك أنه إذا اتضح أن هذا الداعية إلى ربوبية رب العالمين كاذب في دعواه؛ سقطت دعوته وهان أمره؛ ولم يعد لهذه الدعوة الخطيرة من خطر - وصاحبها دعيّ لا بينة عنده ولا دليل! . ولكن موسى يجيب: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [سورة الشعراء٢٣ :٣٣]

فكانت الآية بإلقاء العصى ! فإنقلبت ثعباناً لا شك في ثعبانيته . . وكما قيل في سورة أخرى : ﴿ ...فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة طه:٢٠] ثم إن يده السمراء - وقد كان موسى - عليه السلام- أسمر اللون أي مائلاً إلى السمرة - يخرجها من جيبه فإذا هي بيضاء من غير سوء، بيضاء ليست عن مرض ، ولكنها المعجزة ، فإذا أعادها إلى جيبه عادت سمراء! هذه هي البينة والآية على الدعوى التي جاء بها موسى إني رسول من رب العالمين .

هذا هوالصدق الذى يعد من شيم الأنبياء والمرسلين ومن شيم المسلمين الأتقياء ، والمؤمنين الأصفياء ، فالصدق منجاة لهم جميعاً (1) .

1- فى ظلال القرآن الكريم جـ ٣ ، ص ١٣٤٦ .

▫ القرطبى جـ ٤ ، ص ٢٦٩٣ .

▫ حاشية الشهاب على البيضاوى جـ ٤ ، ص ٢٠٠.

وفي فضيلة الصدق يقول الحق- سبحانه وتعالى- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [سورة التوبة:١١٩]

والمعنى : هم الصادقون في ايمانهم فلم يكونوا من المنافقين ، أومع الذين لم يتخلفوا، أومع الذين لأنه صدقوا في دين الله نيةً ، وقولاً ، وعملا ، والآية تدل على أن الاجماع حُجْة لأنه أمر بالكون مع الصابرين فلزم قبول قولهم ، قال تعالى:﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

[سورة التوبة:١٢٠]

والمراد بهذا النفى " النهى " وخص هؤلاء بالذكر وإن استوى كل الناس بذلك لقربهم منه ، ولا يخفى عليه خروجه .

ويقول " القرطبى " : " هذا الامر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين.

قال مطرف: سمعت مالك بن أنس يقول: كلما كان رجلاً صادقاً لا يكذب إلا مُتِعّ بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف. واختلف في المراد هنا بالمؤمنين والصادقين على أقوال، فقيل: هوخطاب لمن آمن من أهل الكتاب. وقيل: هوخطاب لجميع المؤمنين، أي أتقوا مخالفة أمر الله.

" ....وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ...." .

أي مع الذين خرجوا مع النبي- ﷺ- لا مع المنافقين .

أي كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم .

وقيل: هم الانبياء، أي كونوا معهم بالاعمال الصالحة في الجنة.

وقيل: هم المراد بقوله: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [سورة البقرة:١٧٧]

وقيل: هم الموفون بما عاهدوا، وذلك لقوله تعالى:﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ٢٣﴾ [سورة الأحزاب:٢٣]

وقيل: هم المهاجرون، لقول أبي بكر يوم السقيفة إن الله سمانا الصادقين فقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة الحشر:٨]

ثم سماكم بالمفلحين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحشر:٩]

وقيل: هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم . قال " ابن العربي " :

"وهذا القول هوالحقيقة والغاية التي إليها المنتهى فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق في العقيدة والمخالفة في الفعل، وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر وعمر وعثمان ومن دونهم على منازلهم وأزمانهم. وأما من قال: إنهم المراد بآية البقرة فهومعظم الصدق ويتبعه الاقل وهومعنى آية الأحزاب .

وهوقولــه تعــالى :- ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الأحزاب:٢٤]

وأما تفسير أبي بكر الصديق – رضى الله عنه – فهو الذي يعم الأقوال كلها فإن جميع الصفات فيهم موجودة.

وهوالذى ذكرناه آنفا حيث قال يوم السقيفة إن الله سمانا الصادقين فقال تعالى : ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة الحشر:٨]

فالذى فهم عن الله وعقل عنه أن يلازم الصدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والصفاء في الأحوال، فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل إلى رضا الغفار، قال- ﷺ -:

" عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا " (١).

وقد رد – ﷺ – شهادة رجل في كذبة كذبها .

قال معمر: لا أدري أكذب على الله أو أكذب على رسوله أو أكذب على أحد من الناس

1- أخرجه مسلم .

وسئل " شريك بن عبد الله " فقيل له: يا أبا عبد الله، رجل سمعته يكذب متعمداً فهل أصلي خلفه ؟ قال لا.

وعن " ابن مسعود "-رضى الله عنهما - قال:إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، ولا أن يعد أحدكم شيئا ثم لا ينجزه، أقرأوا إن شئتم " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين "هل ترون في الكذب رخصة ؟ وقال مالك :

لا يقبل خبر الكاذب في حديث الناس وإن صدق في حديث رسول الله - ﷺ -.

وقال غيره: يقبل حديثه .

والصحيح أن الكاذب لا تقبل شهادته ولا خَبَـــرِهِ لما ذكرناه، فإن القبول مرتبة عظيمة وولاية شريفة لا تكون إلا لمن كملت خصاله ولا خصلة هي أشر من الكذب فهي تعزل الولايات وتبطل الشهادات . فالمراد من الآية أيضا : راقبوا الله في جميع اقوالكم وأفعالكم ، وكونوا مع أهل الصدق واليقين ، الذين صدقوا في الدين نبيه ، وقولاً وعملاً وفي تفسير " المراغى " :" يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله اتقوا الله ، وراقبوه بأداء فرائضة ، واجتناب نواهيه ، وكونوا في الدنيا من أهل ولايته ، وطاعته تكونوا في الآخرة مع الصادقين في الجنة ، ولا تكونوا مع المنافقين الذين يتنصلون من ذنوبهم بالكذب ويؤيدونه بالحلف ولا رخصة في الكذب الا لضرورة من خديعة حرب ، أو إصلاح بين اثنين أورجل يحدث امرأته ليرضيها ، يعنى في التحبب إليها بوصف محاسنها ورضاه عنها ، لا في مصالح الدار والعيال وغيرها " .

اخرجه ابن أبى شبيه وأحمد عن أسماء بنت يزيد – رضى الله عنها – عن النبى- ﷺ - قال : " كل الكذب يكتب على ابن آدم إلاَّ رجل كذب في خديعة حرب أو إصلاح بين اثنين أورجل يحدث امرأته ليرضيها " .

ولا ريب في أن المعاريض ما يغنى العاقل عن الكذب كما جاء فى الحديث : " إن فى المعارض لمندوحة عن الكذب " . (1)

1- التفسير المراغى جـ ٤ ، ص ٤٣ وما بعدها .
- الطبرى .
- الكشاف للزمخشرى .
- القرطبى جـ ٥ ، ص ٣١٢٧ وما بعدها .
- حاشية الشهاب على البيضاوى جـ٤ ، ص ٣٧٤.
- تفسير النسفى جـ ١ ، ص ٥٢٣ ــ ٥٢٤ ط . دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان سنة ١٤١٥هـ ، ١٩٩٥ م .
- فى ظلال القرآن الكريم للامام سيد قطب .

وفـى معنـى الـصدق يقـول الحـق- سـبحانه وتعـالى - : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة يوسف:٥١]

والخطب هو الشأن العظيم الذى يقع فيه التخاطب إما لغرابته ، وإما لإنكاره ، ومنه قوله- سبحانه وتعالى- حكاية عم سيدنا إبراهيم – عليه السلام – : " قال فما خبطلكم أيها المرسلون " .

وقوم موسى- عليه السلام- : " فما خطبك يا سمري " .

يعنى إن الرسول بعد أن أبلغ الملك قول " يوسف " :" انه لا يخرج من السجن حتى إستجابة دعوته حتى يحقق قصة النبوءة جمعهن وسألهن : " ما خطبكن الذى حملكم على مراودته عن نفسه : هل كان عن ميل منه إليكن ؟ وهل رأيتن منه مودةً وإستجابة بعدها؟ وماذا كان السبب فى إلقائه في السجن مع المجرمين ؟ .

قلن ما عاذ اللّٰه ما علمنا عليه من سوء يشينه ، ولا فعل يعيبه لا من قريب ولا من بعيد ، ولا قليل ولا كثير.

فقالت امرأة العزيز : " ظهر الحق بعد أن كان خفيا ، وقد ظهر فى جانب واحد لا خفاء فيه ، وهن قد شهدن بما علمن شهادة نفى ، وهأنذا أشهد على نفسى شهادة إيجاب .

﴿ ....قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة يوسف:٥١]

فإن يوسف – عليه السلام – قد استعصم وأعرض عنى ، وإنه لمن الصادقين في قوله حين قال : " هى راودتنى عن نفسى "، والذى دعاها الى هذا الاعتراف مكافأة يوسف على ما فعله من رعاية حقها ، وتعظيم جانبها ، وإنفاذ أمرها حيث قال : " ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن " ولم يعرض لشأنها البتة وفي هذا إعتراف شهادة مريحة من امرأة العزيز ببراءة يوسف من كل الذنوب وطهارته من كل العيوب .

وفى الظلال : يقول فى معنى هذه الآية :" ومن هذا نعلم شيئاً مما دار في حفل الاستقبال في بيت الوزير؛ ما قالته النسوة ليوسف وما لَمّحن به وأشرن إليه ، من الإغراء الذي يبلغ درجة المراودة . ومن هذا نتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى في ذلك العهد الموغل في التاريخ . فالجاهلية دائماً هي الجاهلية .

إنه حيثما كان الترف ، وكانت القصور والحاشية ، كان التخلل والتميع والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الأرستقراطية! . وفي مثل هذه المواجهة بالاتهام في حضرة الملك ، يبدوأنه لم يكن هنالك مجال للإنكار : { قلن : حاش لله! ما علمنا عليه من سوء } !

وهي الحقيقة التي يصعب إنكارها . ولومن مثل هؤلاء النسوة . فقد كان أمر يوسف إذن من النصاعة والوضوح بحيث لا يقوم فيه جدال . وهنا تتقدم المرأة المحبة ليوسف ، التي يئست منه ، ولكنها لا تستطيع أن تخلص من تعلقها به . تتقدم لتقول كل شيء في صراحة : " قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق . أنا راودته عن نفسه . وإنه لمن الصادقين " . . الآن حصحص الحق وظهر ظهوراً واضحاً لا يحتمل الخفاء .

أجل .

قد تكون هناك أعذاراً لمن يشعرون بوسواس الحرص ، أوالخوف عندما يقفون في ميادين التضحية والفداء ولكنه لا عذر البته لمن يتخذون الكذب خلقاً ويعيشون به على خديعة الناس ، قال رسول الله - ﷺ -:

" يطبع المؤمن على الخلال كلها إلاَّ الخيانة والكذب " ويقول النبى- ﷺ -:

" رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي قَالا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ يَكْذِبُ بِالْكَذْبَةِ تُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " (١) .

وفى الحديث : " قال رسول الله - ﷺ -: "ثلاثة لا يدخلون الجنة: الشيخ الزاني ، والإمام الكذاب، والعائل المزهو" (٢): أى الفقير المتكبر.

ويدخل في نطاق هذا الكذب تلك الاقترافات التى يبتدعها الجهال وأقحموها في دين الله بيد أنها لهو ولعب . (٣)

ومن معانى الصدق ما نجده في قول الله - سبحانه وتعالى- : ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الكهف:٢٩]

1- اخرجه البخارى .
2- رواه البندار .
3- تفسير المراغى ، جـ ٤ ، ص ١٥٨ .
- فى ظلال القرآن الكريم جـ ، ص ١٩٩٥ .
- الكشاف للزمخشرى .
- حاشية الشهاب على البيضاوى .
- نفسير الجلالين .

والمعنى: قل أيها الرسول لأولئك الذين أغفلنا قلوبهم عن الذكر، واتبعوا أهواءهم هذا الذى أوحى إلي هوالحق من عند ربكم، وهوالذى يجب عليكم اتباعه، والعمل به، فمن شاء أن يؤمن به ويدخل في غمار المؤمنين، ولا يتعلل بما يصلح أن يكون مقدرة له فليفعل، ومن شاء أن يكفر به، وينبذه وراء ظهره فأمره إلى الله، ولست بطارد لأجل أهوائكم من كان للحق متبعاً، وبالله وبما أنزل علي مؤمناً. وإننى في غنى عن متابعتكم وإننى لا أبالى بكم، ولا بإيمانكم وأمر ذلك إليكم، وبيد الله التوفيق والخذلان، والهوى والظلال، وهولا ينتفع بإيمان المؤمنين، ولا يضره كفر الكافرين مثل ما قال – سبحانه وتعالى – : ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [سورة الإسراء:٧]

ويقول المفسرون فى معنى هذه الآية ظاهره أمر، وحقيقة وعيد وإنذار. يعنى : قل يا محمد– ﷺ – لهؤلاء الغافلين، لقد ظهر الحق بتوضيح الرحمن فإن شئتم فآمنوا،وإن شئتم فأكفروا، وذلك مثل قوله تعالى في آية أُخرى:﴿....اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ....﴾ [سورة فُصِّلَت:٤٠]

وقد هيأنا للكافرين بالله ورسوله نارا حامية شديدة، أحاط بهم سورها مثل إحاطة السوار بمعصم الحسناء، وإن استغاثوا من شدة العطش فطلبوا الماء أغيثوا بماء لكنه شديد الحرارة مثل النحاس المذاب، أوكعكر الزيت المحمى يشوى وجوههم إذا قرب منهم وذلك من شدة حرة.

وفى الحديث :-

" ماء كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه ".

يعنى سقطت جلدة وجهه فيه.

نعوذ بالله من جهنم [1].

بئس ذلك الشراب الذى يغاثون به وساءت جهنم منزلاً ونقيلا يرفق به أهل النار

ويقول " القرطبى " فى معنى هذه الآية :

" قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا: أيها الناس ! من ربكم الحق فإليه التوفيق والخذلان، وبيده الهدى والضلال، يهدى من يشاء فيؤمن ويضل من يشاء فيكفر، ليس إلى من ذلك شئ، فالله يؤتى الحق من يشاء وإن كان ضعيفا، ويحرمه من

---

1 - أخرجه أحمد والترمزى.



يشاء وإن كان قوياً غنيا، ولست بطارد المؤمنين لهواكم، فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا . وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر وإنما هووعيد وتهديد .

أي إن كفرتم فقد أعد لكم النار، وإن آمنتم فلكم الجنة.

وقد اعددنا للكافرين الجاحدين ناراً أحاط بهم سرادقها .

يقول " الجوهرى " : السرادق هو أحد السرادقات التى تمد فوق صحن الدار. وكل بيت من كرسف فهوسرادق، والكرسف هوالقطن ، يقول الشاعر رؤبة :

يا حكم بن المنذر بن الجـــارود   سرادق المجـد عليـك ممـدود

وقال سلامة بن جندل :

هو المدخل النعمان بيتا ســماؤه   صدور الفيول بعد بيت مــسردق

ويقول " ابن الاعرابي " : " سرادقها " يعنى سورها.

وعن " ابن عباس " – رضى الله عنهما – : حائط من نار.

وقيل: هودخان يحيط بالكفار يوم القيامة، وهو الذى ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ [سورة المرسلات:٣٠]وقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [سورة الواقعة:٤٣]

وقيل: إنه البحر المحيط بالدنيا. وروى يعلى بن أمية قال قال رسول الله– ﷺ –: " البحر هوجهنم – ثم تلا – ناراً أحاط بهم سرادقها " – ثم قال – والله لا أدخلها أبدا ما دمت حيا ولا يصيبني منها قطرة ".

عن" أبى سعيد الخدرى" عن النبي – ﷺ – قال :

" لسرادق النار أربع جدر كثف كل جدار مسيرة أربعين سنة ".

وقيل : وهذا يدل على أن السرادق ما يعلو الكفار من دخان أونار، وجدره ما وصف.

قوله تعالى :﴿ ....وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ....﴾ [سورة الكهف:٢٩]

قال " ابن عباس " – رضى الله عنهما – : المُهْل ماء غليظ مثل درى الزيت . ومثله قول الله – عزوجل–:﴿....وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [سورة محمد:١٥]

والإسلام يحرص ، ويوصى بأن تغرس فضيلة الصدق في المؤمنين جميعا وخاصة في نفوس الناشئة ، والأطفال حتى يشبوا عليها ، ويعتادونها ويتخلقون بها .

فعن " عبد الله بن عامر " قال : " دعتني أمي يوما ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - قاعد في بيتنا ، فقالت : تعال هاك أعطيك فقال لها رسول- الله - صلى الله عليه وسلم -: وما أردت أن تعطيه؟ قالت : تمرا .

فقال لها رسول الله- صلى الله عليه وسلم -: أما إنك لولم تعطه شيئاً كُتِبَت عليك كذبة "(١) .

عَن أَبِى هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - أَنَّهُ قَالَ :

" من قَالَ لِصَبِىٍّ تَعَالَ هَاكَ ثُمَّ لَمْ يُعْطِه فَهِىَ كَذْبَةٌ " (٢) .

فأنظر كيف يعلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الأمهات والآباء تربية أولادهم حتى ينشأوا على الصدق ، وتجنب الكذب .

قال - صلى الله عليه وسلم -: " الصدق منجاة ، ولوكانت فيه الهلكة " يعنى : ولوظن أن في الصدق هلاكه فهومنجاة له .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " ويل للذى يحدث بالحديث ليضحك منه القوم فيكذب، ويل له ، ويل له " (٣) .

وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا : " عبد الله ورسوله " .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : " أمرنا رسول الله- صلى الله عليه وسلم - أن نحثوا في وجوه الداحين التراب " (٤) .

والمقصود هؤلاء الذين اتخذوا المديح للمادحين ، والاستجداء ، والتكسب . فيمدحون الناس بما ليس فيهم تزلفاً ونفاقاً ، وابتغاء عرض دنيوى دنئ ، أما الذى يصف الرجل بما هو أهل له فليس داخلاً فى هؤلاء حيث إنه صادق ، ومن الواجب أن نمتدح المخلصين الصادقين الاوفياء لنشجعهم على الخير وفعله والاستمرار فيه ، وحتى يقتدى بهم غيرهم.

فعن **"** أبى بكر **"** قال :-" أن رجلا ذكر عند النبي- صلى الله عليه وسلم -: فأثنى عليه رجل خيرا فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: (ويحك قطعت عنق صاحبك - يقوله مراراً - إن كان أحدكم مادحا لا محالة فليقل أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك والله حسيبه ولا يزكي على الله أحدا (٥).

1- رواه ابوداود .
2 - رواه أحمد .
3 - رواه الترمزى .
4- رواه الترمزى .
5 - رواه البخارى .

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى تمتدح الصدق ، والصادقين قوله تعالى : ﴿وَٱذۡكُرۡ فِى ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [سورة مريم:٤١] .

وقوله تعالى :- ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيًّا﴾ [سورة مريم:٥٠]

وقوله-سبحانه وتعالى-: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِى ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [سورة مريم:٥٦]

فأنظر أخى المسلم ، وأختى المسلمة إلى قول الحق – سبحانه وتعالى – في سيدنا " إبراهيم "- عليه السلام- إنه كان صديقاً نبياً ، فهى مبالغة في كونه صادقاً ، وهوالذى يكون عادته الصدق ، لأن هذا البناء ينبئ عن ذلك ، وهوالذى يكون كثيرالصدق في الحق حتى يصير مشهوراً به معروفاً ، لأن المصدق بالشيء لا يوصف بكونه " صديقاً " إلاَّ إذا كان صادقاً في ذلك التصديق .

فالمؤمنون بالله ورسله صادقون في ذلك التصديق ، والنبى - ﷺ -: يحب أن يكون صادقا في كل ما أخبربه ، وأخبرعنه ، لأن الله - سبحانه وتعالى- صدقه ، ومصدق الله صادق ، وإلاَّ لَزِمَ الكذب في كلام الله تعالى فيلزم من هذا كون الرسول صادقا في كل ما يقول ، ولأن الرسل شهداء الله على الناس على ما قال الله – سبحانه وتعالى – .

قال تعالى : ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾﴾ [سورة النساء:٤١]

والشهيد إنما يقبل قوله إذا لم يكن كاذبا .

أما قوله - سبحانه وتعالى- في سيدنا إبراهيم - عليه السلام- ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا ...﴾ [سورة الأنبياء:٦٣] ، وقوله تعالى : ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٞ﴾ [سورة الصافات:٨٩]ليس كذبا .

فقوله تعالى " بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا " سخرية واستهزاءً بهم حيث إن الأصنام لا تفعل ، ولا تنفع ، ولا تضر .

ويقول **"** ابن كثير **"**- رحمه الله تعالى - : " قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا " .

يعنى الصنم الذى تركه ولم يكسره ، فسألوهم إن كانوا ينطقون ، وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون، فإن هذا لا يصدرعن هذا الصنم، لأنه جماد .

وفي الصحيحين من حديث هشام بن حسان عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله - ﷺ - قال: "إن إبراهيم، عليه السلام، لم يكذب غير ثلاث: إثنتين في ذات الله ، قوله : " قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا " وقوله : " إِنِّى سَقِيمٌ " .

قال: " وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة ، إذ نزل منزلاً فأتى الجبار رجل، فقال: إنه قد نزل بأرضك رجل معه امرأة أحسن الناس ، فأرسل إليه فجاء .

فقال: ما هذه المرأة منك ؟

قال: هي أختي .

قال: فاذهب فأرسل بها إليّ ، فانطلق إلى سارة .

فقال: إن هذا الجبار سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده فإنك أختي في كتاب الله ، وأنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك ، فانطلق بها إبراهيم - عليه السلام- ثم قام يصلي . فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها، فتناولها ، فأخذ أخذاً شديداً .

فقال: ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت له فأرسل ، فأهوى إليها ، فتناولها فأخذ بمثلها أوأشد . ففعل ذلك الثالثة فأخذ، مثل المرتين الأوليين .

فقال : ادعي الله فلا أضرك. فدعت له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابه.

فقال: إنك لم تأتنَ بإنسان ، وإنما أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت ، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته قال: مَهْيَم؟ قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر، وأحدمني هاجر" .

قال محمد بن سيرين وكان : أبوهريرة إذا حدث بهذا الحديث قال: فتلك أمكم يا بني ماء السماء .

وقوله " كان صديقا " . يعنى : - عليه السلام – من أول وجوده إلى انتهاءه موصوفاً بالصدق والأمانة. وهذه الأصنام " لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تغنى عنك شيئاً .

ويقول بعض المفسرين في معنى هذه الايى :

" وأذكر يا محمد - ﷺ - في الكتاب العزيز " خليل الرحمن " إبراهيم – عليه السلام – إنه كان ملازماً للصدق ومبالغاً فيه جامعا بين الصديقية والنبوة ، والغرض من هذا تنبيه العرب إلى فضل سيدنا " إبراهيم " الذى يزعمون الانتساب إليه ثم بعد ذلك يعبدون الأصنام والاوثان مع إنه إمام الحنفاء ، وقد جاء بالتوحيد الصافى الذى دعاهم إليه خاتم المرسلين .

ويقول الحق- سبحانه وتعالى- في معنى الصدق :﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [سورة مريم:٥٠]

يعنى : أعطينا الجميع وهم " إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، " كل الخير الدينى والدنيوى من المال والولد ، والعلم والعمل ، وجعلنا لهم ذكراً حسنا في الناس ، لأن جميع أهل الملل ، والأديان يثنون عليهم لما لهم من الخصال المرضية ويصلون على إبراهيم – عليه السلام – وعلى آله إلى قيام الساعة .

ويقول الامام " الطبرى : " أى رزقناهم الثناء الحسن ، والذكر الجميل فى الناس .

ويواصل القرآن الكريم فى الحديث عن فضيلة الصدق ، وامتداحه إياه فيقول سبحانه :-﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [سورة مريم:٤١] .

والمراد : " واذكر يا محمد – صلى الله عليه وسلم – في الكتاب الجليل خبر " إدريس " إنه كان ملازماً للصدق في جميع أحواله ، وموحى إليه من الله – سبحانه وتعالى – .

ويقول المفسرون إن " إدريس " هو" جدّ " سيدنا " نوح "- عليهما السلام- وأول مرسل بعد " آدم "- عليه السلام - . وهوأول من خط بالقلم ولبس " المخيط " وكانوا من قبل يلبسون الجلود ، وقد أنزل الله تعالى عليه " ثلاثين صحيفة " .

دينكم الصدق فى القول ، والعمل ، وهوالذى تحلى به الأنبياء والمرسلين ، وهم قدوة حسنة لنا فمن واجب المسلم والمسلمة الاقتداء بهؤلاء الهداة الذين يعدون قدوة حسنة لأممهم وشعوبهم حتى تسود فضيلة الصدق وينمحى الكذب الذى يؤدى إلى الفجور ، والفجور يؤدى إلى النار وفوق ذلك يستمرئ المرء الكذب ويتمادى فيه حتى يكتب عند الله كذابا . أما فضيلة الصدق فإن المسلم إذا اعتادها يظل متمسكا بها حتى يستمر عليها فيصدق في قوله ، وعمله ، حتى يكتب عند الله صديقا . اللهم اجعلنا من الذين يصدقونك قولاً ، وعملاً ، حتى ترضى عنا ونفوز بسعادة الدارين ...... آمين .

وقال تعالى في سيدنا " إسماعيل " – عليه السلام – :﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [سورة مريم:٥٤]

يعنى : كان صادق الوعد اذ وعد من نفسه لصبر على ذبح أبيه ، وصبر على ذلك إلى أن ظهر الفداء .

وصدق الوعد لأنه حفظ العهد .

وقوله :﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [سورة مريم:٤١] .

فالصديق كثير الصدق ، لا يشوب صدقه مذق يعنى لا تشوب صدقه شائنه فهوصدق خالص لا يخالطه زيف ولا كذب ، ويكون قائما بالحق للحق ، ولا يكون فيه نفس لغير الله .

ويمتدح القرآن هذه الخصلة في أكثر من سورة ، وأكثر من آية في كتابه العزيز ، فيقول في موطن اخر من كتاب الله : ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة الشعراء:٨٤:٨٥]

والمعنى : واجعل لى ذكرا حسنا ، وثناء عاطرا فيمن يأتى بعدى إلى يوم القيامة ، أذكر به ، ويقتدى بى . يقول أهل العلم : " وفي الآية دليل على استحباب كسب الذكر الجميل اذ هوالحياة الثانية ، وأنشدوا : قد مات قوم وهم في الناس أحياء ويقول " ابن عباس " – رضى الله عنهما – :

" هواجتماع الأمم عليه ، فكل أمة تتمسك به وتعظمه .

ويقول الله-عز وجل- في الصدق: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾[سورة الشعراء:٨٤:٨٥]

وهى دعوة تدفعه اليها الرغبة في الامتداد لا بالنسب ، ولكن بالعقيدة فهويطلب إلى ربه أن يجعل له فيمن يأتون أخيراً لسان صدق يدعوهم إلى الحق ويردهم إلى الحنيفية السمحاء ، وهى " دين إبراهيم " – عليه السلام – .

ولعلها هى دعوته في موضع آخر ، اذ يرفع قواعد البيت الحرام هووابنه " إسماعيل " – عليه السلام- ثم يقول : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [سورة البقرة١٢٨: ١٢٩]

وقد استجاب الله له ، وحقق دعوته ، وجعل له لسان صدق في الاخرين وبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .

وكانت الاستجابة بعد آلاف السنين ، وهى في علاف الناس أمد طويل وهى عند الله أجل معلوم تقتضى حكمته أن تتحقق الدعوة المستجابة فيه .

ويقول " ابن كثير " – رحمه الله تعالى – : " يعنى الثناء الحسن " .

ويقول " مجاهد "-رضى الله عنه- : "كقوله تعالى:" ... وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ....".

ومثل قوله تعالى: " ...وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ..." ، وأنعم عَلَيَّ في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدى ، وفي الآخرة بأن تجعلنى من ورثة جنة النعيم (1) .

ويقول الله سبحانه فى معنى الصدق : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [سورة العنكبوت:٣]

والمعنى : فليعلمن اللّه الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هوكاذب في قوله ، ودعواه ، واللّه - سبحانه وتعالى- يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لوكان كيف يكون ، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة ، وبهذا يقول " ابن عباس " - رضى اللّه عنهما- وغيره فى مثل قوله " الا لنعلم " إلاَّ لنرى .

وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية ، فأنه يتعلق بالمعدوم والموجود .

واللّه يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ، ولكن الابتلاء يكشف فى عالم الواقع ما هومكشوف لعلم اللّه . مغيب عن علم البشر ، فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا مجرد ما يعلمه - سبحانه وتعالى - من أمرهم .

وهو فضل من اللّه من جانب وعدل من جانب آخر ، وتربية للناس من جانب ، فلا يأخذوا أحداً إلاَّ بما استعلن من أمره ، وبما حققه فعله ، فليسوا بأعلم من اللّه بحقيقه قلبه. ويقول بعض المفسرين فى معنى هذه الآية :

" ولقد أخبرنا ، وامتحنا من سبقهم بأنواع التكاليف ، والمصائب والمحن .

يقول **" البيضاوى "** : " والمعنى أن ذلك سنة قديمة جارية في الأمم كلها فلا ينبغي أن يتوقع خلافه﴿...فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[سورة العنكبوت:٣] . فليتعلقن علمه بالامتحان تعلقاً حالياً يتميز به الذين صدقوا في الإيمان والذين كذبوا فيه

1- تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ١٨٢ ، ص ٣٣٨ .
- تفسير الطبرى جـ١٦ ، ص ٩٣ .
- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٦٩٩.
- مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ ، ص ٤٥٦ .
- حاشية الصاوى على الجلالين جـ ٣، ص ١٧٥.
- تفسير القرطبى جـ ١٣ ، ص ١١٤ .
- تفسير الطبرى جـ ١٩ ، ص ٥٥.
- فى ظلال القرآن الكريم للامام الشهيد سيد قطب جـ٥ ، ص ٢٦٠٤.
- مفاتيح الغيب للرازى جـ ١٠ ، ص ٤٦٤ وما بعدها .
- لطائف الاشارات جـ ٢ ، ص ٤٣٣ .



وينوط به ثوابهم وعقابهم ولذلك قيل المعنى وليميزن أوليجازين ، أي وليعرفنهم الله الناسأوليسمنهم بسمة يعرفون بها يوم القيامة كبياض الوجوه وسوادها . وعبر عن الصادقين بلفظ " الفعل " "الذين صدقوا " ، وعن الكاذبين " باسم الفاعل " وذلك للإشارة إلى أن الكاذبين وصفهم مستمر ، وأن الكذب راسخ فيهم بخلاف الصادقين فإن الفصل يفيد التحدد والحدوث .

ويقول الامام " الفخر الرازى " : " إن اسم الفاعل فائدة مع أن الاختلاف في اللَّفظ أدل على الفصاحة ، وهي أن اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضي لا يدل عليه كما يقال فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر وفلان نفذ أمره وفلان نافذ الأمر فإنه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ، ومن اسم الفاعل يفهم ذلك إذا ثبت هذا فنقول وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبي العهد بالإسلام في أوائل إيجاب التكاليف وعن قوم مستديمين للكفر مستمرين عليه فقال في حق المؤمنين.

ويقول الله -عز وجل- فى معنى الصدق:- ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [سورة الأحزاب:٨]

ومعناه ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الصادقين عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم .

يقول " الصاوى " : " والحكمة في سؤال الرسل مع علمه تعالى بصدقهم هو: التقبيح للكافرين يوم القيامة ، وتبكيتهم .

ويقول " القرطبى " : " وفي الآية تنبيه على أن الأنبياء يسألون ، فكيف بمن سواهم؟ وقال مجاهد أيضاً : " ليسأل الصادقين " ، أراد المؤدين عن الرسل . . وسؤال الرسل تبكيت للكافرين بهم ، كما قال تعالى لعيسى – عليه السلام – :

" أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله " وقال تعالى : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [سورة الأعراف:٦]

أن الله أكد على الأنبياء الدعاء إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين . ﴿....وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [سورة الأحزاب:٨]

يعنى : وأعد الله للكافرين عذاباً مؤلماً موجعاً ، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم عن قبول الحق والصادقون هم المؤمنون .

فهم الذين قالوا كلمة الصدق ، واعتنقوا عقيدة الصدق ، ومن مواهم فهوكاذب ، لأنه يعتقد بالباطل ، ويقول كلمة الباطل ، ومن ثم كل كان هذا الوصف دلالته وإيحاؤه ،

وسؤالهم عن صدقهم يوم القيامة كما يسأل المعلم التلميذ النجيب الناجح عن إجابته التى استحق بها النجاح والتفوق ، أمام المدعويين لحفل النتائج ، وهوسؤال التكريم ، وللإعلان على رؤوس الأشهاد وبيان الاستحقاق ، والثناء على المستحقين للتكريم في يوم الحشر العظيم .

فأما غير الصادقين الذين دانوا بعقيدة الباطل ، وقالوا كلمة الكذب في أكبر قضية يقال فيها الصدق ، أويقال فيها الكذب " قضية العقيدة " .

فأما هؤلاء فلهم جزاء آخر حاضر مهيأ لهم ، ينتظرهم وهوا لمعنى والمقصود في قوله - سبحانه وتعالى-:

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ الأحزاب:٨]

ويقول الله تعالى في معنى الصدق أيضا :- ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢٤:٢٥]

والمعنى : ولقد كان من اولئك المؤمنين رجال صادقون ، نذروا أنفسهم إذا أدركوا حربا مع رسول الله - ﷺ - ثبتوا ، وقاتلوا حتى ينالوا ثواب الشهادة في سبيل الله ، ومرضاة الرسول- ﷺ -. فمنهم من وفي نذره وعهده حتى نال الشهادة في سبيل الله مثل "أنس بن النضير" و" حمزة "- رضى الله عن الصحابة أجمعين - .

ومنهم من ينتظر الشهادة في سبيل الله ، وما غيروا عهدهم ، وما بدلوا نياتهم ، ليجزى الله الصادقين بسبب صدقهم ، وحسن صنيعهم أحسن الجزاء في الآخرة ، ويعذب المنافقين الناقضين للعهود إن الله واسع المغفرة ، رحيما بعباده .

يقول " ابن كثير" — رحمه الله تعالى - :" ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى هى الغالبة لغضبه ، ختم بها الآية الكريمة . وبالتأمل في هذه الآية نجد أن الله- عز وجل- بين لنا صفات المجاهد في سبيل الله .

وهى :-

أولا : الإيمان . فقال تعالى " مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ "

ثانيا : الرجولة . حيث قال – سبحانه وتعالى - :" رِجَالٌ "

ثالثا : الصدق في تنفيذ العهود .

فقال تعالى : " صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ " .

فمنهم من وفي وقضى نحبه واستشهد في سبيله - سبحانه وتعالى- ومنهم من ينتظر أن يلقى الله شهيداً ، وما بدلوا عهدهم ، وما غيروا نياتهم فلذلك نالوا الأجر الجزيل من الله تعالى في الدنيا بالسيرة العطرة ، والأسوة الحسنة ، وفي الدار الآخرة الفوز بجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وحسنت مرتفقا .

ويقول الامام " الفخر الرازى ":- "والآية إشارة إلى وفائهم بعهدهم الذي عاهدوا الله أنهم لا يفارقون نبيه إلا بالموت فمنهم من قضى نحبه أي قاتل حتى قتل فوفى بنذره والنحب النذر ومنهم من هوبعد في القتال ينتظر الشهادة وفاءً بالعهد وما بدلوا تبديلاً بخلاف المنافقين ، فإنهم قالوا : لا نولي الأدبار فبدلوا قولهم وولوا أدبارهم ، وقوله : " لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ "

أي بصدق ما وعدهم في الدنيا والآخرة كما صدقوا مواعيدهم ويعذب المنافقين الذين كذبوا واخلفوا الله ما وعدوه.

وقوله : " والله إن شاء " ذلك فيمنعهم من الإيمان أويتوب عليهم إن أراد وإنما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل يأس النبي- عليه الصلاة والسلام - عن إيمانهم وآمن بعد ذلك ناس منهم وقوله : " ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا "

حيث ستر ذنوبهم و"رَّحِيمًا " حيث رحمهم ورزقهم الإيمان فيكون هذا فيمن آمن بعده أوفقال تعالى : " وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ " مع أنه كان غفوراً رحيماً لكثرة ذنبهم وقوة جرمهم ولو كان دون ذلك لغفر لهم ثم بين بعض ما جازاهم الله به على صدقهم . ثم يبين الله-عز وجل- بعض ما جزاهم الله لصدقهم .

فقال : ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ....﴾ [سورة الأحزاب:٢٥]

أي مع غيظهم لم يشفوا صدراً ولم يحققوا أمراً .

{.... وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ....} أي لم يحوجهم إلى قتال".... وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا...." غير محتاج إلى قتالهم عزيزاً قادراً على استئصال الكفار وإذلالهم .

هذا جزاء الصدق وثواب الصادقين ، فهم مُثُلٌ عُلْيًا ، ونماذج من طُرُزٍ فريد (١).

1 - التفسير الكبير جـ ١٢ ، ص ٥٨٥ بتصرف .
- مختصر ابن كثير جـ ٣ ، ص ٨٨ بتصرف .
- حاشية الصاوى جـ ٣ ، ص ص ٢٧٠.
- مختصر ابن كثير جـ ٣ ، ص ٨٩ بتصرف .
- صفوة التفاسير للصابونى جـ ٢ ، ص ٥٢١ بتصرف .

ويقول الله- عز وجل- في معنى الصدق أيضا :﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة الزُّمَر ٣٤: ٣٥]

والمعنى : وأما الذين جاءوا بالصدق وهم الأنبياء ، والذين صدقوا به وهم المؤمنون أتباع الرسل ، فهؤلاء المصدقون بهذه الصفات هم المتقون ، أهل التقوى والصلاح الذين يستحقون كل إحسان وإكرام . هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الحميدة لهم ما يشاءون عند ربهم فى الآخرة من حور عين ، وقصور ونعيم مقيم إلى غير ذلك من ألوان الملذات وصنوف النعيم، حيث إن في الجنة ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على فِكر بشر .

قال تعالى :﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة البقرة:٢٥]

وقال تعالى :-﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الرعد:٣٥]

وذلك جزاء الصادقين والمحسنين .

ويقول بعض المفسرين : " الذى جاء بالصدق هو" محمد "- ﷺ - ، وصدق به "أبوبكر " – رضى الله عنه – ، وهذا مروى عن مجاهد وقتادة ، ويقول السدى هو: جبريل – عليه السلام – ، والصحيح والراجح أن الآية عامة في الانبياء والرسل والمؤمنين ، فهى عامة حتى يشترك فى هذه الصفة كل الرسل الكرام ، وكل من دعا إلى هذا الصدق عن عقيدة وإيمان من أتباع الرسل – عليهم السلام – ، ويدل عليه قوله – سبحانه وتعالى- :" أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ " .

ولذلك نرى قوله – سبحانه وتعالى – : " هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ " أتت بصيغة الجمع .

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما- قال : " وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ " قال: من جاء بلا إله إلا الله، " وَصَدَّقَ بِهِ " يعني: رسول الله – ﷺ – وعن مجاهد أنه قال : والذى جاء بالصدق وصدق به ، قال : " أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة فيقولون هذا ما أعطيتمونا فعملنا فيه بما أمرتمونا و يشمل كل المؤمنين فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به والرسول- ﷺ - أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير فإنه جاء بالصدق ، وصدق المرسلين ، وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ، ورسله وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم :

" والذي جاء بالصدق" هورسول الله- ﷺ - " وصدق به " قال المسلمون " أولئك هم المتقون " .

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : اتقوا الشرك .

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ...﴾ يعني في الجنة مهما طلبوا وجدوا ، ﴿...ذَٰلِكَ جَزَآءُ

﴾ [سورة الزُّمَر:٣٥]

كما قال - عز وجل- في الآية الأُخرى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة سورة الأحقاف:١٦] (1) .

فالاسلام يحث ويحض المسلم على الصدق فى جميع أقواله وأفعاله فإن الحيف في الشهادة مثلا يعد من أشنع ألوان الكذب ، فمن الواجب على المسلم أن يَصْدِق في الشهادة ولوكان ذلك على أدنى الناس منه قرابة ، أوأحبهم إليه لا تميل به قرابة ، ولا عصبية ، ولا رغبة ولا رهبة . فَتَزْكِيـــة المرشحين مثلا لعضوية مجلس الشورى أو مجلس الشعب ، أو منصب من المناصب العامة يعد لونا من ألوان الشهادة ، فالذى ينتخب المغموط في كفايتة ، وأمانته ، فقد كذب وزور ولم يقم بالقسط والعدل ، كما أن التقارير التى يكتبها أى مسئول مثل التقارير التى تكتب في الأشخاص الذين يتقدمون لشغل درجات علمية ، أومناصب قيادية كالقضاء والنيابة والكليات العسكرية ، وهى شهادة يسأل عنها امام الله يوم القيامة إذا ما زور في تقريره وكتب له أشياءً لا يملكها المتقدم لشغل هذا المنصب كما نرى في عصرنا هذا . يقوم بكتابة تقرير يثبت فيه أن هذا المتقدم يملك حيازة لأكثر من عشرين فدانا ، أوحظيرة خيول ، وعقارات ، وعمارات وهو لا يملك من حطام الدنيا شيئاً . فتلك الأمور تزوير وحيف وجور وظلم لأنه بذلك التقرير ربما يشغل مقعداً كان من الواجب أن يشغله غيره ، فبالتقارير الظالمة يقع الجور والظلم وهومُنَـــافٍ للصدق الذى يجب أن يتخلق به المؤمن .

قـــال تعـــالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [سورة النساء:١٣٥]

1 - تفسير ابن كثير جـ ٤ ، ص ٣٥- ٥٤.

◘ صفوة التفاسير للصابونى جـ ٣ ، ص ٧٩ – ٨٠ .

وعن أبى بكرة – رضى الله عنه – قال : " قال رسول الله- ﷺ -:
" أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ » .
ثَلاَثًا . قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ .
قَالَ « الإِشْرَاكُ بِاللَّه ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ » .
وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ « أَلاَ وَقَوْلُ الزور » .
قَالَ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ (١).

إن التزوير كذب كثيف الظلمات . إنه لا يكتم الحق فحسب ، بل يمحقه ليثبت مكانه الباطل ، وخطره على الأفراد في القضايا الخاصة ، وخطرة على الأمم في القضايا العامة شديد مُبيد .

ومن ثم خوّف رسول الله - ﷺ - منه على هذا النحو الصارخ ، وعلى أرباب الحرف والصناعات ، أن يجعلوا من كلمتهم قانونا مرعى الجانب يقضون عنده ، ويستمسكون به ، فإنه لمن المؤسف أن تكون الوعود المخلفة ، والحدود المائعه عادة مأثورة عن كثير من المسلمين ، مع أن دينهم جعل الوعود الكاذبة أمارة النفاق . وقد كان رسول الله - ﷺ - يقدس الكلمة التى يقول ، ويحترم الكلمة التى يسمع ، وكان ذلك شارة الرجولة الكاملة فيه ، حتى قَبْل أن يُرسل إلى الناس .

فعن " عبد الله بن أبى الحمساء "قال:" بايعت النبي- ﷺ - ببيع قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فإذا هو في مكانه.

فقال : " يا فتى لقد شققت علي أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك " (٢) .

وحدث أن الرسول ، وعد جابر بن عبد الله بعطاء ، فقال جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ - رضى الله عنهما - قَالَ لِى رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -
« لَوقَدْ جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ لَقَدْ أَعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا ثَلاَثًا » .

فَلَمْ يَقْدَمْ مَالُ الْبَحْرَيْن حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى أَبِى بَكْرٍ أَمَرَ مُنَادِياً فَنَادَى مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ النَّبِىِّ - ﷺ - دَيْنٌ أَوعِدَةٌ فَلْيَأْتِنى .

قَالَ جَابِرٌ فَجِئْتُ أَبَا بَكْرٍ ، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّ النَّبِىَّ - ﷺ - قَالَ « لَوجَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أَعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا ثَلاَثًا » . قَالَ فَأَعْطَانِى .

1- رواه البخارى .
2- رواه ابوداود.



قَالَ جَابِرٌ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ فَسَأَلْتُهُ ، فَلَمْ يُعْطِنِ ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَلَمْ يُعْطِنِ ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ الثَّالِثَةَ فَلَمْ يُعْطِنِ ، فَقُلْتُ لَهُ قَدْ أَتَيْتُكَ فَلَمْ تُعْطِنِ ، ثُمَّ أَتَيْتُكَ فَلَمْ تُعْطِنِ ، ثُمَّ أَتَيْتُكَ فَلَمْ تُعْطِنِى، فَإِمَّا أَنْ تُعْطِيَنِ ، وَإِمَّا أَنْ تَبْخَلَ عَنِّى .

فَقَالَ أَقُلْتَ تَبْخَلُ عَنِّى وَأَىُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ - قَالَهَا ثَلاَثًا- مَا مَنَعْتُكَ مِنْ مَرَّةٍ إِلاَّ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَكَ .

وَعَنْ عَمْرٍو عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِىٍّ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ جِئْتُهُ ، فَقَالَ لِى أَبُو بَكْرٍ عُدَّهَا .

فَعَدَدْتُهَا فَوَجَدْتُهَا خَمْسَمِائَةٍ ، فَقَالَ خُذْ مِثْلَهَا مَرَّتَيْنِ . أطرافه (١) .

أنظر أخى المسلم كيف تُـوزَن الكلمة ، ويوجب تنفيذها حتى لا تذهب هباءً مع اللَّغو الضائع ، على أن الوعود الكاذبة ليست فقط كلاما يذهب سُدى ولكنها خرق للمصالح، وإضرار بالناس ، وإهدار للأوقات ، وليس صدق الوعد خلة تافهة ، إنها محمدة ذكرها الله - عز وجل - في مراتب النبوة قال تعالى :﴿ وَٱذۡكُرۡ فِى ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [سورة مريم:٥٤:٥٥]

وسرد الصفات على هذا النحو والترتيب يدلك على ما لصدق الوعد من مكانة ، ولقد كان " إسماعيل " - عليه السلام -أصدق الناس وعدا حين قال لأبيه : " ستجدنى إن شاء الله من الصابرين " .

لما قال له أبوه : ﴿...إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلۡمَنَامِ أَنِّىٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ...﴾ [سورة الصافات:١٠٢]

وقد يندفع الإنسان إلى الكذب حين يعتزر عن خطأ وقع فيه ، ويحاول التملص من عواقبه ، وهذا غباء وهوان ، وهو فرار من الشر إلى مثله أو أشد والواجب أن يعترف الإنسان بغلطه ، فعلل صدقه في ذكر الواقع ، وألمسه لما بدر منه يمسحان هفوته ، ويغفران ذلته ، ومهما هجس في النفس من مخاوف - إذا قيل الحق - فالأجدر بالمسلم أن يتشجع ، وأن يتحرج من لوثات الكذب ، قال رسول الله- ﷺ -:

" تحروا الصدق وإن رأيتم فيه الهلكة فيه ، فإن فيه النجاة " (٢) .

1- رواه البخارى .
2- رواه ابن ابى الدنيا



وقال- ﷺ -: " إذا ما كذب العبد تباعد الملك عنه من نتَنَ ما جاء به " (1) .

والصدق في الاقوال يتأدى بصاحبه إلى الصدق في الأعمال ، والصلاح في الأحوال ، فإن حرص الإنسان على التزام الحق فيما ينطق به يجعل ضياء الحق يسطع على قلبه ، وعلى فكره ولذلك يقول الله – سبحانه وتعالى - : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [سورة الأحزاب:٧٠:٧١]

والعمل الصادق هوالعمل الذى لا ريبة فيه لأنه وليد اليقين ، ولا هوى معه لأنه قرين الاخلاص ، ولا عوج عليه لأنه نبع من الحق ، ونجاح الأمم فى أداء رسالتها يعود إلى جملة ما يقدمه بنوها من أعمال صادقة .

فإن كانت ثروتها من صدق العمل كبيرة ، سبقت سبقاً بعيداً ، والا سقطت في عرض الطريق ، فإن التهريج واللغط ، والادعاء والهزل ، لا تغنى قليلا عن أحد .

وفي فضيلة الصدق يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾ [سورة الحُجُرات:١٥]

والمعنى : إنما المؤمنون الصادقون في دعواهم الإيمان ، هم الذين صدقوا الله ورسوله ، فأقروا الله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة وذلك عن يقين راسخ وايمان كامل ، ثم لم يشكوا ، ولم يتزلزلوا في ايمانهم ، بل ثبتوا على التصديق واليقين ، وبذلوا أموالهم في سبيل الله ، وابتغاء رضوان الله تعالى .

فأولئك الذين صدقوا في إدعاء الإيمان ، وقد وصف الله تعالى المؤمنين الكاملين بثلاثة أوصاف وهى :

- ☒ الصفة الاولى : التصديق الجازم بالله .
- ☒ الصفة الثانية : عدم الشك والارتياب .
- ☒ الصفة الثالثة : الجهاد بالمال والنفس .

فمن جمع هذه الأوصاف فهوالمؤمن الصادق .

يقول **"ابن كثير"**:" إنما المؤمنون الكمل " الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا " .

1- رواه الترمزى .

أي لم يشكوا ولا تزلزلوا بل ثبتوا على حال واحدة هي التصديق المحض" وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله"أي وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه .

" أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ " .

أي في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة .

وعن أبي سعيد - رضي الله عنه - قال : إن النبي- ﷺ - قال : " المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء :

أولا: الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله .

ثانيا : والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم .

ثالثا : والذي إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل" .

وقوله - سبحانه وتعالى- : ﴿ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ .... ﴾ [سورة الحُجُرات:١٦]

أي أتخبرونه بما في ضمائركم . " والله يعلم ما في السموات وما في الأرض " .

أي لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. "والله بكل شيء عليم " .

ويقول الله تعالى : " يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُم ". والمعنى : يمنون عليك أن اسلموا ، ويعنى بذلك الأعراب الذين يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول - ﷺ - .

وقد وردت هذه اللَّفظة في القرآن الكريم عشر مرات،ست آيات في سورة " التوبة " وآياتان في سورة " الفتح " ، وآية في " الحجرات "والعاشرة في سورة " الأحزاب " .

وقد أجمع المفسرون أن المراد بالاعراب هم سكان البوادى الذين يتفردون بالغلظة وجفاء الطبع ، وقساوة الافئدة ، ولذلك لم يبعث الله فيهم نبيا ولا رسولاً ، بل كانت البعثة في أهل القرى .

يقول الله -سبحانه وتعالى- : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [سورة يوسف:١٠٩]

وقال - ﷺ -: " من سكن البادية جفى " .

هؤلاء الإعراب الذين يمنون بإسلامهم ونصرهم على الرسول- ﷺ - فيقول الله ردا عليهم. " قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُم " .

فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ، ولله المنة عليكم فيه ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين في دعواكم مثل ما قال النبى- ﷺ - للأنصار يوم " حنين " : " يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضِلالاً فهداكم الله بي ؟وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟ " .

فكلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمن .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاءت بنوأسد إلى رسول الله- ﷺ -.

فقالوا : يا رسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك .

فقال رسول الله- ﷺ -:" إن فقههم قليل ، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم " .

فنزلت هذه الاية :﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة الحُجُرات:١٧]

فالمراد : أن هؤلاء يعدون إسلامهم منة على سيدنا محمد - ﷺ - يستوجبون عليها الحمد والثناء ، فقل لهم : " لا تمنوا عَلَيَّ إسلامكم " .

فإن نَفْعّ إسلامكم يعود عليكم ، ولله المنة العظمى عليكم ، وذلك بالهداية للإيمان ، والتثبيت عليه ، إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان [1] .

ويقول الله فى فضيلة الصدق :-﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة الحديد:١٩]

والمعنى : تلك خاصية هذا الدين ، وميزته . إنه طريق مفتوح لجميع البشر وأفق يتطلع إليه الجميع ، ليس فيه احتكار للمقامات وليس فيه خصوصيات محجوزة لناس بأعينهم ، وليس إلاَّ العمل يصعد بصاحبه إلى ارقى الدرجات ؟

إنه دين لا مجال فيه للطبقات المحفوظة المقام . فقد روى الامام " مالك " في " الموطأ " عن صفوان بن سليم ، عن عطاء بن يسار : " قال :" إن أهل الجنة ليتراؤن أهل الغرف من فوقهم كما تتراؤن الكوكب الدرى الغابر في الأفق من المشرق أوالمغرب ، لتفاضل ما بينهم " . قالوا يا رسول الله : " تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم .

قال: " بلى ، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين " فهذه لمسة الإيمان .

1- تفسير ابن كثير جـ ٤ ، ص ٢١٩ وما بعدها بتصرف .
◘ صفوة التفاسير للصابونى ، جـ ٣ ، ص ٢٣٨ بتصرف .



ويقول بعض المفسرين: "والذين آمنوا برسله إيماناً راسخاً كاملاً لا يخالجه شك ، ولا ارتياب أولئك الموصوفون بهذه الصفات هم الذين جمعوا أعلى المراتب فحازوا درجة الصديقية .

ويقول الله تعالى فى فضيلة الصدق :- ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة الحشر:٨]

والمعنى : يقول الله تعالى مبينا حال الفقراء المستحقين لمال الغنى والغنائم ، الذين خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضات الله ورضوانه .

هؤلاء هم الذين صدقوا قولهم بفعلهم ، وهؤلاء هم سادات المهاجرين (١) .

وهذه الآية تتعلق بالآية السابقة التى تحكى حكم الفئ كأنه يقول : " الفيء والغنائم لهؤلاء الفقراء المهاجرين الذين ألجأهم كفار مكة إلى الهجرة من أوطانهم ، فتركوا الديار والأموال ابتغاء مرضات الله ورضوانه وهم يقصدون بهجرتهم هذه إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ، وتأييد رسول الله - ﷺ - فهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الحميدة هم الصادقون في ايمانهم .

يقول " قتادة " – رضى الله عنه – هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهل والوطن حبا لله ورسوله ، حتى إن الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع . فؤلاء هم الصادقون في الإيمان الفارون بدينهم من الأوطان في سبيل الله ونصرة دينه ، وتأييد نبيه- ﷺ - ذلك هو الصدق الحق في القول والعمل ، فإن أفعالهم كانت دليلاً حاسماً على صدق ايمانهم ، وثبات عقيدتهم ورباطة جأشهم ، وتضحيتهم بكل غالٍ ومرتخص في سبيل هذا الدين العظيم ، الذى عم الكون نوره ، وأضاء الدنيا بالحق والعدل والخير ، والحب ، والصدق ، والجمال . إنه الإسلام(٢) .

---

1 - فى ظلال القرآن الكريم ، جـ ٦ ، ص ٣٤٩٠ بتصرف .
- تفسير البحر المحيط .
- تفسير مختصر ابن كثير .
- تفسير الخازن .

2 - تفسير القرطبى جـ ١٨ ، ص ١٩ – ٢٠ بتصرف .
- تفسير الخازن جـ ٤ ، ص ٦٢ .
- صفوة التفاسير جـ ٣ ، ص ٣٥١ بتصرف .
- تفسير ابن كثسر جـ ٤ ، ص ٣٣٧ بتصرف .
- خلق المسلم للمغفور له الشيخ محمد الغزالى جـ ٣١ وما بعدها بتصرف .

" درء السيئة بالحسنة "

ومن الأخلاق التى وجهنا إليها القرآن " درء السيئة بالحسنة "وهى خلة المؤمنين الاتقياء ، وصفة المسلمين الأصفياء ، الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .

فيقول الحق سبحانه :- ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الرعد:٢٢]

والمعنى : "والذين صبروا على المكاره ابتغاه مرضاة الله وأدوا الصلاة المفروضة في أوقاتها " ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً " وانفقوا من أموالهم في سبيل الله، تلك النفقة التى أوجبها الله عليهم فى الخفاء والعلانية ويدفعون الجهل بالحلم ، والأذى بالصبر ، يقول بن عباس . رضى الله عنهما . " يدفعون بالعمل الصالح السئ من الأعمال " والمعنى أنهم يفعلون الحسنات ليدرءوا بها السيئات .

ويقول بن عباس . رضى الله عنهما . " يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم " .

والمراد بالإنفاق سراً وعلانيةً ، سراً يكون بينه وبين ربه سبحانه ، وعلانيةً بحيث يراه الناس ، وذلك ليكون أسوة حسنة لهم ، لا فخراً ورياءً . سواء كان الانفاق واجب على المسلم مثل الإنفاق على الزوجة ، والولد ، والأقارب ، والفقراء ام مندوبا مثل الإنفاق على الفقراء ، والمعوزين ، والمحتاجين من الأجانب.

ومنه قوله- ﷺ - لسيدنا معاذ بن جبل . رضى الله عنه . " واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن " أولئك لهم عقبى الدار يعنى لهم العاقبة الحسنة المحمودة في الدار الآخرة ، والفوز برضوان الله سبحانه وهوالجنة . يقول الله تعالى:- ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ..... ﴾[سورة الرعد:٢٣] والمراد جنات إقامة خالدة يدخلها اولئك الأبرار ، ومن كان صالحاً من آبائهم ونسائهم ، وأولادهم، وذلك للأنس بهم ، وفيهم السرور بهم ،حتى ولو لم يكونوا لا يستحقون هذه المنزلة بأعمالهم ، فيرفع الله منازلهم إكراماً لأولئك ، وذلك فضل الله الذى يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم ، والكرم العميم ، ثم إن لهم إكراما آخر بينه الله سبحانه في قوله تعالى:-

﴿..... وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[سورة الرعد: ٢٣ : ٢٤] اى والملائكة يدخلون عليهم للتهنئة من كل باب من ابواب الجنة يقولون لهم " سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ " يعنى لقد سلمتم من الجن ونجوتم من

المحن وذلك بصبركم الجميل " فصبر جميل " في الدنيا ، فلئن كنتم أوذيتم في الدنيا فلقد استرحتم في هذا اليوم يوم لقاء الله سبحانه ، والفوز برضوانه ، وتلك بشارة بدوام السلامة فنعمتهم العافية الحميدة وهى عاقبتكم وهى الجنة .

يقول ابن كثير -رحمه الله- يقول الله تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار ، وهى العافية والنصرة في الدنيا والآخرة يقول سبحانه :- ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة الرعد:٢٠]

وليسوا مثل المنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غَدَر ، واذا خاصم فجر ، واذا حدث كذب ، وإذا ائتُمن خان . الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل من صلة الأرحام والإحسان إليهم ، والى الفقراء ، والمحتاجين ، وبذل المعروف ، ويخشون ربهم فيما يأتون وما يذرون من الأعمال ، ويراقبون الله في ذلك ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة .

فلهذا أمرهم بالاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم ، وجميع أحوالهم والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم عن المحارم والمناكر ، واجتراح السيئات واقتراف الآثام ، فامتنعوا عنها ونأوا عن ارتكابها ابتغاء مرضاة الله سبحانه ، وانفقوا من أموالهم على من يجب عليهم الانفاق من الأجانب ، والأقارب من الفقراء والمحاويج ، والمعوزين ، والمساكين ، وأبناء السبيل ، سراً وعلانيةً مع دفعهم القبح بالحسن ، ومقابلة المنكر بالمعروف ، صبراً ، واحتمالاً ، وعفواً ، وصفحاً .

يقول تعالى: ﴿..... ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ [سورة فُصِّلَت ٣٤:٣٥]

ولهذا قال الله سبحانه عن هؤلاء السعداء في الدار الآخرة ، والذين اتصفوا بهذه الصفات الحميدة الجميلة بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسر ذلك بقوله تعالى :-﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الرعد: ٢٣:٢٤]

ومعنى " عدن " العدن هى الإقامة الدائمة .

يعنى جنات إقامة دائمة مستمرة لا تنقطع عنهم ، وهم فيها خالدون .

وعن سيدنا " عبد الله بن عمرو" ـ رضى الله عنهما – قال : " إن في الجنة قصر يقال له عدن حوله البروج والمروج فيه خمسة آلاف باب ، على كل باب خمسة آلاف حيرة لا يدخله إلاَّ نبي ، اوصديق ، أو شهيد . ويقول الضحاك جنات عدن مدينة الجنة ، فيها الرسل، والأنبياء ، والشهداء وأئمة الهدى ، والناس حولهم بعد ، والجنات حولها ، ويجمع

الله بينهم ، وبين أحبابهم فيها من الآباء ، والأهلين ، والأبناء فمن هوصالح لدخول الجنة من المؤمنين ، وذلك لتقر أعينهم بهم ، حتى انه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتنانا من الله وإحسانا من غير تنقيص للأعلى عن درجته.

كما قال الله تعالى:- ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ .... ﴾ [سورة الطور:٢١]

وقوله سبحانه :﴿..... وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[سورة الرعد: ٢٣:٢٤]

فالملائكة يدخلون عليهم للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم الجنة تفد عليهم الملائكة مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام ، والإقامة فى دار السلام ، في جوار الصديقين ، والأتقياء والرسل الكرام .

عن عبد الله عمروبن العاص- رضى الله عنهما - انه قال :-

" هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ، الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور ، وتنقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء .

فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته " ائتوهم فحيوهم " فيقول الملائكة نحن سكان سمائك ، وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء ونسلم عليهم ؟ فيقول الله تعالى لملائكته إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بى شيئاً ، وتسد بهم الثغور ، وتنقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، قال فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الرعد: ٢٤].

وعن عبد الله بن عمروبن العاص - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال "أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تنقى بهم المكاره ، واذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وان كانت لرجل منهم حاجة الى سلطان لم تقض حتى يموت وهى في صدره ، وان الله يدعو يوم القيامة الجنة فتاتي بزخرفها وزينتها فيقول أين عبادى الذين قاتلوا في سبيلي ، وأوذوا في سبيلي وجاهدوا في سبيلي، ادخلوا الجنة بغير عذاب ، ولا حساب ، وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون ربنا نحن نسبح بحمدك اللَّيل والنهار ، ونقدس لك من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟

فيقول الرب-عز وجل- هؤلاء عبادى الذين جاهدوا في سبيلي ، وأوذوا في سبيلي ، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب سلام عليكم فنعم عقبى الدار ، وفي الحديث أن رسول

الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول فيقول لهم : ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الرعد: ٢٤]وفي ذات المعنى يقول الله - عزوجل- ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة المؤمنون:٩٦]

والمعنى : ادفع إساءتهم بالصفح والعفوعنهم ، وتحمل بمكارم الأخلاق .

يقول بن كثير - رحمه الله- أرشده الى الترياق النافع من مخالطة الناس ، وهو الإحسان إلى من يسئ اليه ليستجلب خاطره ، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة ، وهو كما قال فى آيه أُخرى :-﴿.....ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [سورة فُصِّلَت٣٤:٣٥]

يعنى وما يلهم هذه وتلك الصفة إلاّ الذين صبروا على أذى الناس فعاملون بالاحسان مع أنهم أسدوا إليهم العمل السئ القبيح ، وما يلقاها إلاَّ ذوحظ عظيم فى الدار الآخرة . ﴿.....نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة المؤمنون:٩٦]

يعنى نحن أعلم بحالهم وما يكون منهم من التكذيب ، والاستهزاء وسيجازيهم عليه، والله سبحانه أرشدهم إلى الترياق النافع لهم في دنياهم ، وفي أُخراهم في مخالطتهم للناس، وهوإحسان المسلم لمن يسئ إليه ، حتى تعود عداوته صداقة ، وعنفه لينا ، وبغضه محبة ، وكراهيته مودة ، يقول الشاعر :

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان

هكذا يمضى القرآن الكريم في الحث على الخلق الفاضل ، والذي يأخذ بيد المسلم إلى الطريق القويم ، وبذلك يضمن له هذا الخُلُق حسن الخاتمة وذلك بدخول الجنة ، وتحايا الملائكة المقربين في جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها فنعم عقبى الدار[1]

---

1 - سورة المؤمنون آيه رقم ٩٦ .
- القرطبي ج٩ ص ٣١١ .
- صفوة التفاسير ج٢ ص٨١ .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص ٥١٠ .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص ٢٥٤ .
- مختصر تفسير ابن كثير ج٢ ص ٥٧٣ .
- البحر المحيط ج٦ ص ٤٢٠ .
- تفسير المراغى ج٦ ص ٥٢ ، وج٥ ص ٩٣ ــ ٩٥ .
- تفسير القرطبى ج٥ ص ٣٥٣٩ وما بعدها .

كراهية المؤمن لإرتكاب الذنوب

ومن الأخلاق القرآنية العظيمة ، والتي يحث عليها ديننا الحنيف وإيماننا الظاهر ، وأنفسنا الذاكية ، وسنتنا المطهرة ، كراهية المؤمن لارتكاب الذنوب ، واقتراف الآثام ، واجتراح السيئات ، وكسب المناكر ، لذا يقول الحق- سبحانه وتعالى- في محكم كتابه الكريم :-﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة يوسف:٣٣]

والمعنى إن دخول السجن أهون عَلَيَّ وأسهل من الوقوع في المعصية لا ان دخول السجن مما يجب على التحقيق ، وحكي أن يوسف -عليه السلام - لما قال " السجن أحب إليَّ " اوحى الله إليه يا يوسف أنت حبست نفسك حين قلت السجن أحب إليَّ ، ولوقلت "العاقبة أحب إليَّ لعوقبت " وإلا تصرف عنى كيد النسوان ، وقيل النسوة اللاَّتي رأينه ، فأنهن أمرنه بمطاوعة امرأة العزيز وقلن له " هى مظلومة وقد ظلمتها " وقيل طلبت كل واحدة ان تخلو به للنصيحة في امرأة العزيز ، والقصد من وراء ذلك هو أن تعدله في حقها وتأمره بمساعدتها فلعله يجيب ، فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له " يا يوسف اقض لي حاجتي فأنا خير لك من سيدتك ، تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده .

فقال يوسف-عليه السلام- يارب كانت واحدة فصرن جماعة .

وقيل هو كيد امرأة العزيز فيما دعته اليه من الفاحشة ، وكنى عنها بخطاب الجمع. إما لتعظيم شأنها في الخطاب ، واما ليعدل عن التصريح إلى التعريض ، والكيد هوالاحتيال ، والاجتهاد ، ولذلك سُمْيّت الحرب كيداً وذلك لاحتيال الناس فيها ، قال الشاعر" عمرو بن لجأ " :

تراءت كي تكيدك أم بشر وكيد بالتبرج ما تكيد

ونحن نرى إن الراجح هوامرأة العزيز وجاءت صيغة الجمع للتعظيم لأنها امرأة الملك وهذا هوالأنسب فى هذا المقام ، وليس المراد جميع النسوة ، فهومن غير المعقول .

"واصب إليهن " يعنى أميل إليهن.

يقول الشاعر :

الى هند صبا قلبى وهند مثلها يصبى



والمراد هو ان لم تلطف بى في اجتناب المعصية وقعت فيها ، وأكون ممن يرتكب الإثم ، ويستحق الذم ، أو أكون ممن يعمل عمل الجهال ، ودل هذا على ان أحدا لا يمتنع عن معصية الله إلاَّ بعون الله ، ودل أيضا على قبح الجهل والذم لصاحبه .

ففي هذه الآيه الكريمة نرى " يوسف " ـ عليه السلام - يلجأ إلى ربه ويناجيه فى تضرع ، وخشية وخشوع ، وتذلل فيقول رب السجن آثر عندي وأحب مما يدعوننى إليه من اقتراف الذنوب ، وارتكاب المنكر ، وأسند الفعل إليهن لأنهن جميعاً مشتركات حيث أردن مؤازرة امرأة العزيز بالتصريح ، أوالتلميح ، فإن لم تدفع عنى سرهن ، وتعصمنى منهن أمل الى إجابتهن وذلك بمقتضى البشرية حيث أنه بشر ، ولديه الغريزة ، يقول علماء النفس إن الغريزة تنشط بوجود المؤثرات . وها هو ذا وجد المؤثر وهو امرأة العزيز التي تراوده ، وتطلب منه الفاحشة ، وأكن من الجاهلين بسبب ما يطلبونه منه من القبح ، وفعل المنكر ، وهذا كله على سبيل التضرع ، والاستغاثة بالله سبحانه ، وذلك كعادة الأنبياء -عليهم السلام- والصالحين ولا غرو فإن يوسف- عليه السلام - أعطى شطر الحسن ورأى النبى - ﷺ - يوسف - عليه السلام - في السماء الثالثة قال فاذا هو قد أعطى شطر الحُسْن .

وعن ثابت بن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - " أعطى يوسف وأمه شطر الحسن " ، وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه - قال " اعطى يوسف وأمه ثلث الحسن " ، وقيل كان وجه يوسف ـ عليه السلام ـ مثل البرق ، وكانت المرأة اذا أتته لحاجة غطى وجهه مخافة ان تفتن به وأعطى الناس الثلثين ، وقيل أعطى يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث .

ولهذا ثبت في الصحيحين ان رسول الله - ﷺ - قال : " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلاَّ ظله إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا اليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما انفقت يمينه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه " وقد اجتمع في يوسف ـ عليه السلام ـ اكثر من خصلة فهو شاب ونشأ في طاعة الله ودعته ذات منصب وجمال ودعته إلى نفسها فخاف الله .

هذا خلق يجب أن يحتذيه كل مسلم ، بل كل شاب وشابه ، يريد الاعتصام بالله ، فمن أراد العصمة من اقتراف الذنوب بنية خالصة وصادقة ، يسر الله له العصمة من الوقوع في الفاحشة وفي غيرها من المناكر، التى نهى الله عنها فنية المؤمن خير من عمله ، ويقول النبى - ﷺ - " إنما الاعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى " .

ويقول الإمام المراغى في تفسير هذه الآيه " ربى أنت العليم بالسرور والنجوى ، والقدير على كشف تلك البلوى ، إن السجن الذى هددت به ، والمكث في بيئة المجرمين على شظف العيش ، ورقة الحال احب إلى نفسى مما يدعوا إليه اولئك النسوة من الاستمتاع بهن في ترف القصور والاشتغال بحبهن عن حبك وبقربهن عن قربك ، حيث ان النسوة خوفنه مخالفتها ، فقلن هل:أطع مولاتك أنلها ما تهوى ، لتكفى شرها ، وتأمن عقوبتها ، وان لم تبعد عنى شراك كيدهن ، وتثبتني على ما أنا عليه من العصمة ، آمل إلى موافقتهن على أهوائهن ، وأقع في شباك صيدهن ، وارتع في حماة غوايتهن ، ويلجأ يوسف- عليه السلام - إلى الطاف ربه ويسلك سبيل المرسلين من قبله في فزعهم الى مولاهم الحق- سبحانه وتعالى- لينيلهم الخيرات ، ويبعد عنهم الشرور والموبقات وإظهارهم أنه لا طاقة لهم إلاَّ بمعونته سبحانه ، وذلك مبالغةً في استدعاء لطفه وعظيم كرمه ومنه ، وأكون بهذا الفعل القبيح من السفهاء الذين تستخفهم الأهواء وتتملك فيهم الشهوات ، فيحنون إلى ارتكاب الموبقات ، واجتراح السيئات فالذى يعيش بين هؤلاء النسوة الماكرات المترفات لا مهرب له من الجهل إلاَّ أن تعصمه بما هوفوق الأسباب والسنن العادية . وفي هذا إيماء إلى أنه ما صبا يوسف إليهن ، ولا أحب أن يعيش معهن ، بل سأل ربه سبحانه أن يديم له ما عوده من كشف السوء عنه ، وذلك يتجلى في قول الحق سبحانه:-﴿.....كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة يوسف:٢٤]فاستجاب له ربه وقبل دعاءه ، وصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع لدعاء من تضرع إليه ، وأخلص

الدعاء له ، العليم بصدق إيمانهم ، وبما يصلح أحوالهم ، وفي هذا إرشاد الى ان ربه سبحانه حرسه بعنايته ، وكلأه برعايته ، وحفظه بحفظه في جميع أطواره وشئونه ، ورباه أكمل وأعظم تربية ، وما خلاه لنفسه في أهون الأمور.(١)

وذلك دليل على إن المسلم اذا اعتصم بالله ، ودعاه ورجاه بنية صادقة فإنه من الذنوب ينجيه ، ومن السيئات يحميه ، وبالإخلاص ينقيه ، وظاهراً وباطناً يرقيه ، اللّهم رقنا ظاهراً وباطناً ...... آمين .

1- الكشاف ج٢ ص٤٦٧ .
- تفسير القرطبى ج٥ ص ٣٤١٣ وما بعدها .
- تفسير المراغى ج٤ ص١٤١ وما بعدها .
- تفسير البيضاوي.
- حاشية الشهاب على البيضاوي بتصرف .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٢ ص ٤٧٧ بتصرف .

" البشاشة وحسن اللقاء "

ومن الاخلاق الكريمة والتى تغرس المحبة ، والمودة ، وتزرع الأُلفة فى قلوب المسلمين، وتزيل ما بينهم من شنئان ، وفرك وبغضاء ، وشحناء وكراهية ، يتجلى ذلك في قول الحق سبحانه :-

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الأنعام:٥٤]

بعد أن نهى سبحانه نبيه عن طرد المستضعفين من حضرته ، استمالة لكبراء المتكبرين من قومه وطمعاً في إقبالهم عليه ، وسماعهم لدعوته ، كما اقترح بعض المشركين ، أمره بأن يلقى الذين يدخلون في الاسلام إلا بعد ان عن بينة وبرهان بالتحية والسلام ، والتبشير برحمة اللّه ومغفرته ، فقد كان السواد الأعظم من الناس كافرين ، اما كفر جحود وعناد ، وإما كفر جهل وتقليد للآباء والأجداد وكان يدخل فى الإسلام الأفراد بعد الافراد ، وكان أكثر السابقين من المستضعفين والفقراء .

وكان النبى - ﷺ - يكون تارة معهم يعلمهم ويرشدهم وتارة يتوجه الى أُولئك الكافرين يدعوهم وينذرهم .

فيقول للنبي - ﷺ - اذا جاءك القوم الذين يصدقون بكتابنا ، وحججنا ، ويقرون بذلك قولاً وعملاً ، سائلين عن ذنوبهم التى فرطت منهم ، هل لهم منها توبة ، فلا تؤيسهم منها ، وقل لهم سلام عليكم يعنى أمنة اللّه لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها ، وان اللّه تعالى أوجب على ذاته المقدسة تفضلاً منه وإحساناً ، الرحمة بِخَلْقِه ، فإن فيما سخر للبشر من أسباب المعيشة المادية ، وفيما أتاهم من وسائل العلوم الكسبية لآيات بينات على سعة الرحمة الربانية ، وتربية عباده بها في حياتهم الجسدية والروحية ، ثم يبين أصلاًمن أصول الدين في هذه الرحمة للمؤمنين فقال ﴿.....أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الأنعام:٥٤] والمعنى ان من عمل منكم عملا تسوء عاقبته ، للضره الذى حرمه اللّه لأجله ، حال كونه ملتبساً بجهالة دفعته الى ذلك السوء ، كغضب شديد حمله على السب والضرب ، أو شهوة مغتنمة قادته إلى انتهاك العرض ، ثم تاب ورجع عن ذلك السوء بعد أن عمله شاعراً بقبحه ،نادماً عليه خائفاً من عاقبته وأصلح عمله بأن اتبع ذلك العمل السئ بعمل يضاده ويذهب أثره من

قلبه ، حتى يعود إلى النفس ذكاؤها ، وطهارتها وتصير أهلاً للقرب من ربها ، فشأنه تعالى في معاملته إنه واسع المغفرة والرحمة ، فيغفر له ما تاب عنه ، ويتغمده برحمته واحسانه .

وقد بَيّن سبحانه في هذه الآيه من أنواع الرحمة المكتوبة لعباده ما هوأحوج إلى معرفته بنص الوحي ، وهو حكم من يعمل السوء بجهالة من عباده المؤمنين ، وبقية أنواعها ممكن أن يستدل عليها بالنظر في الأنْفُس والآفاق ، وأمر نبيه بتبليغه لمن يدخلون في الدين ليهتدوا بها حتى لا يغتروا بمغفرة الله ورحمته فيحملهم الغرور على التفريط في جب الله والغفلة عن تزكية أنفسهم ، وحتى يبادروا إلى تطهيرها من إفساد الذنوب خوف ان تحيط بها خطيئتها يقول تعالى:- ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ ..... ﴾ [سورة النساء:١٧]

ويقول القرطبى وهذه الآيه نزلت في الذين نهى الله نبيه -عليه الصلاة السلام- عن طردهم فكان إذا رآهم بداهم بالسلام وقال:" الحمد لله الذى جعل في أُمتى من أمرنى أن أبدأهم بالسلام ، وعلى هذا كان السلام من جهة النبى- ﷺ - وقيل أنه كان من جهة الله تعالى ، والمعنى أُبلغهم منا السلام ، وعلى أية حال فهذا دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله .

وتقدير هذا المعنى بأنه من الواجب احترام الصالحين ، واجتناب ما يغضبهم ويؤذيهم فان في ذلك غضب الله سبحانه ، وقال بن عباس- رضى الله عنهما - نزلت الآيه في أبى بكر وعمر وعثمان وعلى-رضى الله عنهم - ويقول الفضيل بن عياض" جاء قوم من المسلمين الى النبى- ﷺ - فقالوا إنا قد أصبنا من الذنوب فاستغفر لنا فاعرض عنهم فنزلت هذه الآيه ، كما روى انس بن مالك مثله .

وقوله تعالى " ....كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ...."يعنى أوجب على ذلك بخبره الصدق ، ووعده الحق ، فخوطب العباد على ما يعرفونه من انه من كتب شيئاً فقد أوجبه على نفسه ، وقيل كتب ذلك في اللَّوح المحفوظ أنه من عمل خطيئة فهو بها جاهل ، وقوله تعالى﴿....فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الأنعام:٥٤]قال رسول الله- ﷺ - " لما قضى الله على الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش " إن رحمتى غلبت غضبى "وقال- ﷺ - " اذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتاباً من تحت العرش إن رحمتى سبقت غضبى وأنا ارحم الراحمين فتعين فيضة اوفيضتين فيخرج من النار خلقاً لم يعملوا خيراً مكتوب بين أعينهم عتقاء الله " ويقول تعالى " ....وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ ...." وقيل معنى " ....كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ...." يعنى ألزم نفسه الرحمة تفضلاً منه

وإحسانا فإنه غفور رحيم يعنى من عمل ذنباً ، أو ارتكب خطيئة ، أواجترح سيئةً ، ثم تاب من بعد ذلك وأصلح عمله فإن الله يغفر له ، وهو وعد بالمغفرة والرحمة لمن تاب وأصلح . وفي ذات المعنى يقول الحق سبحانه :-﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة الأنفال:٦١]

ومن الأخلاق في القرآن الكريم قبول السلم والصلح من جميع الناس حتى الأعداء ، والمعنى إن مال العدوعن جانب الحرب إلى جانب السلم ، ولم يغتر بقوته فاجنح لها لأنك أولى بالسلم منهم ، وفوض الأمر الى الله ، ولا تخشى غدرهم ومكرهم ، فالله هوالسميع لما يقولون ، العليم بما يفعلون ، فلا يخفى عليه ما يأتمرون به من الكيد والخداع ، وإن خفي ذلك عليك ، وإن أرادوا بجنوحهم للسلم الخداع ، والمكر والكيد ليفترصوا الفرص كانتظار الغرة والخديعة التى تمكنهم من أهل الحق ، أو الاستعداد للحرب فالله يكفيك أمرهم ، وينصرك عليهم ، ومن آثار عنايته بك أن أيدك بتسخير المؤمنين لك ، وجعلهم أُمة متحدة متآلفة ، ومتعاونة على نصرك ، وأن سخر لك ما وراء الأسباب من خوارق العادات مثل الملائكة التى تثبت القلوب في وقعة بدر الكبرى وقد جمعهم الله على الإيمان بك ، وبذل النفس والمال في مناصرتك ، بعد التفرق والتعادى الذى كان إثر حروب طويلة وضغائن موروثة مثل الذى كان بين الأوس والخزرج من الأنصار.

يقــول الله تعــالى:-﴿....نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ....﴾ [سورة آل عمران:١٠٣]

وقد كاد يقع شئ من التباغض من المهاجرين والأنصار حين قُسمَتْ الغنائم في غزوة حنين فكفاهم الله شر ذلك ، وذلك بفضله تعالى ، وحكمة رسول الله- ﷺ - وفي الآيه إيماء وإشارة إلى أن النصر ينال بالأسباب والتى من أهمها التآلف والاتحاد بفضل مقدر الأسباب ، ورحمته بالعباد ، لذلك يقول الحق سبحانه :-﴿....أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ ....﴾ [سورة الأنفال:٦٣]

ولهذه المعاني المتقدمة حين طلب المشركون في عام الحديبية الصلح ووقعت الحرب بينهم وبين رسول الله - ﷺ - تسع سنين أجابهم النبى الى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخرى ، وقال مجاهد -رضى الله عنه ـ نزلت الايه في بني قريظة ، والصواب والراجح إن الآيه نزلت في معركة بدر لان السياق يؤيد ذلك ، ويقول القرطبى " وإن كان للمسلمين مصلحة للصلح ، لنفع يحتاجونه او ضرر يدفعونه ، فلا بأس أن يبتدئ المسلمين بالصلح إذا احتاجوا إليه ، وقد صالح رسول الله - ﷺ -أهل خيبر على شروط نقضوها

فنقض النبى - ﷺ - صلحهم ، وقد هادن قريشاً لمدة عشرة أعوام حتى نقضوا عهده ، وما زال الخلفاء والصحابة على هذه السبيل التى شرحناها سالفة ، وبالوجوه التى شرحناها عاملة .

ويقول القشيرى . رحمه الله . إذا كانت القوة للمسلمين فينبغي ألاّ تبلغ الهدنة سنة وإذا كانت القوة للكفار جازت مهادنتهم عشر سنين ، ويقول الشافعي . رحمه الله . لا يجوز مهادنة المشركين أكثر من عشر سنين وذلك على ما فعل النبى - ﷺ - عام الحديبية فإن هَوْدَن المشركون اكثر من ذلك فهي منتقضة لأن الأصل غرض قتال المشركين حتى يؤمنوا أويعطوا الجزية .

وخلاصة القول ان الأمر يفوض لله أولاً ، ثم للسلطان أو الحاكم حسب الأحداث السياسية ، والمواقف الدولية ، والعمل بما يكون في صالح المسلمين ، فإن كل عصر له سياسته ، وكل زمان له طبائعه والأمور دائماً مختلفة ، ومتباينة ، ومتغايرة .

ويمضى القرآن الكريم قائلاً في نفس المعنى والهدف والغرض فيقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة يونس:٩:١٠]والمعنى يهديهم ربهم سبحانه الى طريق الجنة وذلك بسبب إيمانهم تجرى من تحت قصورهم الأنهار، أو من تحت أَسِرّْتهم وهم مقيمون في جنات النعيم ، ودعاؤهم في الجنة " سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ "وفي الحديث يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون الـنَفَسْ ، والمعنى ان كلامهم في الجنة تسبيح الله ، وتحية بعضهم بعضا " سلام عليكم " كما تحييهم الملائكة بذلك ﴿..... وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[سورة الرعد: ٢٣:٢٤] وآخر دعائهم أن يقولوا " ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ " وفي الآيه إشارةً إن الإيمان والعمل الصالح هما سبب الهداية والفوز برفيع الدرجات ، والوصول الى أقصى الغايات ، وانهم يبدأون كل دعاء وثناء عليه تعالى بمناجاته بهذه الكلمة " سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ " وتحيتهم في الجنة كلمة " سَلَٰمٌ " الدالة على السلامة من كل مكروه ، وهى أيضا تحية المؤمنين في الدنيا ، وهذه التحية تكون من الله . عزوجل . حين لقائه ، يقول سبحانه﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ... ﴾ [سورة الأحزاب:٤٤]ومن الملائكة لهم عند دخول الجنة قال تعالى ﴿....وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾[سورة الزُمَر:٧٣]وتكون من بعضهم لبعض قال تعالى ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ [سورة الواقعة:٢٥:٢٦]وان

آخر كل حال من أحوالهم من دعاء يناجون به ربهم ، ومطلب يطلبونه من إحسانه وكرمه "..... ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ....." .

ويمضى القرآن الكريم قائلاً في نفس المعنى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [سورة الفرقان:٦٣]. والإضافة هنا للتشريف والتعظيم يعنى العباد الذين يحبهم الله وهم جديرون بالانتساب اليه ، وهم الذين يمشون على الأرض في لين وسكينة ووقار ، لا يضربون بأقدامهم شراً ولا بطرا ، ولا يتبخرون في مشيتهم ، وإذا خاطبهم السفهاء بغلظة وجفاء وقساوة طبع ، وغلظة كبر ، وسوء خلق ، قالوا قولاً يسلمون فيه من الذنب ، وينأون عن السيئات ، ويبتعدون عن المناكر ، لا يجهلون على أحد وإن جهل عليهم حكموا .

ويقول ابن كثير . رحمه الله . هذه صفات عباد الله المؤمنين يقول تعالى : ﴿ .... وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا .... ﴾ [سورة لقمان:١٨] .وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ، ورياءً فقد كان النبى - ﷺ - اذا مشى كأنما ينحط من صيب ، وكأنما الأرض تطوى له ، ورأى عمر بن الخطاب . رضى الله عنه . شاباً يمشى رويدا فقال له ما بك أأنت مريض ؟ قال لا يا أمير المؤمنين فعلاه بدرته يعنى عصاه التى كان يمسك بها ، وأمره ان يمشى بقوة ، فالمراد بقوله تعالى " هَوْنًا " السكينة والوقار ، كما قال رسول الله- ﷺ - " اذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وانتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا ، وما فاتكم فأتموا " فهؤلاء قوم كما يقول الحسن البصري . رحمه الله . إن المؤمنين قوم ذلت منهم . والله . الأسماع ، والأبصار ، والجوارح حتى يحسبه الجاهل مرض ، وما بالقوم من مرض ، وإنهم . والله . لا اصماء ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة فقالوا " الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن " اما والله ما أحزن الناس ، ولا تعاظم في نفوسهم شئ طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من الله ، إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير الله نعمة إلاَّ في مطعم اومشرب فقد قل علمه وحضر عذابه ، وهؤلاء القوم اذا سفه عليهم الجاهل بالقول السئ لم يقابلونهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلاَّ خيراً .

كما كان رسول الله . - ﷺ - . لا تزيده شدة الجهل عليه الا حلما يقول سبحانه ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ .... ﴾ [سورة القصص:٥٥]وقال رسول الله . - ﷺ - سب رجل رجلاً عنده فجعل المسبوب يقول عليك السلام ، فقال رسول الله . - ﷺ - أما ان ملكا بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا قال له بل أنت ، وأنت أحق به ، واذا قلت له

وعليك السلام قال لا بل عليك وأنت أحق به " وقالوا سلاماً يعنى قالوا قولاً سديداً صحيحاً ، صادقاً منبعثاً من صدق إيمانهم ، وسلامة يقينهم ، وفي نفس المعنى يقول الحق سبحانه﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ (١٨١)﴾ [سورة الصافات:١٨١]والمعنى وسلام منا على الرسل الكرام وبحمده - عزوجل - تعليماً وإرشاداً للعباد وفي ذات المعنى يقول الحق سبحانه﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥)﴾ [سورة الذاريات:٢٥] والمعنى حين دخلوا على إبراهيم - عليه السلام - فقالوا نسلم عليك سلاماً ، قال عليكم سلام ، انتم قوم غرباء لا نعرفكم فمن أنتم ؟ يقول ابن كثير " وانما أنكرهم لأنهم قدموا عليه في صورة شبان حسان ، عليهم مهابةً عظيمة ، ولهذا أنكرهم . ويقول أبي حيان " والذي يناسب حال إبراهيم - عليه السلام - انه لا يخاطبهم بذلك ، إذ فيه من عدم الأنس ما لا يخفى ، وإنما قال ذلك في نفسه ، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه بحيث لا يسمع ذلك الأضياف . والملائكة هم جبريل وميكائيل وإسرافيل .

فكل هذه الآيات تدعوا لمسلم الى التخلق بالأخلاق الحسنة ، والخصال الحميدة حتى يعم السلام في الأرض ، ويتأدب الناس بأدب الله ورسوله - ﷺ - فذلك خلق القرآن، وخلق من نزل عليه القرآن وهوالأسوة الحسنة ، والقدوة العظيمة سيدنا محمد - ﷺ . (١)

1- حاشية الصاوي ج٢ ص ١٧ .
- الكشاف ج٢ ص ٢٣ ، ص ٢٢٣ .
- زاد المسير ج٣ ص ٥٢ .
- تفسير ابن كثير ج٢ ص ١٣٥ ، ص ١٣٩ ، ص ٣٢٢ ، ج٣ ص ٣٢٤ ، ج٤ ص ٢٣٥ .
- مختصر تفسير ابن كثير ج٣ ص ٣٨٥ .
- القرطبى ج٤ ص ٢٤٣٢ وما بعدها ، ص ٢٣٧٩ وما بعدها ج١٣ ص ٧٢ .
- تفسير المراغى ج٣ ص ١٣٨ ، ج٤ ص ٢٦ وما بعدها ،
- البحر المحيط ج٨ ص ١٣٩ .
- تفسير ابن الجوزى ج٨ ص ٣٦ .
- البيضاوي ج٣ ص ١٢٦.
- تفسير الطبري ج١١ ص ١٨٦ ، ج١٩ ص ٢٠- ٢٣ .
- أبوالسعود ج٢ ص ٣١٠ .
- حاشية الصاوي على الجلالين .
- التفسير الكبير ج٢٤ ص ١٠٨ .
- صفوة التفاسير ج٣ ص ٤٧ .
- تفسير الفخر الرازي ج١٥ ص ٢٠١ .

" القصد فى المشى "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة " القصد في المشى " يقول الله -عز وجل-:" ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾[سورة لقمان:١٨:١٩]. والمعنى: "لا تمل بوجهك عنهم تكبراً عليهم ، ويقول القرطبى: " لا تمل خدك للناس كبراً عليهم ، واعجاباً ، وتحقيراً لهم . وهوقول " ابن عباس " -رضى الله عنهما - ولا تمش متبخترا ، متكبراً لأن الله يكره المتكبر الذى يرى العظمة لنفسه ، ويتكبر على عباد الله ، ولما نهاه عن الخلق الذميمة ، أمره بالخلق الكريمة فقال له تعالى : " توسط في مشيتك واعتدل فيها بين الإسراع والبطء واخفض من صوتك فلا ترفعه عالياً فإنه قبيح لا يليق بعاقل ، إن أوحش الأصوات صوت الحمير ، فمن رفع صوته كان مماثلاً لهم ، وأتى بالمنكر القبيح .

يقول الحسن : " كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات فرد عليهم بأنه لوكان خيراً لفضلتهم به الحمير ، ويقول " قتادة "-رضى الله عنه -أقبح الأصوات صوت الحمير ، أوله زفير وآخره شهيق . ويقول " المراغى في تفسيره : " ولا تعرض بوجهك عمن تكلمه تكبراً واحتقاراً له ، بل أقبل عليه بوجهك كله متهللاً ، مستبشراً من غير كيد ولا عتو. عن أنس بن مالك أن رسول الله - ﷺ - قال: " لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث " . ولا تمش في الأرض مختالا متبخترا لأن تلك مشية الجبارين المتكبرين الذين يبغون في الأرض ويظلمون الناس ، بل إمشى هونا ، فإن ذلك يفضى إلى التواضع .

عن " غضيف بن الحارس " قال : " أتيت بيت المقدس أنا وعبد الله بن عبيد بن عمير قال : فجلسنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسمعته يقول : إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه فيقول : يا ابن آدم ما غرك بي ! ألم تعلم أني بيت الوحدة ! ألم تعلم أني بيت الظلمة ! ألم تعلم أني بيت الحق ! يا ابن آدم غرك بي ! لقد كنت تمشي حولي فدادا قال ابن عائذ قلت لغضيف : ما الفداد يا أبا أسماء ؟ قال : كبعض مشيتك يا ابن أخي أحيانا قال أبو عبيد : والمعنى ذا مال خيلاء وقال : - ﷺ -:" من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة " .

والله لا يحب المختال المعجب بنفسه ، الفخور على غيره ، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾[سورة الإسراء:٣٧].

وامشى هونا بلا تصنع ، ولا مراءات للخلق وذلك بإظهار التواضع ، وعمد الكبرياء ، روى عن عائشة – رضى الله عنها – أنها نظرت إلى رجل كاد يموت تخافتاً... فقالت: ما لهذا ؟ .

فقيل : إنه من القراء .

فقالت : كان عمر - رضي الله تعالى عنه - سيد القراء ، وكان إذا مشى أسرع ، وإذا قال أسمع ، وإذا ضرب أوجع . فالمراد بالإسراع فيه ما فوق دبيب المتماوت وهو الذي يخفي صوته ويقل حركاته مما يَتَزَيّـا بزي العباد كأنه يتكلف في اتصافه بما يقربه من صفات الأموات ليوهم أنه ضَعِفَ من كثرة العبادة . ورأى " عمر بن الخطاب "– رضى الله عنه - رجلاً متماوتاً ، فقال له : لا تمت علينا ديننا ، أماتك الله " . ورأى رجلا مطأطأ رأسه فقال له : " إرفع رأسك ، فإن الإسلام ليس بمريض " .

وإن أبشع الأصوات وأقبحها رفعها فوق الحاجة بلا داع ، وفي ذلك تهجين لرفع الصوت ، وأن الذى يرفع صوته بلا داع فكصوت الحمار تنفيرا من ذلك العقل وتقبيحاً ، وقد كانت العرب تفخر بجهارة الصوت فمن كان منهم أشد صوتا كان أعز ، ومن كان أخفض صوتا كان أذل ، يقول شاعرهم :

جهير الكلام جهير العطاس ... جهير الرواء جهير النعم

ويخطو على الأين خطو الظليم ... ويعلو الرجال بخلق عميم

والرواء هو المنظر الحسن ، والنعم هى الابل ، والأين الاحياء ، والخلق العمم أى التام، والظليم هو ذكر النعام .

ويقول " ابن كثير " – رحمه الله تعالى - : " لا تتكلم وأنت مُعْرِض ، يعني بذلك التشديق في الكلام ، وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها فشبه به الرجل المتكبر. ويقول عمرو بن حيي التغلبي :

وقال أبوطالب في شعره :

وكنا قديما لا نقر ظلامة ... إذا ما ثنوا صعر الرؤوس نقيمها

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾[سورة لقمان: ١٨] . يعنى : مختال معجب في نفسه ، فخور على غيره. وقد ذكر الكبر عن رسول الله– ﷺ –:" ذكر الكبر عند رسول الله– ﷺ – فشدد فيه ، فقال : " إن الله لا يحب كل مختال فخور".

فقال رجل من القوم: والله يا رسول الله إني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها، ويعجبني شِراك نعلي، وعِلاقة سَوْطي،

فقال: " ليس ذلك الكبر، إنما الكبر أن تَسْفه الحق وتَغْمِط الناس " .

وعن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - قال : " إذا سمعتم نهاق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانا ، واذا سمعتم صياح الديك فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكا " . وعن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله - ﷺ -: " طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا، وإذا غابوا لم يفتقدوا، أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشينة " . وعن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر، - رضي الله عنه - ، أنه دخل المسجد فإذا هو" بمعاذ بن جبل " يبكي عند قبر رسول الله - ﷺ - ، فقال له: ما يبكيك يا معاذ؟ قال: حديث سمعته من رسول الله - ﷺ -، سمعته يقول: " إن اليسير من الرياء شرك ، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، ينجون من كل غبراء مظلمة " .

وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- عن النبي- ﷺ - قال : " رُبَّ ذي طمرين لا يُؤَبَه له، لوأقسم على الله لأبره، لوقال: اللَّهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة، ولم يعطه من الدنيا شيئاً" .

قال عبد الله بن المبارك:-

ألا رُبّ ذي طمْرَين في مَنزل غَدًا   زرَابِيه مَبْثُوثةً ونَمَارقُه

قَد اطَّرَدَتْ أنهاره حَوْل قَصْره   وَأشرَقَ و التفَّتْ عَلَيه حَدَائقُه

هذه هى الأخلاق فى القرآن الكريم التى تأخذ بيد المسلم إلى مواطن النجاه وسبل الرشاد[1] .

1- تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٤٤٦ – ٤٤٨ .
- تفسير القرطبى جـ ١٤ ، ص ٧٠ .
- صفوة التفاسير جـ ٢ ، ص ٤٩٣.
- تفسير المراغى جـ ٧ ، ص ٨٥ وما بعدها .

" النأي عن المنّ والأذى "

ومن الأخلاق القرآنية عدم إتباع النفقة والصدقة والعمل الصالح بالمن والأذى ، يقول الحق - سبحانه وتعالى- : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [سورة البقرة:٢٦٢:٢٦٦]. والمعنى : إن الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ولا يقصدون بإنفاقها إلاَّ وجه الله ، ولا يعقبون ما أنفقوا من الخيرات ، والصدقات بالمن والأذى على من أحسنوا إليه ، مثل قوله : " إننى أحسنت اليك ، وقدمت لك خيرا ثم يذكره فإن ذلك أذى ، والله تعالى يقول: " ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ". فالذين ينفقون ولا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى . هؤلاء لهم ثواب ما قدموا ، وجزاء ما أحسنوا ، ولا يضرهم فزع يوم القيامة ، ولا هم يحزنون على فائت من زهرة الدنيا . ثم يبين الله - عز وجل- أن رد السائل بالتى هى أحسن ، والصفح عن الحاجة خيرعند الله وأقصد من إعطائه ثم إيذائه ، أوتعيره بذل السؤال ، والله - سبحانه وتعالى- غني عن الخَلْق أجمعين ، حليم لا يعاجلهم بالعقوبة عند مخالفتهم لأوامره ، ثم أخبر الله – سبحانه وتعالى– عما يبطل الصدقة ، ويضيع الثواب ، ويذهب بخيرها وبرها ، ونفعها في الدار الآخرة . فيقول الله -عز وجل- : " يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ .... " . والمعنى : " يا أيها الذين آمنوا بالله ، وصدقوا برسوله لا تحبطوا ما أنفقتم بالمن والأذى ، مثله في ذلك مثل الذى يرائى الناس فيبطل بالرياء إنفاقه ، ولا يصدق بقاء الله ولا يرجوا ثواباً ، ولا يخشى عقاباً فمثله كمثل

الحجر الأملس الذى يكون عليه شيء من التراب يظنه الظان أرضاً طيبةً منبتة فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فيبقى صلداً أملس ليس عليه شيء من الغبار أصلاً .

كذلك المنافق الذى ينفق ماله رئاء الناس يظن أن له أعمالاً صالحة فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وذهبت ، ولهذا يقول – سبحانه وتعالى – : ".... لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا .... " . يعنى لا يجدون لهم ثواباً في الآخرة فلا أنتفع بشيء منها البتة، والله لا يهدى هؤلاء إلى طرق الخير ، ولا إلى سبل النجاة والرشاد فالقرآن الكريم يؤكد أن المن والأذى يبطل الصدقة كما يبطل الرياء وضرب لهذا مثل " الصفوان " . وفي تفسير المراغى " إن الذين يبذلون أموالهم ينفقون بذلك مرضاة ربهم ، ولا يتبعون ذلك بمنهم على من أحسنوا إليهم ، ولا بإيذائهم ، لهم عند ربهم ثواب لا يقدر قدره ، ولا خوف عليهم حين يخاف الناس ، وتفزعهم الاهوال ، ولا هويحزنون حين يحزن الباقون الممسكون عن الإنفاق في سبيل الله ، اذ هم أهل السكينة والاطمئنان ، والسرور الدائم .

واحكمة في تعليق هذا الثواب على ترك المن والأذى أن الإنفاق في سبيل الله يراد به وجه الله ، وطلب رضاه ، فلا وجه لمن المنفق على من أنفق عليه لأنه لا يد له قبله ولا صنيعة له عنده ، تستحق – إن لم يكافئه عليها – المن والأذى فعلى الله مثوبته دون من أنفق عليه . ثم يضع الله – سبحانه وتعالى– دستورا الحسن المعاملة بين الناس فقال : "قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ " يعنى كلام حسن، ورد جميل على السائل ، وستر لما وقع منه من الألحاف في السؤال وغيره أنفع لكم ، وأكثر فائدة من صدقة فيها أذى ، لأنه وإن كان قد خيب رجاه ، ولكن أفرح قلبه ، وهون عليه ذل السؤال . والإنفاق غير مقصود به التصدق على ذوى الحاجات والمعوذين فحسب ، بل إن التبرع لبناء مدرسة ، أومستشفى ، أوالإسهام في تعبيد الطريق أو تمهيد ممشى ، أو التبرع لكفالة اليتيم ، أومساعدة طالب العلم ، أو فك العانى الذى أثقلته الديون ..... وهكذا .

يعد كل ذلك إنفاق في سبيل الله وجميع أعمال البر والخير تُعَدُ إنفاقاً في سبيل الله، وإن لم يكن لدى المسلم مال يتبرع به فعليه التبرع بالكلمة الطيبة والتشجيع لغيره على الإنفاق ، وعلى فعل الخير. يقول الشاعر :

لا خيل عندك تهديها ولا مال   فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

أما الصدقة التى يتبعها أذى فهى مشوبةٌ بضرر ما يتبعها من الايذاء ، ومن آذى فقد بغض نفسه إلى الناس بظهور في مظهر البغض لهم والسلم والولاء خير من العداوة والبغضاء .

ومن الخير للأمة أن يظهر أفرادها فى مظهر المتعاونين، يقول- سبحانه وتعالى- :
﴿ .... وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ .... ﴾ [سورة المائدة:٢]

وجماع هذا القول أن مقابلة المحتاج بكلمة تسره ترضيه خير له من الصدقة التى يتبعها الإيذاء بسوء القول ، أوسوء المقابلة واللقء . ولا فارق بين أن، يكون المحتاج فرداً . أوجماعة ، أودولة ، أوأمةً مثل التبرع لتسليح الجيش الاسلامى ليصد غارات المعتدين ، ويذود عن الأرض ، والعرض وهويسمى في عصرنا " بالمجهود الحربى " فحين تكون مع الدولة بقلبك ولسانك أجدى لها وأنفع من التبرع بالمال مع مقابلة سوء ، وفعل الأذى . وقد قررت الآية الكريمة مبدأ عاما في الشريعة الاسلامية ، وهودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح . فقد دلت على أن الخير لا يمكن أن يكون طريقاً للشر، وعلى أن الأعمال الصالحة بحيث أن تكون خالية مما يكدرها من الشوائب التى تفسدها ، وتذهب بخيرها وفائدتها . فالذى لا يملك أن ينفق أويتصدق على الفقير فليكلمه ويسعده بكلمة طيبة ، فإن الله غنى عن صدقة عباده حيث أنه لا يقبل إلاَّ الطيب من العمل .

وفي هذا تكريم للفقراء وتوجيه لهم أن يتعلقوا بحبل الله ، ويستعينوا بالله ، وقد بين الله- سبحانه وتعالى- أن المن والأذى يهدم الصدقة بل هو هادم لفائدة الصجقة وهو الثواب الجزيل من الله- سبحانه وتعالى- . وهو تخفيف لبؤس الفقراء والمحتاجين وكشف أذى الفقر عنهم إذا كانت الصدقة للأفراد ، وتنشيط القائمين بخدمة الأمة ومساعدتها إذا كانت الصدقة في مصلحة عامة . إذ أن كل عمل لا يؤدى إلى الغاية منه فقد حبط وبطل كأن لم يكن ، فما بالك إذا أتبع بضد الغاية ونقيضها ؟ . فالإسلام يَنْهى المسلم عن ارتكاب ما يفسد صدقته من المن والأذى وحتى تكون الصدقة خالصةً لوجهه-سبحانه وتعالى- ، فالمرائى وصاحب المن والأذى عمله غير صحيح وغير مقبول لدى الله- عزوجل- . فالمنافق المرائى صفته كصفة " تراب " على حجر أملس نزل عليه مطر شديد ، فأزاله ، وترك الحجر صلداً نقيا لا تراب عليه .

ووجه الشبه بينهما هوأن الناس يرون أن لهؤلاء المرائين أعمالاً كما يرى التراب على " الصفوان " فذا جاء يوم القيامة وصاروا إلى الله-عزوجل- اضمحل ذلك وذهب ،

لأنه لم يكن لله ، كما يذهب الوابل من المطر كما كان على الصفوان ، فيتركه أملس لا شيء عليه. يقول الشاعر :

ثوب الرياء يَشِفُ عما تحته فإذا اكتسيت به فإنك عار

فالرياء والمن والأذى منافٍ للإخلاص ، فلا أجر عند الله إلاَّ للمخلصين في أعمالهم الذين يتحرون تزكية نفوسهم ، وإصلاح أحوالهم والله لا يهدى القوم الكافرين إلى ما فيه خيرهم ، ورشادهم ، فإن الإيمان هوالذى قلب صاحبه إلى الاخلاص ، ووضع النفقات في مواضعها ، والاحتراس من الإتيان بما يذهب فائدتها . وفي هذا تعريض بأن كلاً من الرياء والمن والأذى من صفات الكافرين التى ينبغى للمؤمنين أن يتجنبوها . هذه توجيهات ربانية وأرشادات قرآنية ، لوأن المسلمين اتبعوها ، وساروا على هديها لسعدوا في دنياهم ، وفي أُخراهم ولسادوا الدنيا وقادوا العالم ، كما كان أسلافهم . إنهم صنعوا امجاد وبطولات ومنحوا البلدان قاصيها ، ودانيها ، ونشروا العلم والأخلاق وحثوا الناس على الجهاد في سبيله ، وعلى الانفاق دون من وأذى ولا رياء فكانوا بحق مثلا صالحاً ، ونماذج فريدة في السلوك والعمل الصالح ، فبذلك طابت نفوسهم ، وصفت قلوبهم ، وطهرت سرائرهم ، وخلصت أعمالهم ، فسعدوا في الدنيا والآخرة ، ففى الدنيا بحسن السيرة ، وفي الآخرة بالفوز بجنات عرضها السماوات والأرض ، أُعدت لهم ، ولأمثالهم من المتقين الصالحين النائين عن الرياء والمن والأذى والنفاق ([1]).

ويعضد الآية السالفة الذكر آية أُخرى. وهى قول الله – سبحانه وتعالى-: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة الحُجُرات:١٧]. فالمراد : أن هؤلاء يعدون إسلامهم عليك يا محمد - ﷺ -منة وتفضيلا يستوجبون عليها الحمد والثناء، فقل لهم يا محمد- ﷺ -: "... قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ...". فإن نفع إسلامكم يعود عليكم، ولله المنة العظمى عليكم ، وذلك بالهداية للإيمان ، والتثبيت عليه ، إن كنتم صادقين فى دعوى الإيمان .وفي هذا ما إيماء وإشارة إلى أنهم كانوا كاذبون في ادعائهم الإيمان . وقد روى أن النبى- ﷺ - قال للأنصار" يوم حنين " : " " يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي؟وكنتم

1- صفوة التفاسير جـ ١ ، ص ١٦٨ وما بعدها نتصرف .
▫ أسباب النزول للواجدى ص ٤٧ .
▫ تفسير المراغى جـ ١ ، ص ٢٩ – ٣٥ بتصرف .

متفرقين فألفكم الله بي ؟وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟ " . فكلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمن وأفضل .

والله-عز وجل- سمى ما كان منهم إسلاماً وخضوعاً، لا إيماناً ، وذلك إظهاراً لكذبهم في قولهم " آمنا " ثم لما منوا على رسول الله- ﷺ -بما كان منهم قال- سبحانه وتعالى- لرسوله-عليه الصلاة والسلام - : أيعدون عليك بما ليس جديرا أن يعتد به من اسلامهم الذى سموه إيمانا وليس بذلك ؟ بل الله هو الذى يعتد عليهم ايمانهم إن صدقوا ، فهو قد أمدهم بهديه وتوفيقه . ثم أعاد الإخبار بعلمه بجميع الكائنات ، وبصره بأعمال المخلوقات فقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨﴾ [سورة الحُجُرات:١٨]. ويقول الله- سبحانه وتعالى- في هذا المضمار الأخلاقى لسيدنا محمد- ﷺ -:" ولا تمنن تستكثر ". فالله-عز وجل- يوجه نبيه -عليه الصلاة والسلام-إلى إنكار ذاته ، وعدم المن بما يقدمه من الجهد ، أو استكثاره واستعظامه : " ولا تمنن تستكثر " وهو سيقدم الكثير ، وسيبذل الكثير ، وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء ، ولكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم ما يقدمه ، ويستكثره ويمنن به ، وهذه الدعوة لا تستقيم فى النفس تحس بما تبذل فيها .

فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلاَّ حين تنساه ، بل حين لا تستشعره من الأصل لأنها مستغرقة فى الشعور بالله ، شاعرة بأن كل ما تقدمه هو من فضله ، ومن عطاياه . فهو فضل يمنحها إياه وعطاء يختارها له ، ويوفقها لنيله ، وهو اختيار واصطفاء وتكريم يستحق الشكر لله ، ولا المن والاستكثار .

ويقول بعض المفسرين ولا تُعْطِ عطاءً يا محمد - ﷺ - وتستكثره ، لأن الكريم يستقل ما يعطى وإن كان كثيراً ، وأعط عطاءً من لا يخاف الفقر. ويقول " ابن عباس " - رضى الله عنهما -: " لا تعطى عطية تلتمس بها أفضل منها " . بمعنى لا تعط شيئاً ليعطى أكثر منه . وسر النبى أن يكون العطاء خالياً عن أنتظار العوض تعففاً وكمالاً ، فإن النبى - ﷺ - مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق . وفي ذات المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى- : ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦﴾ [سورة البلد:٦] . والمعنى : إنهم إذا طلب اليهم أن يعملوا عملاً من أعمال البر قالوا : " إننا ننفق الكثير من أموالنا فى المفاخر والمكارم ، ولم يعلموا أن المكرمة ما عده الله مكرمة ، والبر ما اعتبره الله براً ، فليس من البر إنفاقهم المال في مشاقة الله ورسوله ، ولا إنفاقهم طائل الأموال فى الصد عن سبيل الله ، والكيد للذين آمنوا بالله ورسوله .

ويقول " ابن كثير " – رحمه الله تعالى – في تفسير هذه الآية:" يعنى بقول ابن آدم : " أنفقت مالاً لُبدًا ، أى كثيراً . ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ [سورة البلد:٧]. أيحسب أن لم يره لله-عز وجل- . فهذه الآيات تحث المسلم على التحلى بأخلاق القرآن الكريم وأن ينفق مما آتاه الله- سبحانه وتعالى- ولا تبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل على نفسه ، وأن يكون ذلك الإنفاق خالصاً لوجهه تعالى ، لا ينتظر جزاء إلاَّ من الله-عز وجل- وهو خير من يثيب على البذل والعطاء والحسنة بعشر أمثالها ويضاعفها الله لمن يشاء .

يقول الله – سبحانه وتعالى- : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١﴾ [سورة البقرة:٢٦١]. وقد عنى بتطبيق هذا المثل علميا بعض أعضاء الجمعية الزراعية " بمصر" فى مزارع " القمح " التى لها في التفتيش النموذجى وفى غيره ، فهدتهم التجارب إلى أن الحبة الواحدة لا تنبت سنبلة واحدة بل أكثر ، وقد وصلت أحياناً إلى " أربعين "وأحيانا إلى " ست وخمسين " وأحياناً إلى "سبيعين حبة " أو أكثر . وقد عثر عام ١٩٤٢ م أحد مفتشى الجمعية الزراعية بمصر آنفه الذكر على " سنبلة " أنبتت " سبعاً ومائة حبة " ، وعرض نتيجة بحثة على الإخصائيين من رجال الجمعية ، وغيرهم في حفل جامع ورأوا تلك السنبلة وعدوها عدا ، فاتفقت كلمتهم على صدق ما عدو رأى ، وشكروه على جهوده الموفقة ، وإن الزمان كفيل بتأييد قضايا الكتاب الكريم مهما طال عليها الأمد، وكلما تقدم العلم ظهر للناس صدق ما أخبر به القرآن الكريم . فهو الحق ، والصدق ، والنجاة ، ليس بالهزل ، ولا يأتيه الباطل من بين أيديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. حقاً إنه من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . إنه الحبل المتين ، وكلام الله رب العالمين (١) .

1 - صفوة التفاسير ، جـ ١ ، ص ١٦٨ وما عبدها ، جـ ٣ ، ص ٢٣٨ .
- تفسير المراغى جـ ١ ، ص ٢٨ وما بعدها ، جـ ٩ ، ص ١٤٨ .
- تفسير ابن كثير جـ ٤ ، ص ٥١٢ .
- مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٥٦٨ .
- التسيل لعلوم التنزيل جـ ٤ ، ص ١٦٠ .
- فى ظلال القرآن الكريم للأمام سيد قطب جـ ٦ ، ص ٣٧٥٥ .

" الحياء "

إن الحياء خلق الإسلام ، وطبع إيمانى ، وهوأمارة صادقة على طبيعة الإنسان ، فهو يميط اللِّثام عن صدق إيمانه ، ومقدار أدبه ، فإذا ما رأيت مسلما يتملكه الحياء فاعرف على الفور أنه يملك إيماناً صادقاً ، وضميراً حيا يقظا . ولذا يقول النبى - صلى الله عليه وسلم -: " إن لكل دين خلقاً ، وخلق الإسلام الحياء " [1] . وقد كانت الصرامة ملحوظة فى تعاليم اليهودية على عهد " موسى " - عليه السلام - ، وكانت السماحة ملحوظة فى تعاليم المسيحية على عهد " عيسى " - عليه السلام - . وقد تميز الإسلام بالحياء .

يقول **" ابن القيم "** :

هب البعثُ لم تأتنا رُسْله ... وجاحمة النار لم تُضرم

أليس من الواجب المستَحَقِ ... حياءُ العباد من المنْعِم ؟ [2]

والقدوة فى ذلك سيدنا " محمد " - صلى الله عليه وسلم -. فعن " أبى سعيد الخدرى " - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أشد حياءً من العذراء في خدرها ، وكان إذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه " [3] . وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " الحياء والإيمان قُرِنَا جميعا، فإذا رُفِعَ أحدهما ، رفع الآخر " . والعلة فى ذلك أن المرء حين يفقد الحياء يتدرج من سيء إلى أسوأويهبط من رذيلة إلى أرذل ولا يزال يهوى حتى ينحدر إلى الدرك الأسفل، وقد روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذا الحديث الذى يكشف فيه عن مراحل هذا السقوط الذى يبتدئ بضياع الحياء ،وينتهى بشر العواقب قال : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ عَبْدًا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ فَإِذَا نزع مِنْهُ الْحَيَاءَ لَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ مَقِيتًا مُمَقَّتًا فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ مَقِيتًا مُمَقَّتًا نُزِعَتْ مِنْهُ الأَمَانَةُ فَإِذَا نزعت مِنْهُ الأَمَانَةُ لَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ خَائِنًا مُخَوَّنًا فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ خَائِنًا مُخَوَّنًا نزعت مِنْهُ الرَّحْمَةُ فَإِذَا نزعت مِنْهُ الرَّحْمَةُ لَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ رجيما مُلَعَّنًا فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلاَّ رَجِيمًا مُلَعَّنًا نُزِعَتْ مِنْهُ ربقة الإِسْلاَمِ [4]" .فاذا نزع الحياء من المسلم لا يؤتمن على شيء إنه لا يؤتمن على مال ، ولا عرض ، ولا على موعد ، أوعهد ، أوميثاق ،

---

1 - رواه الامام " مالك " .
2 - جامحة النار يريد جهنم . تضرم أى توقد ، رواه الحاكم .
3 - رواه مسلم .
4 - رواه ابن ماجة .

أوعلى حفظ وديعة أوأمانة ، وتحقيق مطامعه ، وملذاته ، ويوم يبلغ الإنسان هذه المراحل يكون بذلك قد أفلت من قيود الدين ، وانخلع من ربقة الإسلام .

فالحياء خير كله . ومن ذلك قول الحق – سبحانه وتعالى – في هذا الخلق الكريم :
﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾
[سورة مريم:٢٣]. والمعنى : فألجأها المخاض وألم الطلق ، وشدة الولادة إلى ساق نخلة يابسة لتعتمد عليه عند الولادة ، فقالت السيدة الفضلى " مريم بنت عمران " : ياليتنى مت قبل هذا اليوم وكنت شيئاً تافهاً لا يعرف ولا يذكر وهذا القول لإبن عباس ، وقتادة – رضى الله عنهم – ويعنى " يا ليتنى مُــتّ " . لم أخلق ولم أكُ شيئاً . يقول " ابن كثير " – رحمه الله تعالى " : " عرفت السيدة الفضلى " مريم بنت عمران " أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ولا يصدقونها في خبرها وأنها حملت دون أن تقترف إثما ، أوترتكب منكراً ، أوتجترح سيئة، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية . ولذلك صدر منها هذا القول : " يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً " . أي قبل هذا الحال أي لم أخلق ولم أك شيئا. ولذلك أتخذت المكان القاصى النائى والبعيد حياءً من قومها ، ولاغور فهى من سلائل بيت النبوة ولأنها استشعرت منهم الاتهام والريبة والشك ، فرأت أن لا تراهم ، وأن لا يروها حياء منها وأدباً، وخوفا من توجية اللَّوم اليها .

ويقول " صاحب اللطائف " : " أَلَجَأَها وَجَعُ الولادةِ إلى الاعتماد إلى جزع النخلة . ولَّما أَخذها الطَلْقُ ، ودَاخَلَهَا الخَجَلُ مِنْ قومِها نَطَقَتْ بلسانِ العَجز ، وقالت : " **قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا** " . ويقال يحتمل أنها قالتها إشفاقاً من قومها ، لأنها عَلِمَتْ أَنَّهم سيبسطون لسانَ الملامةِ فيها بسلانِ الفُجْر؛ وينسبونها إلى الفحشاء . ويقال قالتها شفقةً على قومها لئلا تُصِيبَهم بِسبَبَها عقوبةً . ويقال قالت : "**يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا**" حتى لم أسمع مَنْ قال في الله تعالى بسببي إن " عيسى " ابن الله وابن مريم ، وإن مريمَ زوجتُه . . . تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً! .

ويقال "**يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا**" : في الوقت الذي كنتُ مرفوقاً بي ، ولم تستقبلني هذه الخشونةُ في الحالةِ التي لَحِقَتْنِي . ويقال "**يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا**" : في الوقت الذي لم يكن قلبي متعلقاً بسبب . وفي قوله " فأجأها المخاض " . يقال : جاء ، وأجاء لغتان والمعنى واحد والأصل في " جاء " أنه يتعدى بنفسه للواحد و" أجاء" يتعدى لأثنين لأن استعماله قد تغير بعد النقل فصار بمعنى " ألجأه إلى كذا " . وقيل إن مريم – عليها السلام

حين اتكأت إلى جزع النخلة اليابسة أخضر، أطلع الجريد والخوص، والتمر رطباً فى وقت واحد . كما أن حمل عيسى وولادته وتصويره في وقت واحد .

والمشهور أن ولادة "- عيسى عليه السلام- كانت في " بيت لحم " وأنها لما هربت وخافت عليه أسرعت إلى"بيت المقدس"، فوضعته على صخرة فانخفضت الصخرة له وصارت كالمهد وهى الآن موجودة بدار " مجرم بيت المقدس " ، ثم بعد ايام توجهت به إلى " بحر الأردن " فغمسته فيه . وهواليوم الذى يتخذه النصارى عيداً ويسمونه " عيد الغطاس"، وهم يظنون أن المياه في ذلك اليوم تقدست ، فلذلك يغطسون في كل ماء . ومن زعم أنها ولدت في مصر " بكورة " يعنى ببلد " أهناس " فلم يثبت ذلك . و" أهناس " هى المسماة بالبهنسا " وقيل " أهناس " قرية بجانب البهنسا وبجوارها .

وإن الاستحياء أنساها بشارة الملائكة بسيدنا " عيسى "- عليه السلام- لذلك تمنت الموت . وقد اختلف المفسرون فى فترة حمل عيسى – عليه السلام – . فالجمهور أنها حملت به تسعة اشهر. ويقول عكرمة – رضى اللّٰه عنه – أى مدة الحمل ثمانية أشهر، قال : "ولهذا لا يعيش ولد الثمانية أشهر. وسئل " ابن عباس – رضى اللّٰه عنهما – عن حمل "مريم " فقال : " لم يكن إلاَّ أن حملت فوضعت . وكان معها فى المسجد رجل صالح من أقاربها يقال له" يوسف النجار "، فقال لها :" يا مريم ، إني سائلك عن أمر فلا تعجلي عليّ .

قالت: وما هو؟ قال: هل يكون قَطْ شَجَرٌ من غير حَبّ؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم - فهمت ما أشار إليه - أما قولك : "هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر؟ " فإن اللّٰه قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب، ولا بذر" وهل خلق يكون من غير أب؟ ". فإن اللّٰه قد خلق آدم من غير أب ولا أم. فصدقها ، وسلَّم لها حالها.

ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة، انتبذت منهم مكاناً قصيّاً، أي: قاصيًا منهم بعيداً عنهم؛ لئلا تراهم ولا يروها. حياء وهو خُلُق القرآن الكريم .

وفي الآية جواز تمنى الموت إذا خشى المسلم " الفتنة " واجعل الموت راحة لنا من كل شر. هذا دعاء الصالحين . وذلك مثل قول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة القصص:٢٥]. يعنى : واضعة كُمْ ذراعها على وجهها حياءً منه ، فأجابها في نفسه منكراً أخذ الأجرة ، كأنها قصدت المكافأة إن كان ممن يريدها ، فمشت بين يديه فجعلت الريح تضرب ثوبها فتكشف ساقيها ،

فقال لها:"أمشى خلفى ودلينى على الطريق ففعلت إلى أن جاء أباها " شعيب " – عليه السلام – وعنده عشاء ، فقال له :"أجلس . فتعشى . قال : أخاف أن يكون عوضا مما سقيت لهما ، وإنا أهل بين لا نطلب على عمل الخير عوضا . قال : " لا" عادتى وعادة ابائى: إكرام الضيف ، وأطعام الطعام ، فأكل وأخبره بحاله ، فلما جاءه ، وقص عليه القصص قال له : " لا تخف فإنه لا سلطان لفرعون على "مدين " . والمراد : بالحياء هنا شدته .

ويقول " ابن كثير" : " ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ .... ﴾ أي: مشي الحرائر، كما روي عن أمير المؤمنين عمر- رضي الله عنه- أنه قال: كانت مستترة بكم ذراعها . قال عمر رضي الله عنه : جاءت تمشي على استحياء، قائمة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع دلاجة ، خَرَّاجة ، ولاجة. والسلفع من النساء: الجريئة السليطة، ومن النوق: الشديدة. { .... قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا .... } ، وهذا تأدب في العبارة، لم تطلبه طلباً مطلقاً ، وطلبته في أدب ، ووجهت الدعوة باسم أبيها حتى لا يوهم ريبة متوهم أنها دعته لنفسها إعجاباً به وبقوته وشهامته ، ففعلت ذلك دفعاً للتهمة والريبة . هذا هوخلق المسلم في القرآن الكريم ، فواجب علينا نحن المسلمين أن نتخلق بأخلاق القرآن وهودستورنا حتى نسعد في جميع حياتنا،ونكون من الفائزين في الدارين[1] .

ويقول رسول الله- ﷺ -: " الحياء من الإيمان ، والإيمان في الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والجفاء في النار" [2] . وفي الأثر : " ما أحببت أن تسمعه آذناك فأته ، وما كرهت أن تسمعه أذناك فأجتنبه " . وعن عائشة – رضى الله عنها قالت – أن رسول الله- ﷺ - قال لها :" يا عائشة ، لوكان الحياء رجلاً لكان رجلاً صالحاً ، ولوكان البذاء رجلاً لكان رجل سوء " [3] . وقد عاب المشركين على الإسلام تحقير الأصنام ، وأنها لا تخلق " ذبابة " فبين الله تعالى أنه الحق أن تهاجم أصنامهم ، وتسب آلهتهم . فقال الله- سبحانه وتعالى- : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[سورة البقرة:٢٦] . فإبراز الأصنام فى هذه الصورة من العجز والضعف حق . ﴿ .... وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ .... ﴾[سورة

١- مختصر تفسير ابن كثير ، جـ ٢ ، ص ٤٤٨.
٢- رواه احمد .
٣- رواه الترمزى .

الأحزاب:٥٣]. وفي سبيل إحقاق الحق لا يتهيب المسلم أحداً ، ولا يخشى بأساً ، ولا يعمل حساباً للأئِمة . والحياء في أسمى منازله وأكرمها يكون من الله- عزوجل- فنحن نطعم من خيره ، ونتنفس في جوه ، وندرج في أرضه وملكه ، ونستظل بسمائه ، ومع ذلك نعصيه ، والبعض يكفر به وآخر يفسد فى الأرض ، ومع ذلك تغمرنا ألؤه ، وتغطينا نعمه ويعمنا خيره ورزقه من المهد إلى اللحد . وعن " ابن مسعود " – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله- ﷺ -: "استَحْيُوا منَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاء ». قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّا نَستَحي وَالْحَمْدُ للَّه. قَالَ « لَيْسَ ذَلكَ وَلَكنْ مَن استَحَى منَ اللَّه حَقَّ الْحَيَاء فَلْيَحْفَظ الراسَ وَمَا حَوَى وَلْيَحْفَظ الْبَطْنَ وَمَا وعى وَلْيَذْكُر الْمَوْتَ وَالْبلَى وَمَنْ أَرَادَ الآخرَةَ ترك زينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلكَ فَقَد استَحْيَا منَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاء " [(١)]. ويقال : إن هذه العظة للصحابى الجليل " عبد الله بن مسعود " – رضى الله عنهما – نستوعبا الكثير من آداب الإسلام العظيمة ، ومناهج الفضيلة والحياء بهذا الشمول هوالدين كله .

قال رسول الله- ﷺ -: " الإِيمَانُ بِضْعٌ أَوبضْعٌ وستون شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ " [(٢)]. وفي الأثر : "استحى من الله كما تستحى من أولى الهيبة فى قومك"."الحياء خير كله "[(٣)] . وقال رسول الله- ﷺ -: " إذا لم تستح فأصنع ما شئت " [(٤)] .

1- رواه الترمزى .
2 - رواه البخارى .
3 - رواه مسلم .
٣ - تفسير الطبرى جـ ٢٠ ، ص ٣٩ .

- تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ١١٦ – ١١٧ ، ص ٣٨٤ .
- تفسير المراغى جـ ٦ ، ص ص ٤٤ – ٤٥ ، جـ ٧ ، ص ٤٨ .
- الفتوحات الالهيه وحاشية الجمل جـ ٣ ، ص ١٤ – ١٥ – ٢٢ .
- اللطائف للقشيرى جـ ٢ ، ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ .
- مختصر ابن كثير جـ ٢ ، ص ٤٤٨ .
- موطأ " مالك " .
- صحيح مسلم
- صحيح البخارى .
- الحاكم .
- الترمزى .
- الطبرى .
- ابن ماجة .

" الثبات على الحق "

ويمضى القرآن الكريم في الحث على الأخلاق الكريمة فيقول- سبحانه وتعالى- : ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾[سورة طه:٧٠:٧٢]. بعد أن ذكر الله – سبحانه وتعالى – " الموعد " يوم الزينة وذكر أنهم قالوا ائتوا صفا ذَكَرَ هنا أنهم بعد أن أتوا خيروه بين أن يبدأ بالقاء ما معه ، أو أن يبدأوا هم ، فاختار الثانية ، وحين بدأوا فألقوا حبالهم وعصيهم ، وهنا خشى" موسى "– عليه السلام – عاقبة أمره ، فأوحى إليه ربه ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾[سورة الأعراف:١١٧] . لا تخف إنك أنت الأعلى والقى ما في يمينك فسيكون لك الظفر ، والنصر عليهم ، وقد تحقق ما وعده الله به ، وكتب له النصر ، وآمن به سحرة فرعون ، فلجأ فرعون إلى العناد ، والاستكبار ثم توعد السحرة بأنه سيقطع أيدهيم ، وأرجلهم من خلاف وسيصلبهم فى جذوع النخل ، فقابلوا تهديده بالاحتقار ، والاستهزاء والتهكم والسخرية ، فقالوا إنما أنت مسلط علينا في هذه الحياة الدنيا ، وعذابك لا يعدوها ، وما عند الله من العذاب لا يضارعه ولا يساويه عذاب ، وما عنده من الثواب لا يقدر قدره ، ففى جناته التى تجرى من تحتها الأنهار ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر. وقد قال السحرة فى آية أخرى : ﴿ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[سورة الشعراء:٤٤]. وقال تعالى : وهنا يقول : ﴿ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾[سورة الأعراف:١١٦]. ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾[سورة طه:٦٦]. وذلك أنهم اودعوها فى الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها ، وإنما كانت حيلة ، فألقى كل منهم عصا وحبلا حتى صار الوادى مملوء بالحيات يركب بعضها بعضا فخاف " موسى " – عليه السلام – على الناس أن يفتتنوا بسحرهم فأوحى الله إليه أن ألقى ما فى يمينك " وهى " عصاه ، فإذا هى تلقف ما صنعوا وفعلاً وقع ما وعده به ربه فالتقفت ما صنعوا من السحر ، لأن سحرهم هذا يعد كبراً ، وبهتاناً ، وافتراءً ﴿....وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [سورة طه:٦٩]. وعند ذلك وقع السحرة سجدا لله : ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ

﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [سورة الأعراف:١٢٠:١٢٢]. ولهذا قيل: كانوا فى أول النهار سحرة وفى آخر النهار شهداءً بررة . يقول صاحب اللَّطائف : " ولما طلعت في أسرارهم شموسُ العرفان ، وانبسطت عليهم أنوار العناية أبصروا الحقَّ سبحانه بأسرارهم ، فنطقوا ببيان التصديق ، وسجدوا بقلوبهم لشهودهم ، ولم يحتشموا مما توعدهم به من العقوبة ، ورأوا ذلك من الله فاستعذبوا البلاء ، وتحملوا اللأواء ، فكانوا في الغَـدَاة كُفَّاراً سَحَرَةً ، وأَمْسَوْا أَخياراً بَرَرَةً . وفى هذه العبارة فتح لباب الأمل أمام العصاة نظراً لقصر المسافة بين الكفر والإيمان ، فهى كما بين الغداة ، والمساء . عَلِمُوا أَنَّ البَلاَءَ في الدنيا ينقضى- وإنْ تمادى ، وينتهي وإن تناهى. أَهمُّ الأشياء - على مَنْ عرَفه - مغفرتُه لخطاياه؛ فهذا آدمُ - عليه السلام - لما استكشف من حاله ، وحلَّ به ما حلَّ قال : ﴿....رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي ....﴾ [سورة القصص:١٦]. وقال سبحانه و تعالى لنبينا - ﷺ - ﴿....وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ....﴾ [سورة غافر:٥٥].

وقال نبينا - ﷺ -: « إنه ليعان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة »[1]

ومَنَّ عليه سبحانه بقوله : ﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢﴾ ﴾ [سورة الفتح:٢]وكان عدد السحرة سبعون ألفا ، وقيل كانوا أقل من ذلك . وقيل كانوا بضعة وثلاثين ألفا ، وقيل كان سحرة فرعون أثنى عشر ألفا . ويقول " ابن عباس " – رضى الله عنهما - : " كانت السحرة سبعين رجلاً أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء" . قال الأوزاعي: لما خرَّ السحرة سُجَّداً رُفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها. وقيل : "رأوا منازلهم تبني لهم وهم في سجودهم " .

فبعد أن رأى"فرعون"ايمان السحرة،لجأ إلى العناد والمكابرة والتهديد والوعيد . فقال: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة طه:٧١]فهو كبيركم الذي تعلمتم منه السحر وتآمرتم معه عَلَيّ وعلى رعيتى . كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف: ١٢٣:١٢٤]. يقول " ابن عباس " – رضى الله عنهما - : " إن فرعون هو أول من فعل ذلك يعنى التعذيب والتمثيل بهذه الطريقة. ثم نراه يقول لهم ": أنتم تقولون إنى وقومى على

1- اخرجه مسلم وابوداود

ضلاله وأنتم وموسى على الهدى فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه ومما لا ريب فيه أن العذاب له ولقومه ولكل من اتبعه في الضلال والغوايه والعناد ، والاستكبار بغير الحق ، فقالوا له بايمان صادق ، وعقيدة ثابتة ، وإيمان لا يخالجة شك : " افعل ما شئت فإنك تستطيع أن تفعل ما شئت فى هذه الحياة الدنيا ، لكننا فى الدار الآخرة وهى دار القرار ، والسبب في ايماننا لنتخلص من عبادتنا الواهمة وتخلصنا من الآثام وما اكرهتنا عليه من السحر والله خير وابقى .

وهنا نرى فرعون يهددهم في آية أُخرى فيقول لهم : ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة سورة الشعراء:٤٩]. أى ما ينالكم منى ، فقالوا مجيبين له : "لا ضير ولا ضرر علينا مما تفعله بنا ، إننا نرجوا أن يغفر لنا ربنا خطاينا أن كنا أول المؤمنين في زماننا . ثم يأمر الله نبيه – ﷺ – " بالصبر " حيث إنه – عليه السلام – أدى واجبه ، وَبَلّغ رسالته ، وأنذر قومه ، ودعا عشيرته ، وذلك بالبراهين الساطعة ، والحجج القوية ، والدلائل الواضحة ، فإن الذى يطلب شيئاً فوق ذلك فهو مكابر ، وجاحد ، ومعاند . يقول الشاعر :

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضوء الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ

والله يقول لنبيه – عليه السلام – : " إذا علمت حالهم وطبع الله على قلوبهم فاصبر، إن وعد الله حق ، ووعده الحق نصره عليهم – ﷺ – ولا يستخفنك الذين لا يومنون بالبعث فيحملونك على ترك الصبر فلا تترك الصبر ، يقول تعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ .....﴾ [سورة النحل:١٢٧]

ويعد الثبات على الحق خلق قرآنى ، فواجب على المسلمين أن يتخلقوا بهذا الخلق العظيم ليسعدوا في الدنيا والآخرة والسعادة في الدنيا تكون بالطمأنينة ، والاستقرار النفسى، وراحة البال حيث إن المسلم بثباته على الحق يكون قد أراح ضميره وأسعد نفسه، كما أنه يُسْعِدُ الآخرين .

وهناك كثير من الناس لا يثبتون على الحق إرضاءً لشخص ، أورئيس مصلحة ، أوصاحب سلطة . كى ينال رضاه بسخط الله- سبحانه وتعالى -ويحتج بقوله : " هذا أمر وسط " . فيقول الحق-سبحانه وتعالى- :

﴿....فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ....﴾ [سورة يونس:٣٢]

" فماذا بعد الحق إلاَّ الضلال " فعلينا نحن المسلمين أن نثبت على الحق ، ولوعلم أن في ذلك حتف أنفه وهلاكه لأنه بذلك يرضى اللّٰه بسخط الناس ، كما فعل سحرة فرعون، فقد أرضوا ربهم وخالقهم بسخط فرعون وجبروته .[١]

1 - لطائف الاشارات جـ ٢ ، ص ٥٦٥ وما بعدها .
- تفسير القرآن العظيم لأبن كثير جـ ٣ ، ص ١٥٨ وما بعدها .
- الفتوحات الالهية جـ ٣ ، ص ٨٦ – ٨٧ وأيضا ص ٣٩١ وما بعدها وص ١١٧ .

" المودة فى القربى "

بعد أن ذكر الله -عز وجل- في الآيات السالفة الذكر أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتعون بالنعيم في روضات الجنات ، وأنه يعطهم من فضله ما فيه قرة اعينهم رحمةً من لدنه ، يذكر الله -عزوجل- هنا أن ذلك كائن لا محالة ببشارة منه لهم ثم يعقب هذا بأن أمر رسول الله- ﷺ -أن يقول لهم :"أنه لا يسألهم على هذا البلاغ والنصح أجرا ، وإنما يطلب منهم التقرب إلى الله- سبحانه وتعالى- ، وحسن طاعته " . فقال تعالى :

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

[سورة الشورى:٢٣]

والمعنى: قل لهم يا محمد - ﷺ -:إنى لا أسألكم على تبليغ ما أبلغتكم به من هذا الدين القويم نفعاً منكم في دنياى ، ولكن أسألكم أن تؤدوا الله ورسوله في تقربكم إليه بالطاعة ، والعمل الصالح ، ويدخل في ذلك مودة النبى- ﷺ -، ومودة قرابته ، ومودة ذوى القربى من المسلمين فإن من تقرب إلى الله أحب رسوله- ﷺ -، وأكرم قرابة الرسول،وأكرم قرابته هومن المسلمين،فالآية عامة تنتظم جميع المسلمين فى المحبة والمودة، والتراحم ، والعطف ، قال - ﷺ -:"مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وتراحمهم وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوتَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ والحمى " .

ويقول " ابن عباس "-رضى الله عنهما - : " قال لهم رسول الله- ﷺ -: " لا أسألكم عليه أجراً إلاَّ أن تَوَدّوني في نفسي لقرابتي منكم، وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم " . وعن "الشعبى " قال : " أكثر الناس علينا في هذه الآية : " ..... ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ ..... " .

فكتبنا إلى " ابن عباس " – رضى الله عنهما – نسأله عن ذلك ، فقال : " إن رسول الله- ﷺ -كان واسط النسب في قريش ليس بطن من بطونهم إلاّ ، وله فيه قرابة ، فقال الله:" ... ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ ...."على ما أدعوكم إليه . ".... ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ ....". أن تودوني لقرابتي منكم ، وتحفظوني بها " .

" والذي جاء بالصدق" هورسول الله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " وصدق به " قال المسلمون " أولئك هم المتقون " .

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : اتقوا الشرك .

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ...﴾ يعني في الجنة مهما طلبوا وجدوا ، ﴿...ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الزُّمَر:٣٥]

كما قال - عز وجل- في الآية الأُخرى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة سورة الأحقاف:١٦] [1] .

فالاسلام يحث ويحض المسلم على الصدق فى جميع أقواله وأفعاله فإن الحيف في الشهادة مثلا يعد من أشنع ألوان الكذب ، فمن الواجب على المسلم أن يَصْدِق في الشهادة ولوكان ذلك على أدنى الناس منه قرابة ، أوأحبهم إليه لا تميل به قرابة ، ولا عصبية ، ولا رغبة ولا رهبة . فَتَزْكِيـــة المرشحين مثلا لعضوية مجلس الشورى أو مجلس الشعب ، أو منصب من المناصب العامة يعد لونا من ألوان الشهادة ، فالذى ينتخب المغموط في كفايتة ، وأمانته ، فقد كذب وزور ولم يقم بالقسط والعدل ، كما أن التقارير التى يكتبها أى مسئول مثل التقارير التى تكتب في الأشخاص الذين يتقدمون لشغل درجات علمية ، أومناصب قيادية كالقضاء والنيابة والكليات العسكرية ، وهى شهادة يسأل عنها امام الله يوم القيامة إذا ما زور في تقريره وكتب له أشياءً لا يملكها المتقدم لشغل هذا المنصب كما نرى في عصرنا هذا . يقوم بكتابة تقرير يثبت فيه أن هذا المتقدم يملك حيازة لأكثر من عشرين فدانا ، أوحظيرة خيول ، وعقارات ، وعمارات وهو لا يملك من حطام الدنيا شيئاً . فتلك الأمور تزوير وحيف وجور وظلم لأنه بذلك التقرير ربما يشغل مقعداً كان من الواجب أن يشغله غيره ، فبالتقارير الظالمة يقع الجور والظلم وهو مُنَــافٍ للصدق الذى يجب أن يتخلق به المؤمن .

قـــال تعـــالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [سورة النساء:١٣٥]

---

1 - تفسير ابن كثير جـ ٤ ، ص ٣٥- ٥٤.
▫ صفوة التفاسير للصابونى جـ ٣ ، ص ٧٩ ــ ٨٠ .



"وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي"وهنا يسأل " حصين " " زيد بن الارقم " : ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال: إن نساءه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حُرم الصدقة بعده قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس، قال: أكل هؤلاء حرم الصدقة ؟ . قال: نعم .

عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت: يا رسول الله ، إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضا لقوهم ببشر حسن ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها ؟ .

قال: فغضب النبي- ﷺ- غضباً شديداً، وقال: "والذي نفسي بيده، لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله " . وفى رواية أُخرى قال- ﷺ-: "والله لا يدخل قلب امرئ إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتي" . وعن ابن عمر عن أبى بكر الصديق – رضى الله عنهم أجمعين- قال: ارقبوا محمداً- ﷺ- في أهل بيته .

ويروى أن رسول الله قال- ﷺ-: " إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، والآخر عترتي : أهل بيتي ، ولن يَتَفَرَّقا حتى يردا علي الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما " . عن أبي إسحاق، عن حَنَش قال: سمعت " أبا ذر" وهوآخذ بحلقة الباب ، يقول: " يا أيها الناس، من عرفني فقد عرفني ، ومن أنكرني فأنا " أبـاذر" ، سمعت رسول الله- ﷺ- يقول: " إنما مثل أهل بيتي فيكم مَثل سفينة نوح، من دخلها نجا ، ومن تخلف عنها هلك " . فواجب على كل المسلمين حب الله ، وحب رسوله- ﷺ-، وحب آل بيته ، وحب كل من أحب آل بيته . ويقول الشاعر الصوفى :

والحب إن ملك النفوس أعزها   والعارفون بربهم علماء

فالذين ينكرون حب آل بيت النبوة إنما هم فى ضلال مبين ، وقد ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوه ، فهم لا يبصرون من العماء ،وذلك مثل " الشيعة " وهواسم في غير موضعه . هؤلاء الذين يسبون آل البيت ، ويعيبون السيدة الفضلى "عائشة " بنت أبى بكر وزوج النبى- ﷺ-، بل ويتهمونها ، والعجيب أنهم يسمون " بالشيعة "

والمفروض أن يكون هؤلاء أشد حباً من غيرهم لآل بيت رسول الله- ﷺ -، فحب الله وآل بيته عيون كل مسلم صحيح العقيدة ، راسخ الإيمان .

اللهم ارزقنا محبتك ، ومحبة نبيك- ﷺ -، ومحبة آل بيته ، وحب من يحب الله ورسوله وآل بيته .... آمين .(١)

1- تفسير ابن كثير جـ ٤ ، ص ١١١ – ١١٤ .
- مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٢٧٥ .
- تفسير القرطبى جـ ١٦ ، ص ٢٠ .
- البحر المحيط جـ ٧ ، ص ٥١٦ .
- فى ظلال القرآن الكريم جـ ٥ ، ص ٣١٥٣ وما بعدها بتصرف .
- تفسير المراغى جـ ٩ ، ص ٣٨ وما بعدها بتصرف .
- حاشية الجمل .
- الكشاف للزمخشرى .
- تفسير النسفى .
- حاشية الشهاب على البيضاوى .

" عدم الحنث "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة "عدم الحنث "فيقول سبحانه: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾[سورة ص:٤٤].والمعنى: وخذ بيد حزمة من ريحان أو كلأ فاضرب بها ، فيكون ذلك تحلل ليمينك التي حلفتها . والكتاب لم يبين لنا علام حلف ؟ وعلى من حلف ؟ لكن الرواة يذكرون انه حلف على زوجه "رحمة بت أفزايم " وقد كانت ذهبت لحاجة فأبطأت ، فحلف ليضربنها ان برئ مائة ضربة ، فرخص له ربه - سبحانه وتعالى- ان يأخذ حزمة صغيرة ويضربها بها ، وبذا يتحقق البر فى يمينه رحمة به وبها ،لحسن خدمتها له ، وقيامها بواجباتها المنزلية أثناء مرضه . وفى هذا مخرج ، وفرج ، لمن اتقى الله وأناب إليه ، ولهذا قال – عزوجل – : "...إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ...." . يعني : وجدنا أيوب صابراً على ما أصابه في النفس ، والأهل ، والمال ، من أذى ، فجازيناه بما فرج كربه ، واذهب لوعته ، وليس في الشكوى إلى الله إخلال بالصبر ، وليس فيه شئ من الجزع ، فهو مثلما تمنى العافية ، وطلب الشفاء .

وقد روى انه كان يقول كلما أصابته مصيبة :"اللَّهم أنت أخذت ، وأنت أعطيت " وكان يقول فى مناجاته : " إلهي قد علمت انه لم يخالف لساني قلبي ، ولم يتبع قلبي بصري، ولم تلهني ما ملكت يميني ، ولم آكل إلا ومعي يتيم ، ولم أبت شبعان ، ولا كاسياً وإلاَّ ومعي جائع اوعريان . ويقول المفسرون : "فلما اشتد به البلاء ، وطالت به المدة ، وسوس اليها الشيطان قائلا : الى متى تصبرين؟ فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجر فقالت له : الى متى هذا البلاء ؟ فغضب من هذا الكلام وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط فأمر الله ان يأخذ حزمة من قضبان خفيفة فيها مائة عود ويضربها بها ضربة واحدة ، وبر فى يمينه ، ورحمة من الله به وبزوجه التى قامت على رعايته وصبرت على بلائه ، وهذا من

الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ، ولهذا قال الله تعالى : "....إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ....". يعنى : ابتليناه فوجدناه صابراً على الضراء . نعم العبد أيوب – عليه السلام – انه كثير الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة ، والإنابة ، والعبادة .

وهذا الأمر يعد تكريماً لسيدنا أيوب – عليه السلام – ، ونحن نرى إنه عام لكل من اتقى الله – سبحانه – يجعل له من كل ضيق مخرجا ، وفي كل شدة فرجا . يقول تعالى : ﴿ .....وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ .... ﴾ [سورة الطلاق: ٢:٣]

وان كان الإسلام قد أباح الحنث للمسلم إذا حلف على يمين ورأى غيرها خير منها فليحنث ثم ليكفرن عن يمينه لقول رسول الله– ﷺ –: " من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا منها فليحنث في يمينه ثم ليكفرن " . لكن هذا الأمر يعد خصوصية لسيدنا أيوب – عليه السلام، كما هوعام لجميع المسلمين المتقين الذين يخشون ربهم بالغيب يجعل الله لهم من أمره يسرا ، وينجيهم من المزالق ، ويأخذ بأيديهم إلى طرق النجاة ، وسبيل الفرح والنجاح .

كما أن الأمر في هذه الآونة يحتاج إلى التذرع بالصبر الجميل دون ضجر أو ملل ، ولا سأم ولا شكوى إلا لله - سبحانه وتعالى - فالشكوى لله لا تعد ضجراً ، ولا عدم رضا ، إنما هي طلب لتفريج الكرب ، وإزاحة الغمة ، وانفراج الشدة [١] .

1- تفسير المراغى جـ ٨ ، ص ١٢٦ .
- صفوة التفاسير جـ٣ ، ص ٦١ .
- تفسير القرطبي .
- تفسير أبوالسعود .
- الكشاف للزمخشرى .
- حاشية الجمل .

" الوفاء "

ويمضى القرآن الكريم في الحث على الخلق ، ومن بين هذه الأخلاق القرآنية الفاضلة " الوفاء " وهى خصلة من الخصال الإسلامية التي يجب أن يتحلى بها كل مسلم ، وأن يزين بها حياته ، فإذا أبرم المسلم عقداً فيجب ان يحترمه ، وإذا أعطى عهداً يجب ان يلتزمه، والإيمان الصادق يحتم على المسلم أن يكون عند كلمته التى قالها ، ينتهي إليها مثل ما ينتهي الماء عند شطآنه ، وبذلك يصبح المسلم معروفاً ومشهوراً لدى الناس بهذه الفضيلة العظيمة وهى الوفاء الذي أصبح اليوم معدوما أويكاد بين المسلمين . وصدق القائل:

اعلم ان المستحيل ثلاثة   الغول والعنقاء والخل الوفي

وفى هذا يقول الله سبحانه : ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة البقرة:٤٠]والمعنى : يا أولاد النبي الصالح يعقوب – عليه السلام- اذكروا ما أنعمت به عليكم ، وعلى أبائكم من نعم لا تعد ولا تحصى ، فأدوا ما عاهدتموني عليه من الإيمان والطاعة ، أوفوا بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب ، فاخشوني دون غيري . فيقول المراغى في تفسيره : " احفظوا بقلوبكم نعمى وذلك بالتفكر فى شكرها باللِّسان " . وفى هذا إشارةً إلى أنهم نسوها ، ولم يخطروها ببالهم ولم تعين الآيه هذه النعمة ، والمراد بها : نعمة النبوة التى اصطفاهم بها زمناً طويلاً ، حيث أنهم كانوا يسمون " شعب الله " وهذه المكرمة التى اوتوها ، والنعمة التى اختصوا بها ، وكانوا مفضلين على الأمم والشعوب ، تقتضى ذكرها ، وشكرها ، ومن شكرها (الإيمان بكل نبي يرسله الله لهداية البشر) لكنهم جعلوا هذه النعمة حجة للإعراض عن النبي- ﷺ - والازدراء به ، زعما منهم ان فضل الله محصور فيهم ، فلا يبعث الله نبي إلاَّ منهم .

ولو نظر بنو إسرائيل إلى العهد العام ، أو العهود الخاصة المعروفة فى كتابهم المنزل إليهم ، ومنها انه سيرسل لهم نبى من بني إخوتهم " إسماعيل " - عليه السلام- يقيم شعباً جديداً لآمنوا بالنبي - ﷺ -، واتبعوا النور الذي انزل معه وكانوا من الفائزين . أما عهد الله لهم فإن يمكن لهم فى الأرض المقدسة ، ويرفع من شأنهم ، ويخفض لهم العيش فيها ، وينصرهم على أعدائهم الكفرة ، ويكتب لهم السعادة فى الآخرة ، ولما كان من موانع الوفاء

بالعهد خوف بعضهم من بعض ، ذكر هنا إن الخوف يجب أن يكون من الله وحده ، فقال تعالى : ﴿... وَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠﴾ . يعنى : لا ترهبوا ولا تخافوا أحداً غيره وهوالذى بيده مقاليد الأمور ، وهوالله الذى انعم عليكم بتلك النعم الكبرى وهوالقادر على سلبها منكم ، وعلى عقوبتكم على ترك الشكر عليها ، ولا يرهب بعضكم بعضا خوف فوت بعض المنافع ، ونزول بعض الأضرار اذ انتم اتبعتم الحق ، وخالفتم غيركم من الرؤساء .

وفى نفس المعنى يقول الحق سبحانه :﴿ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [سورة البقرة:١٧٧] يقول أهل العلم : " هذه آيه عظيمة من أمهات الأحكام لأنها تضمنت ستة عشرة قاعدة وهى : الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، والنشر ، والحشر ، والميزان ، والسراط ، والحوض ، والشفاعة ، والجنة ، والنار ، والملائكة ، والكتب المنزلة ، وإنفاق المال ، وإيصال القرابة ، وتفقد اليتيم وعدم إهماله ، والمساكين كذلك ، ومراعاة ابن السبيل ، وهوالذى انقطع به الطريق ، وقيل هوالضيف .

وقوله تعالى: " ...وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ... ". يعنى : والذين يوفون بعهودهم اذا عاهدوا عليها ، وهذا شامل لما يعاهد عليه الناس بعضهم بعضا ، ولما يعاهد عليه المؤمنون ربهم من السمع والطاعة لكل ما جاء به فى دينه ، ولا يجب الوفاء به اذا كان في معصية ، ومثل العهود " العقود " فيجب علينا الوفاء بها ما لم تكن مخالفة لقواعد الدين العامة . وفى الوفاء بالعهود والعقود حفظ كيان المجتمع من أن ينفرط عقده ، كما أن الغدر والإخلاف فيها هادم للنظام ، ومفسد للعمران ، فما من أمة فقدت الوفاء بالعهد - وهوركن الأمانة وقوام الصدق – إلا حل بها العقاب الألهى ، فانتزعت الثقة من بين أفرادها حتى بين الأهل والعيال ، فيعيشون متخاذلين وكأنهم وحوش مفترسة ، ينتظر كل واحد وثبة الآخر عليه ، اذا أمكن يده ان تصل إليه ، ومن ثم يضطر أفرادها إلى الاستيثاق فى عقودهم بكل ما يقدرون عليه ويحترس كل منهم من غدر الآخر ، فلا يكون هناك تعاون

ولا تناصر، بل تباغض وتحاسد، ولاسيما بين الأقارب، ولو أن الوفاء شمل الناس لعاشوا فى سعادة ،وامن وطمأنينة، وهدوء واستقرار، ولسلموا من هذا البلاء .

ويقول الله – عز وجل – في ذات المعنى : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة آل عمران:٧٦] والمعنى : بلى عليكم في الأميين سبيل، وعليكم الوفاء بعقودكم المؤجلة، والأمانات، فمن أقرضك مالاً إلى أجل مسمى، أو باعك بثمن مؤجل، اوائتمنك على شئ وجب عليك الوفاء به، وأداء الحق له في حينه دون الحاجة إلى الإلحاح في الطلب أو إلى التقاضى، وبذلك قضت الفطرة وحتمت الشريعة، وفى هذا إيماء إلى ان اليهود لم يجعلوا الوفاء بالعهد حقاً واجباً لذاته، بل العبر عندهم بالمعاهد، فإن كان اسرائيلياً وجب الوفاء له، ولا يجب الوفاء لغيره .

والعهد ضربان : الأول : عهد المرء مع أخيه فى العقود والأمانات . الثاني : وهوعهد الله تعالى، وهوما يلتزم به المؤمن لربه، وذلك بإتباع دينه، والعمل بما شرعه على لسان رسوله .

واليهود لم يفوا بشئ منها ، اذ لو أوفوا بعهد الله لآمنوا بالنبي – ﷺ – واتبعوا النور الذى انزل معه، كما وصاهم بذلك كتابهم على لسان رسولهم موسى – عليه السلام – وقد جعل الله جزاء الموفين بالعهد الذين تجنبوا الغدر والإخلاف محبة الله تعالى ورحمته في الدنيا والآخرة، وفي هذا إيماء إلى أن الوفاء بالعهد وعدم الخلف فيها هوالذى يقرب العبد من ربه، ويجعله أهلاً لمحبته، أما الانتساب إلى شعب بعينه فلا قيمة له عند الله .

ويقول الله تعالى فى ذات المعنى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ [سورة المائدة:١]. والمعنى : يأيها الذين امنوا أوفوا بالعقود فى ستة عهد لله، وعقد الخلق، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين . ويقول محمد بن كعب : هي خمسة : "حلف الجاهلية، وشركة المفاوضة " وقد استدل بعض من ذهب إلى إنه لا خيار فى مجلس البيع بهذه الآيه فقوله تعالى: "...أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ..." دالة على لزوم العقد وثبوته فيقتضى نفى خيار المجلس، وهومذهب الإمام أبوحنيفة ومالك وخالفهما في ذلك

الشافعي وأحمد والجمهور. والحجة فى ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله – ﷺ -:" البياعان بالخيار ما لم يتفرقا ". وفى لفظ آخر للبخاري : " إذا تبايع الرجلان فكل واحد فيهما بالخيار ما لم يتفرقا " وهذا صريح في إثبات خيار المجلس وليس منافياً للزوم العقد ، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقود . ويقول سبحانه :﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [سورة الأنعام:١٥٢]. والمعنى : يأمر الله – عز وجل – بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء ، كما توعد على تركه ، كما في قوله تعالى :﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾ [سورة المطفِّفين:١:٥]. وقال تعالى :"... وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... " . ويقول تعالى في الوفاء : " ...وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا..." . والمراد : وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوصوا ايفاءً لذلك بان تطيعوه فيما أمركم به ، ونهاكم عنه ، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله – ﷺ –، وذلك هوالوفاء بعهد الله ، "... ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾" . يعنى : هذا أوصاكم به ، وأمركم به وأكد عليكم فيه لعلكم تتعظون ، وتنتهون مما كنتم فيه قبل هذا .

ويقول الحق سبحانه:﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة النحل:٩١].والمعنى : حافظوا على العهود التي عاهدتم عليها رسول الله– ﷺ –أوعاهدتم عليها الناس وأدوها على الوفاء والتمام . ويقول الله تعالى : ﴿ ....وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [سورة الإسراء:٣٤]. والمعنى : وفوا بالعهود سواءً كانت مع الله ، أومع الناس ، لأنكم تسألون عنها يوم القيامة، ويقول الله – عزوجل – :

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ [سورة الرعد:٢٠]

ويقول الإمام الشهيد سيد قطب في تفسير هذه الآية :"وعهد الله مطلق يشمل كل عهد ، وميثاق الله مطلق يشمل كل ميثاق ، والعهد الأكبر الذي تقوم عليه العهود كلها هو عهد الإيمان ، والميثاق الأكبر الذي تتجمع عليه المواثيق كلها هوميثاق الوفاء ، بمقتضيات هذا الإيمان ، وعهد الإيمان قديم وجديد ، قديم مع الفطرة البشرية المتصلة بناموس الوجود كله المدركة إدراكاً مباشراً لوحدة الإرادة التي صدر عنها الوجود ، ووحدة الخالق صاحب الإرادة وإنه وحده المعبود ، وهوالميثاق المأخوذ على الذرية في ظهور بني آدم فيما ارتضيناه لها من تفسير.

ويقول الحق سبحانه :

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الأحزاب:٢٣].

والمعنى : من المؤمنين بالله المصدقين برسوله - ﷺ - رجال أوفوا بما عاهدوا الله عليه من الصبر في اللواء وحين البأساء فاستشهد بعضهم في غزوة بدر الكبرى ، وبعضهم في وقعة أحد ، وبعضهم في غير هذه المواطن ومنهم من ينتظر قضاءه واستشهاده في سبيل الله، ولقد وفوا وصدقوا وما غيروا ، وما بدلوا .

أخرج الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي في جماعة آخرين عن أنس قال : " غاب عمى أنس بن النضر عن بدر فشق عليه وقال :أول مشهد شهده رسول الله- ﷺ - غبت عنه ، لئن أراني الله تعالى مشهداً مع رسول الله- ﷺ - فيما بعد ليرين الله تعالى ما اصنع ، فشهد يوم احد فاستقبله سعد بن معاذ – رضى الله عنه – فقال : يا أبا عمرو إلى أين؟ قال :واها لريح الجنة أجدها دون أحد فقاتل حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون ضربة ، وطعنة ، ورمية ، فنزلت هذه الآيه " من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ". والآيه تشترط أن يتوافر في المجاهد المسلم ، والمقاتل المؤمن ، المدافع عن دينه ، الزائد عن أرضه وعرضه ثلاثة شروط :

١- الإيمان. من المؤمنين .

٢- الرجولة. رجال .

٣- الوفاء. صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

ويروى لنا صاحب الكشاف فيقول : " أن رجالاً من الصحابة – رضى الله عنهم – نذروا أنهم اذا لقوا حربا مع رسول الله – ﷺ – ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم " عثمان بن عفان،وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد ، وحمزة ، ومصعب بن عمير " وغيرهم

ويقول الله تعالى أيضا في معنى الوفاء :

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾

[سورة الحديد:٨].

يقول الإمام الشهيد سيد قطب : فما الذي يعوقهم عن الإيمان – حق الإيمان – وفيهم الرسول يدعوهم إلى الإيمان ، وقد بايعوه عليه ، وأعطوه ميثاقهم ؟ وما الذي يعوقهم عن الإيمان بالله وهوينزل على عبده آيات بينات تخرجهم من ظلمات الضلال والشك ، والحيرة ، إلى نور الهدى واليقين ، والطمأنينة ؟ وفي هذا وذاك من دلائل الرأفة والرحمة بما فيه .

ومن الوفاء المحمود أن يذكر الرجل ماضيه الذاهب لينتفع به في حاضره ومستقبله فإن كان معسراً فأغناه الله ، أومريضاً فشفاه الله ، فليس يسوغ له أن يفصل بين أمسه ويومه يسور غليظ ثم يزعم انه ما كان قط فقيراً ولا مريضاً ، ويبنى على غروره بحاضره مسلكاً كله فظاظةً وجحوداً . هذا نوع من الغدر ينتهي بصاحبه إلى النفاق ، وربما أنطرد من رحمة الله فلم تتسع بعدئذ له .

وقد روى أن رجلاً من أهل المدينة يدعى ثعلبة أتى مجلساً من مجالس الأنصار فأشهدهم لئن أتانى الله من فضله أتيت منه كل ذي حق حقه ، وتصدقت منه ، ووصلت القرابة،فمات ابن عم له فورث منه مالاً،فلم يف بشئ مما عاهد عليه.فنزل قول الله تعالى

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ

ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة التوبة:٧٥:٧٧]

ومن الجدير بالذكر أن ثعلبة هذا ليس المراد به الصحابي الجليل ثعلبة بن حاطب حيث أن ثعلبة بن حاطب ممن شهد غزوة بدر الكبرى فلا يعقل أن يكون هذا الفعل ، وذلك التصرف من ثعلبة بن حاطب بل هو ثعلبة غيره .

ومن القصص الدالة على شؤم العذر وعقوق النعمة ، ما رواه أبوهريرة عن رسول الله- ﷺ- قال : " ان ثلاثة من بني إسرائيل :أبرص ، وأقرع ، وأعمى ، أراد الله أم يبتليهم فبعث إليهم ملكاً ، فأتى الأبرص فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عنى الذي قذرني الناس ، فمسحه فذهب عنه قذره وأعطى لوناً وجلداً حسناً ، فقال : أى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ، فأعطاه ناقة عشراء وقال : بارك الله لك فيها . ثم أتى الأقرع فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عنى هذا الذي إليك ، قال : البقر ، فأعطى بقرة حاملاً وقال : بارك الله لك فيها . ثم أتى الأعمى فقال : اى شئ احب إليك ؟ قال : ان يرد الله على بصري ، فمسحه ، فرد الله عليه بصره ، قال : فأي المال احب إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطى شاة والدا فأنتج هذا وولد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم ، ثم انه أتى – أى الملك- الأبرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحيال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلاَّ بالله ثم بك ، أسالك بالذي أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن ، بعيراً أتبلغ به سفري ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيراً فأعطاك الله ؟ قال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر ، قال : ان كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت . واتى الأقرع في صورته فقال له : مثل ذلك ورد عليه مثل ما رد الأول فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت ، ثم أتى الأعمى في صورته وهيئته . فقال له

مثل ما قال فقال : قد كنت أعمى فرد اللّٰه عَلَيَّ بصري ، فخذ ما شئت ودع ما شئت فواللّٰه لا أجهدك اليوم لشئ أخذته ، فقال : إمسك مالك ، فإنما ابتليتم فقد رضى عنك ، وسخط على صاحبيك .

والإسلام يوصى باحترام العقود التي يسجل فيها الالتزامات وغيرها ، ويأمر بإنفاذ الشروط التي تتضمنها ، وفى الحديث " المسلمون عند شروطهم " (١).

1- صفوة التفاسير ج١ ، ص ٥٣ بتصرف ، جـ ٨ ، ص ٥٩ ، ج٢ ، ص ١٤١ .
- تفسير المراغى ج١ ، ص ٩٩ ، وما بعدها بتصرف ، جـ ٧ ، ص ١٤٧ ، جـ ١ ، ص ١٩ وما بعدها .
- في ظلال القرآن للإمام الشهيد سيد قطب جـ ٦ ، ص ٣٤ – ٨٣ ، جـ ٤ ، ص ٢٠٥٧ .
- القرطبي جـ ١ ، ص ٦٢ .
- تفسير ابن كثير جـ ٢ ، ص ٢،٣ وأيضا ص ١٨٩- ١٩٠ .

أهم المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم .

٢. السنة النبوية المطهرة .

٣. سنن الدارمى للحافظ الدارمى السمرقندى ، تحقيق احمد وخالد السبع ، نشر دار الريان للتراث ، القاهرة .

٤. سنن الدارقطنى للإمام على بن محمود الدارقطنى ، نشر عالم الكتب ، بيروت . لبنان .

٥. المفهم ، شرح صحيح مسلم للقرطبى ، نشر دار الكتاب المصرى ، القاهرة .

٦. عمدة القارئ ، شرح صحيح البخارى للعينى ، نشر دار أحياء التراث العربى ، بيروت . لبنان .

٧. مجمع الزوائد للهيثمى ، نشر موسوعة المعارف ، بيروت . لبنان .

٨. البحر المحيط .

٩. البحر المديد ، لإبن عجيبة .

١٠. التحرير والتنوير ، لعاشور.

١١. التسهيل لعلوم التنزيل ، لإبن جزرى .

١٢. التفسير الكبير، للفخر الرازى .

١٣. الزيادة فى كتاب " النهاية " لإبن الأثير.

١٤. المعجم الوافى لكلمات القرآن الكريم تأليف : محمد عتريس ، ط : مكتبة الآداب بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ .

١٥. بلاغات النساء لطيفور ، بتحقيق د . عبد الحميد هنداوى ، دار الفضيلة .

١٦. تفسير ابن كثير.

١٧. تفسير أبوالسعود .

١٨. تفسير الخازن .

١٩. تفسير القرطبي .

٢٠. تفسير النسفى .

٢١. تفسبر القرطبي ، ط . دار الريان للتراث . القاهرة .

٢٢. تفسير المراغى .

٢٣. تفسير الكشاف ، للزمخشرى .

٢٤. حاشية الصاوى على الجلالين .

٢٥. حاشية الشهاب للبيضاوى ، ط . مؤسسة التاريخ العربى .

٢٦. خلق المسلم الشيخ محمد الغزالي، ط . نهضة مصر .

٢٧. روح المعانى للألوسى ، ط . دار الفكر سنة ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م

٢٨. فى ظلال القرآن للإمام الشهيد سيد قطب ، ط . دار الشروق .

٢٩. لطائف الاشارات للإمام القشيرى ، ط . مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية للكتاب ص ١٩٨٣م .

٣٠. مختصر تفسير ابن كثير .

٣١. مفاتيح الغيب .